

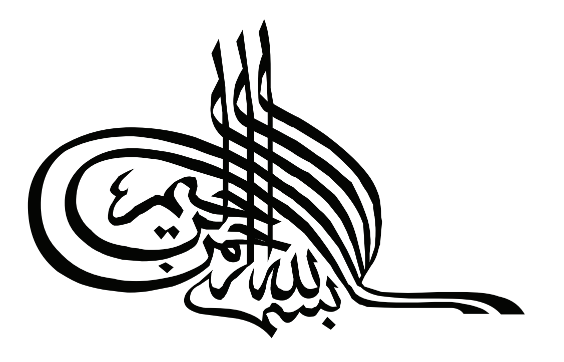
فمن خلق الله؟

نقد الشبهة الإلحادية:
"إذا كان لكل مخلوق خالق، فمن إذن خلق الله؟!"
في ضوء التحقيق الفلسفي والنقد الكوسمولوجي



د. سامي عامري

... فمن خلق اللّه؟


بسم الله الرحمن الرحيم

... فمن خلق اللّٰه؟

نقد الشبهة الإلحادية:

«إذا كان لكل شيء خالق، فمن إذن خلق الله؟!»

في ضوء التحقيق الفلسفي والكشف الكوسمولوجي

د. سامي عامري

هذا الكتاب من سلسلة إصدارات المؤسسة العلمية الدعوية العالمية

مبادرة البحث العلمي لمقارنة الأديان

Academic Research Initiative of Comparative Religion www.aricr.org

برعاية مركز تكوين للأبحاث والدراسات

فمن خلق الله؟

نقد الشبهة الإلحادية:

«إذا كان لكل شيء خالق، فمن إذن خلق الله؟!»

في ضوء التحقيق الفلسفي والكشف الكوسمولوجي

د. سامي عامري

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٨هـ/٢٠١٧م

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن نظر المركز»



Business center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith,
London W6 9DX, UK

www. Takween-center.com
info@Takween-center.com

تصميم الغلاف :



+966 5 03 802 799
المملكة العربية السعودية – الخبر
eyadmousa@gmail.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مصطلحات	٩
المقدمة	١٥
السؤال القديم	١٥
من أين جاء الاعتراض؟	١٨
حقيقة الشبهة	١٨
ما الذي نريد إثباته؟	١٩
حتى لا تُخدع. . . دِين الإلحاد ودَين الإلحاد	٢١
منهجنا في الردّ	٢٣
وعود الكتاب	٢٥
خلق الزمان في ميزان العقل	٢٧
دليل الحدوث	٢٧
حتميّة السببية	٢٩
التشكيك في الحتمية السببية فلسفيًّا	٣٠
التشكيك في الحتمية السببية علميًّا	٣٩
الكون ذو الطاقة الصفرية	٤٠
التذبذب الفراغي والقدرة الخلقية للاشيء	٤٣
لاشيء كشيء	٤٣
شيء كلاشيء	٤٤

الموضوع	الصفحة
السببية في عالم الكم	٤٧
وجوب القول بالتسلسل	٦٣
فساد اللاتناهي الواقعي	٦٣
تفاضل اللامتناهيات	٦٤
حاجة اللامتناهي للزيادة	٦٥
حصول زيادة اللامتناهي واقعيًّا	٦٦
تساوي غير المتماثلات	٦٦
اعتراض ١: إمكان التسلسل في المستقبل	٦٨
اعتراض ٢: كانتور و«نظرية المجموعة»	٦٩
اعتراض ٣: العد إلى الخلف	٧٢
اعتراض ٤: فماذا عن لانهائية الإلٰه؟	٧٤
لانهائية ما هو حصيلة تراكم أفراد	٧٤
اعتراض: اللاتناهي الرياضي	٧٨
دليل الإمكان والوجوب	٧٩
خلق الزمان في ميزان العلم	٨٣
رأي علماء الكوسمولوجيا في خلق الكون	٨٤
أدلة نظرية الانفجار العظيم	٨٩
شهادات علماء الكوسمولوجيا	٩٥
عندما يكشف الإلحاد عن قناعه	٩٥
ماذا لو يثبت بطلان نظرية الانفجار العظيم؟	٩٩
معنى النظرية	٩٩
تعدّد شواهد خلق الكون	١٠٠
تراكم الشواهد	١٠٥
فشل البدائل المطروحة	١٠٩
النموذج المتذبذب	١٠٩
التضخم الأزلي	١١١
نظرية الأوتار	١١٢

الموضوع	الصفحة
نماذج التذبذب الفراغي	١١٤
نموذج هاوكنغ	١١٥
ماذا لو كان الكون ساكنًا من الأزل؟	١١٧
خلاصة النظر	١١٨
الخيارات الممكنة المطروحة	١٢٤
إشكالات حول السؤال	١٢٧
أغلوطة الفئة	١٢٨
هل نحن نرتكب «أغلوطة التركيب؟»	١٣٢
مشكلة الأوّل الذي ليس قبله شيء	١٣٤
الأوّل . . .الله أم المادة؟	١٣٩
العلم والغيب	١٤٣
كيف يخلق الله قبل الزمن؟!	١٤٥
ماذا كان الله يفعل قبل خلق العالم؟	١٤٦
الاعتراض الإلحادي الذي لا ينهي النقاش	١٤٧
«هو الله!». . الجواب المعقد؟!	١٤٩
اعتراض: «الجواب معقدٌ!»	١٤٩
الإشكال المعرفي في الاعتراض	١٥٢
هل علينا أن نختار دائمًا الجواب الأقل تعقيدًا؟	١٥٣
هل «الله» كائن معقّد؟	١٥٨
داوكنز، بين غموض معقول، وغموض متناقض	١٦٢
الهروب إلى المجهول!	١٦٥
داوكنز في مواجهة داوكنز	١٧٥
هل ماتت الفلسفة، أم نُحِرَت؟	١٧٦
من هو مبدئ العالم؟	١٨٠
إله الدليل الكوسمولوجي، إلٰه الفجوات؟	١٨٠
ما هي صفات من يسمّيه الفلاسفة الإلهيون «بالسبب الأول؟»	١٨١
لماذا لا يكون هذا الخالق مَلكًا أو أي كائن روحي، وليس الله؟	١٨٣

الموضوع	الصفحة
ما الدليل على أنّ هذا الإلٰه هو من يسمّيه القرآن «الله؟»	١٨٣
ملحق: البرهان الفلسفي والعلمي لخلق المادة والزمان بين القرآن الكريم والتوراة والإنجيل	١٨٧
قصة الخلق في التوراة والإنجيل	١٨٩
الكون الأزلي في التوراة؟	١٨٩
«برا» والخلق من عدم	١٩١
كيف تصوّر مؤلّف سفر التكوين أصل الكون؟	١٩٤
العلم في مواجهة التوراة والإنجيل	٢١٦
قصة الخلق. . . بين رواية التوراة ورواية العلم	٢١٦
الكون البليوني أم الكون الألفي؟	٢٢١
عندما فجع النصارى واليهود	٢٢٢
قصة الخلق في القرآن والسُّنَّة	٢٣٣
الأول: خالق كلّ شيء	٢٣٣
عندما يفارق القرآن التوراة	٢٣٤
عندما يصحح القرآن أخطاء التوراة	٢٤٠
عندما يسبق القرآن خبر الانفجار العظيم	٢٤١
عندما تهدم السُّنَّة النبويّة دعوى الكون الصغير	٢٤٨
كلمة في الختام	٢٥٣
المراجع	٢٥٥

مصطلحات

١ ـ **كوسمولوجيّ Cosmologist**: المتخصص في علم الكوسمولوجيا والذي هو علم يدرس أصل الكون وتطوّره ومآله.

٢ ـ **الدليل الكوسمولوجي Cosmological Argument**: مجموعة براهين تسعى لإثبات وجود الله من خلال بيان وجود سببٍ أوَّلَ غير مُسبَّب لوجود الكون، وهو الله ـ سبحانه ـ.

٣ ـ **الدليل الكوسمولوجي الكلامي The Kalam Cosmological Argument**: برهان على وجود الله قائم على أنّ الكون مخلوق وأنه محتاج بذلك إلى خالق يخرجه إلى الوجود.

٤ ـ **دليل الإمكان The Contingency Argument**: برهان فلسفي يثبت وجود الله بإثبات طبيعة الإمكان في الكون بأشيائه، وأنّ طبيعة الإمكان في الكون لا تستغني عمّن هو واجب الوجود

٥ ـ **واجب الوجود Necessary being**: ما استحال عليه العدم لترتب المحال على عدمه.

٦ ـ **الممكن Contingent**: ما يقبل الوجود والعدم.

٧ ـ **الإبستيمولوجيا Epistemology**: بحث فلسفي في طبيعة المعرفة ومصدرها وحدودها ومناهجها.

٨ ـ **الأنطولوجيا Ontology**: فرع من الميتافيزيقا يهتم بدراسة الوجود، حقيقته وصفاته. وفي الفلسفة هو دراسة الشيء كشيء.

٩ ـ **مبرهنة بورد وغوث وفلنكن Borde - Guth - Vilenkin Theorem**: قاعدة وضعها ثلاثة من كبار الكوسمولوجيين تلقّاها عامة العلماء بالقبول تقرّر أنّ كلّ كون (أو أكوان) يتمدّد بدرجة أعلى من الصفر، فلا ريب أنه يعود إلى بداية ولا يمكن أن يكون أزليًّا.

١٠ ـ **ميتافيزيقيا Metaphysics**: البحث الفلسفي عن الطبيعة النهائية للحقيقة التي وراء ظاهر المادة.

١١ ـ **مبدأ الماهية Principle of identity**: حقيقة الشيء، وهو ما به الشيء هو هو.

١٢ ـ **مبدأ عدم التناقض Principle of non - contradiction**: مبدأ يقرّر أنّ النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان.

١٣ ـ **ميكانيكا الكم Quantum mechanics**: فرع من الفيزياء متعلّق بدراسة الظواهر المتناهية الصغر لعالم الذرة وما دونه.

١٤ ـ **تذبذب كمومي Quantum fluctuation**: في فيزياء الكم، تغيّر ظرفي لمستوى الطاقة في نقطة ما في الفضاء كما فسّره مبدأ عدم التأكّد لـ(هايزنبرغ).

١٥ ـ **فراغ (الخلاء) Vacuum**: الفراغ عند الفيزيائيين هو مجال مضطرب مكون من الطاقة الضعيفة.

١٦ ـ **عدم Nothingness**: الغياب المطلق لكلّ شيء.

١٧ ـ **تفسير كوبنهاغن Copenhagen interpretation**: أحد أشهر التفسيرات في علم ميكانيكا الكم، ويتميّز عن كثير من التفسيرات الأخرى بتقريره طبيعة لاحتمية عالم ما تحت الذرة.

١٨ ـ **الجسيم الافتراضي Virtual particle**: جسيم ينشأ في مستوى تحت الذرة في فترة قصيرة ثم يختفي. ليس بالإمكان رؤيته وإنما يدرك من آثاره، ولذلك اعتُبر «افتراضيًّا».

١٩ ـ **جدار بلانك PlanckWall**: اللحظة $١٠^{-٤٣}$ من الثانية الأولى من عمر الكون.

٢٠ ـ **التسلسل**: أن يحدث قبل كل حادث حادث آخر لا إلى بداية.

٢١ ـ **أزلي**: لانهائي من جهة الماضي.

٢٢ ـ **أبدي**: لانهائي من جهة المستقبل.

٢٣ ـ **سرمدي**: لانهائي من جهتي الماضي والمستقبل.

٢٤ ـ **القانون الثاني للديناميكا الحرارية The second law of thermodynamics**: قانون كوني يُعبَّر عنه بصيغ مختلفة، من أهمها أنّ الحرارة في عالم مغلق تنتقل دائمًا من الأعلى إلى الأدنى نحو النفاد.

٢٥ ـ **الانزياح نحو الحمراء Redshift**: ظاهرة فلكية تتمثّل في زيادة طول الموجة الكهرومغناطيسية للجرم السماوي أو تحوّلها إلى اللون الأحمر في آخر المجال الطيفي بسبب سرعة ابتعاده عنّا.

٢٦ ـ **سديم Nebula**: جمعه: سدم. جرم سماوي يتكون من غاز متخلخل و/ أو غبار كوني.

٢٧ ـ **إشعاع الخلفية الكونية الميكروي cosmic microwave background radiation**: أشعة كهرومغناطيسية منتشرة في الكون يقدّر العلماء أنها من أثر الانفجار الكوني الحراريّ الأوّل.

٢٨ ـ **نظرية الحال الثابتة The Steady State Theory**: نظرية تزعم أزلية الكون، وهي مبنية على القول إنه مع تمدد الكون تنشأ مادة جديدة ليبقى بذلك الكون في حال ثبات. وقد كانت أهم منافس لنظرية (الانفجار العظيم) في النصف الأول من القرن العشرين، لتنهار بعد ذلك ويهجرها العلماء.

٢٩ ـ **مفردة Singularity**: نقطة لامتناهية الكثافة.

٣٠ ـ **اللاأدرية Agnosticism**: حرفيًّا: اللامعرفة. نسق اعتقادي يرى أنه لا يمكن حسم مسألة وجود الله نفيًا أو إثباتًا لتكافؤ الأدلة المثبتة والنافية، أو لعجز في العقل ابتداءً عن حسم هذا الأمر.

٣١ ـ **الفيزياء الفلكية Astrophysics**: أحد أفرع علم الفلك، وهي تُعنى بدراسة عناصر الكون وطبائعها، كالكواكب والمجرات، ولمعانها وكثافتها . . .

٣٢ ـ **اللاهوت Theology**: نسق اعتقادي ديني حول الله والحقيقة المطلقة.

٣٣ ـ **الأنتروبي Entropy**: مقياس العشوائية والفوضى. والقاعدة هي أنّ العشوائية في الأنظمة المغلقة لا يمكن أن تقلّ مع حركة الزمان.

٣٤ ـ **الزمكان Spacetime**: مصطلح فيزيائي أدغمت فيه كلمة «زمان» في كلمة «مكان»، وهو يعبّر عن الفضاء الرباعي الذي يضمّ المكان بأبعاده الثلاثة والزمان كبعد رابع.

٣٥ ـ **نظريّة الانفجار العظيم The big bang theory**: نظرية يتبناها كلّ أعلام الكوسمولوجيا اليوم، وهي تقرر أنّ كوننا قد بدأ بانفجار عظيم من لا شيء حدث منذ بلايين السنين، وبهذا الانفجار ظهر المكان ومعه الزمان.

٣٦ ـ **النموذج المتذبذب Cyclic model**: كلّ نموذج كوني يقرر أنّ الكون يعيش دورات ذاتية متتالية من التضخم والانكماش.

٣٧ ـ **التضخم الأزلي Eternal Inflation**: أثر مشترك لعدد من النماذج الكونية التضخمية التي دافع عنها عدد من الكوسمولوجيين حيث يتضخم الكون ولا يعود إلى تقلّص.

٣٨ ـ **التضخم العشوائي Chaotic inflation**: نموذج كوني اقترحه الكوسمولوجي (أندري لند)، وهو يقرر أن أكوانًا متعددة تظهر كلّ مرة في جوانب الكون الأم، وكأنها فقاعات عشوائية تظهر على سطحه.

٣٩ ـ **الثقوب السوداء Black hole**: مجال زمكاني له جاذبية عالية يسحب إلى نفسه كلّ مادة أو إشعاع قريب منه.

٤٠ ـ **الداروينية (الحديثة) Neo - Darwinism**: مذهب تطوري يقرّر أنّ كلّ الكائنات الحية على الأرض تعود إلى خلية واحدة أولى، وأنّ هذا التطوّر عشوائي غير موجّه من خارجه وإنما هو قائم على مجموع آليات طبيعية أهمها الطفرات العشوائية في الجينات والاصطفاء الطبيعي.

٤١ ـ **أغلوطة الفئة The category fallacy**: أغلوطة منطقية تنسب الشيء إلى غير فئته، وبذلك تجيز وصفه بغير الأوصاف التي توافق نوعه.

٤٢ ـ **أغلوطة التركيب The fallacy of composition**: أغلوطة منطقية تزعم أنّ كلّ ما يَصدق من وصف للجزء يصدُق على الكلّ.

٤٣ ـ **العِلموية Scientism**: مذهب فلسفي ظهر في القرن التاسع عشر، وهو يقوم على دعوى أنّ العلم التجريبي له السلطان الأوحد أو الأعلى لكشف حقائق الوجود.

٤٤ ـ **الحمض النووي DNA**: جزيء حيوي يضم المعلومات الجينية للكائن الحي.

٤٥ ـ **فرضية الأكوان المتعددة Multiverse hypothesis**: نظرية لها أكثر من صيغة تزعم وجود عدد كبير من الأكوان، أحدها كوننا، وتسمى أحيانًا بالأكوان المتوازية. تزعم بعض النظريات وجود عدد لامتناه من الأكوان في حين تقرّر أخرى أنّ العدد متناه وإن كان ضخمًا جدًّا.

٤٦ ـ **إله ربوبي Deistic God**: مذهب عقدي قائم على أنّ الكون دال على خالق قدير، لكنّ هذا الخالق رتّب الكون ليعمل بنظام، ثم تركه، ولم يرسل وحيًا للبشر للعمل بأوامره أو لتنظيم أمورهم. ازدهر في أوروبا في ما يُعرف «بعصر التنوير».

٤٧ ـ **إله الفجوات God of the gaps**: اعتراض إلحادي يزعم أنّ المؤمنين بالله يقيمون إيمانهم بالخالق على مساحات الجهل في معارفنا البشرية؛ فكلّ ما نجهل تفسيره العلمي لا بدّ أن يكون وجود الإلٰه هو ما يفسّره.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله.. والصلاة والسلام على رسول الله..

السؤال القديم:

لم يحيّرني سؤال عَقدي لما بدأت أشبّ عن طوق التقليد وأختبر صدق ما ورثته من عقيدة في الله واليوم الآخر ـ مع اقترابي من سنّ العشرين ـ مثل سؤال: «من خلق الله؟»، فقد استشكل عقلي أن يكون هناك كائن بلا بداية؛ إذ إنّ كلّ زمن لا بدّ أن يكون مسبوقًا بزمن إلى ما لا نهاية.. كان هذا السؤال يطرق ذهني كلّ حين، ويكدّر عليّ صفو نفسي ويعصف بقلبي.. كنت أسعى جهدي لأفرّ منه، لكن دونما فكاك.. كانت البيئة شحيحة عن كلّ خير، فلا أهل علم يُسألون، ولا حلقات علم في المساجد، ولا كتب تفرّ من الرقابة العنيدة إلّا ما لا يشبع جوعة ولا يرفع من كبوة.. كان عنوان المرحلة: «تجفيف منابع الدين»، وما «التجفيف» غير القحط والقهر؟!

مضى ذاك الزمن البائس، ومرّت تلك التجربة المريرة بمرارتها اللاذعة معلنة أنّ الجهل النابع من عجز المرء عن إدراك الأبواب التي تطرق سببٌ للتيه ولو كانت الشبهة أرقّ من بيت العنكبوت.. وإذا اجتمع على المرء الجهل وتمالؤ أهل الباطل بسلطانهم على الحق، فرّخت الفتنة!

اكتشفتُ في تلك الفترة أثناء بحثي عن جواب سؤال: «... فمن خلق الله؟» أنّ هذا الإشكال قد راود الكثير من الناس، وعجبتُ أنّه سؤال قديم متجدد، لا يختفي حتى يعاود الظهور مرّة أخرى، وأَعجب من ذلك أنه قاد طائفة من أئمة الإلحاد إلى جحد الخالق في طفولتهم أو شبابهم دون أن تقوى عقولهم بعد ذلك على الخروج من أسر تلك الشبهة ووحل تلك الوهدة.

يخبرنا ـ مثلًا ـ (برتراند راسل) (Bertrand Russell) ـ أحد أهم فلاسفة

الإلحاد في القرن العشرين ـ عن تجربته مع عقيدة الإلحاد والبحث عن خالق بقوله: «عندما كنت صغيرًا، كنت أجادل في هذه الأسئلة مع نفسي بجديّة، وقد قبلت لفترة طويلة حجّة «السبب الأوّل»[1]، حتّى قرأت في يوم من الأيام السيرة الذاتية لـ(ستيوارت مِل) (Stuart Mill) لما كنت في سن الثامنة عشرة من عمري، ووجدت فيها هذا المقطع: «علّمني أبي أنّ سؤال: من خلقني؟ لا يمكن الإجابة عنه؛ لأنه يؤول مباشرة إلى ظهور سؤال آخر: «من خلق الله؟»». لقد كشف لي هذا المقطع البسيط جدًّا، كما هو اعتقادي إلى الآن، وجه المغالطة في دليل السبب الأول. إذا كان لا بدّ لكلّ شيء من سبب، فلا بدّ أن يكون لله أيضًا سبب. إذا كان من الممكن أن يكون شيء ما بلا سبب، فمن الممكن أن يكون العالم كما الله، وبالتالي فليس لهذا الدليل أدنى شرعية»[2].

أمّا (كارل ساغان) (Carl Sagan) عالم الكوسمولوجيا الشعبوي المعروف، فيقول: إنّ الكثير من الشعوب تحمل في ثقافتها جوابًا مألوفًا عن أصل العالم بقولها: إنّ الله قد خلقه من عدم. ويعقّب على ذلك بقوله: إنّ هذا جواب ظرفي، وإنّ الشجاعة تقتضي أن نستمر في التساؤل: «فمن أين جاء الله؟». وإذا قيل: إنّ الله موجود بلا ابتداء، فإنّ (ساغان) يرى أنّ علينا أن نختصر على تفكيرنا خطوة إلى الخلف، لننتهي عند القول: إنّ الكون كان موجودًا من الأزل[3].

لم يكتفِ نبي (الإلحاد الجديد)، وملهمه، (ريتشارد داوكنز) (Richard Dawkins)، باستحضار الاعتراض الإلحادي: «. . . فمن خلق الله؟»، وإنّما جعل هذا السؤال قلب كتابه: «وهم الإلٰه» (٢٠٠٦م) الذي يعدّ **أبرز كتاب إلحادي في العقود الأخيرة**، مقررًا رفضه لفكرة الخالق؛ «لأنّ فرضية المصمّم

---

(١) يَقصد «الدليل الكوسمولوجي» الذي سيأتي بيانه بعد قليل.

(٢) Bertrand Russell, *Why I Am Not a Christian: And Other Essays on Religion and Related Subjects* (New York: Simon and Schuster, 1957), pp.6 - 7.

(٣) Carl Sagan, *Cosmos* (New York: Random House, 1980),p.212.

تثير مباشرة مشكلة أكبر لمصمّم المصمّم»[١].

ليس هذا السؤال نتاجًا بكرًا للفلسفة الحديثة، ولا هو أثر من كشوف العلم الحديث، وإنّما هو قديم قدم تفكّر الإنسان في ربّه، وهو في أمّة الإسلام كما في غيرها من الأمم، فقد قال رسول الله ﷺ: «**لن يبرح الناس يتساءلون: هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟**»[٢]. كما جاء في الحديث النبوي الأمر بالاستعاذة من هذا الخاطر الشيطاني، فما هو إلّا نفثة من نفثات إبليس. قال ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينتهِ**»[٣].

إنه سؤال حاضر حضور تفكّر الإنسان في ربّه، ولذلك فهو يبلبل عقول بعض المؤمنين بخالقٍ، كلّ عصر، وطريق طرده هو الاستعاذة بالله من وسوسة الشيطان كما هو الهدي النبوي، فإن ألحّ السؤال على العقل وتمكّن من الصدر فدواؤه النظر وإمعان الفكر في حقائق العقل والوجود، وفي هذا يقول الإمام (المازري): «ظاهر الحديث أنه ﷺ أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها، من غير استدلال ولا نظر في إبطالها. وقال: والذي يقال في هذا المعنى: إنّ الخواطر على قسمين: فأما التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت فهي التي تدفع بالإعراض عنها، وعلى هذا يحمل الحديث، وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة، فكأنه لما كان أمرًا طارئًا بغير أصل دفع بغير نظر في دليل؛ إذ لا أصل له ينظر فيه، وأما **الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها**»[٤].

ومن منطلق وجوب الردّ على الشبهات إذا رسخت في ثقافة الناس أو شاعت، خاصة مع انتشار الشبهات في زمن «النِت» بصورة تفوق قدرة الدعاة

---

(١) Richard Dawkins, *The God Delusion* (Boston: Houghton Mifflin, 2006), p.158.

(٢) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٣) متفق عليه.

(٤) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (تحقيق: خليل مأمون شيحا، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٤م)، ٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

على كفّ توسّعها، سيكون حديثنا عن فساد الحجّة الإلحادية: «. . . فمن خلق الله؟!»، مع تتبّع أهم الاعتراضات التي تقدّمها الكتابات الإلحادية في الغرب حيث للإلحاد أئمة ومدارس وسلطان.

شبهة «... فمن خلق الله؟»: يُتعوّذ منها إذا كانت عارضة، وتُقام لجوابها البراهين إذا تمكّنت من النفس.

من أين جاء الاعتراض:

يخطئ البعض بعرض شبهة «خالق الخالق» معلّقة دون مقدمة، وكأنّها اعتراض ابتدائيّ، متجاهلين أنّها ردٌّ على دليل يستعمله المؤلّهة لإثبات وجود الخالق، وهو ما يعرف بـ(الدليل الكوسمولوجي) (cosmological argument)، ولهذا الدليل صور متعددة، أحدها هو القول إنّ لكلّ حادث (أي: شيءٍ وُجد بعد أن لم يكن) محدِثًا، ولما كان العالم محدَثًا، كان لا بدّ له من محدث من خارجه؛ أي: من يسمّيه المؤلّهة: «الله».

يعترض الملاحدة على الدليل الكوسمولوجي بقولهم: إذا كان كلّ شيء يحتاج إلى محدث، فالله نفسه محتاج إلى محدث، وهو ما يعني أنّ دليل المؤلّهة يحمل في داخله دليل فساده. ويتجاوز بعض الملاحدة مجرّد الرغبة في إبطال حجيّة الدليل الكوسمولوجي إلى القول: إنّ اعتقاد أزليّة الخالق مخالف لما يقرّره العقل من امتناع وجود من/ما لا بداية له.

حقيقة الشبهة:

الاعتراض الإلحادي ينتهي بـ«. . . فمن خلق الله؟!»، وله مقدّمات وتضمينات يجب أن تُكشف إن أردنا أن نقدّم ردًّا وافيًا على هذه الشبهة يفي بالإحاطة بدعاويها، ولعلّ أهم هذه المقدمات والتضمينات هي:

- يَقبل عامة الملاحدة أنّ لكلّ حادث سببًا خارجًا عنه، لكنّهم يرون أنّ مبدأ السببية لا بدّ أن يؤول إلى القول بسلسلة لامتناهية من الأسباب في الماضي.

• يرفض الاعتراض في ظاهره فكرة التسلسل اللامتناهي للأسباب في الماضي لكنه يقوم في حقيقته على رفض مبدأ السببية، ولو جزئيًّا في مسألة العالم المخلوق.

• يرى أصحاب الاعتراض أنه لم يقم داعٍ لاستثناء الإلٰه من مبدأ السببية، فلا حجّة للقول إنّه «السبب الأوّل» الذي لا يسبقه سبب.

• غيّرَ الملاحدة صورة برهان الحدوث من: «كلّ حادث لا بدّ له من محدِث» إلى «كلّ شيء لا بدّ له من محدِث».

• إذا كان من المعقول أن يوجد ما/من لا سبب له، فليكن هو العالم المادي الذي نوقن بوجوده، بما يدفع الإشكال، بدلًا من الإلٰه الذي اختلف الناس في وجوده لأنّ ذاتهُ غيب غير مشهود.

• تقع هذه الشبهة في زمن يرى فيه أنصارها عجز التفكير «الديني» عن الحديث عن الكون، وأصله، وأنّ العلم له حقّ احتكار الحديث في هذا الشأن وفي غيره من قضايا الإنسان الكبرى. وفي هذا يقول (داوكنز) ساخرًا: «إذا كان العلم لا يستطيع الإجابة على بعض الأسئلة النهائية، فما الذي يجعل أيّ أحد يعتقد أنّ الدين بإمكانه فعل ذلك؟ أشكّ في أن يكون الفلكيون في كمبردج أو أوكسفورد يعتقدون حقيقة أنّ للاهوتيين أية ملكة تمكّنهم من الإجابة على أسئلة أعمق من أن يطالها العلم»[١].

ما الذي نريد إثباته؟

الفكرة الأساسية التي بثبوتها يصبح سؤال الملحد عن «خالقِ الله» بلا معنى، هي أنّ الله ـ سبحانه ـ متعال على الزمان؛ أي: إنّ وجوده ثابت «قبل» وجود الزمان، فهو مخرج الزمان من العدم إلى الكينونة الواقعية، أو قل هو مزمّنه. **وبثبوت خلق الله للزمان، أو وجوده غير المزمّن، يغدو الحديث عن خالقِ الخالق بلا معنى**؛ لأنّ خلق الخالق يقتضي وجود زمان، ووجود الله

(١) Richard Dawkins, *The God Delusion*, p.80

خارج الزمان، وأن يكون هذا الزمان من صنعته؛ يعني: أنّ الله بلا خالق.
وثبوت أن يكون الله خارج الزمان يكون بإثبات واحد من أمرين، وهما:

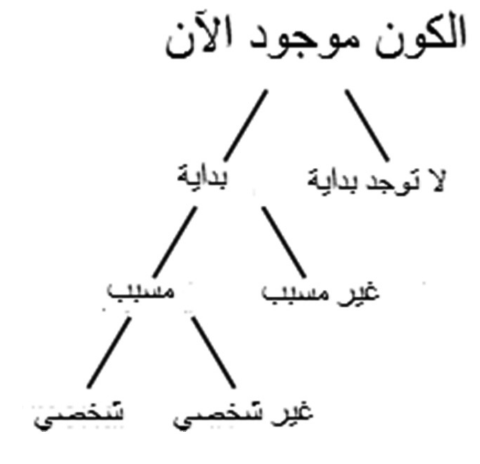
- الزمان (الذي هو أثر للمكان كما سيأتي) مخلوق.
- أو أنّ وجود الله حتم لازم عقلًا في كلّ حين، ولا يمكن أن يخلو الوجود من وجوده.

أو بعبارة أخرى: يبطل الاعتراض الإلحادي بإثبات أنّ:

- الله ـ سبحانه ـ فوق الزمان، وإذا كان فعل الخلق لا يكون إلا في زمان، كان الحديث عن خلق الله بلا معنى.
- أو بإثبات أنّ الله متعال على الزمان لأنّ وجوده حتم لازم في الزمان وفي غير الزمان، وإذا كان هذا الوجود غير مرهون للزمان، وكانت المخلوقية مرهونة للزمان، كان السؤال عن الخالق بلا معنى.

جواب شبهة: «... فمن خلق الله» يكمن في معرفة علاقة الله ـ سبحانه ـ بالزمان.

وخلاصة بحثنا هي معرفة طريقنا ضمن الاحتمالات التالية[1]:



(١) J. P. Moreland, *The God Question: An Invitation to a Life of Meaning* (WA: Harvest House Publishers, 2009), p.57.

أي: العبور من حقيقة وجودنا إلى حقيقة وجود (الذات العليّة) التي لا يتسلّط على وجودها قانون السببية ضمن مجرى الزمان.

حتى لا تُخدع.. دِين الإلحاد ودَين الإلحاد:

يحلو للملاحدة تكرار الزعم أنّ الإلحاد هو مجرّد إنكار وجود الخالق، ولذلك فليس للملاحدة في مجال المناظرة مع المؤلّهة سوى أن يردّوا حججهم ليثبُتَ الأصل، وهو عَدَم الخالق. وحقيقة الأمر بعيدة عن ذلك كلّ البعد؛ فرغم أنّ الإلحاد في ظاهر تعريفه اللفظي هو كما ادّعى الملاحدة، إلا أنّ الإلحاد لا يملك حقّ السلبية أمام أصل الكون؛ فهو برفضه (للاأدريّة) ينحاز قسرًا إلى موقف محكم من عدّة أمور متصلة بقضايا سجالية بينه وبين الإيمان. وقد أحسن (ويليام رو) (William Rowe) ـ أحد أقطاب فلاسفة الإلحاد في العقود الأخيرة ـ في تعريفه الإلحاد أنّه «الموقف الذي يؤكّد عدم وجود الله. إنّه يقترح إنكارًا إيجابيًّا وليس مجرّد تعليق للإيمان (suspension of belief)»[(١)]. فالإلحاد دعوى إيجابيّة؛ أي: إنه **يحمل مقولات ذاتية تفسّر الوجود وحقيقته في عامة المجالات الكبرى التي للدين له فيها تصوّرات وجودية تفسيريّة كبرى**، فالملحد يرفض تفسير الإلٰهيين لأصل الكون وحقيقته وغايته لأنّه يؤمن بمقولات الإلحاد في أصل الكون وحقيقته وغايته.

والإلحاد ـ على الصواب ـ هو دين من الأديان ـ وليس محض نفي صامت ـ إذا تعلّق الأمر بالنظرة الكليّة إلى الوجود، فقد عرّف المفكّر الإسكتلندي (نينيان سمارت) (Ninian Smart) الأبعاد السبعة للتصوّر الديني، وعامة هذه التصوّرات ثابتة في المعتقد التصوّري الإلحادي، ومنها الجانب الروائي (Narrative)، والجانب العقدي (Doctrinal)[(٢)]. يتعلّق الجانب

---

(١) William Rowe, "Atheism", in Edward Craig, ed. *The Shorter Routledge Encyclopedia of Philosophy* (New York: Routledge, 1998), p.73.

(٢) الأبعاد الخمسة الأخرى: الشعائرية (Ritual)، والتجريبية (Experiential)، والأخلاقية (Ethical)، والاجتماعية (Social)، والمادية (Material).

الروائي بتفسير أصل الكون والإنسان، وأمّا الجانب العقدي فيتعلّق بحقيقة الوجود وفلسفته وغايته[1]، وهاهنا يفترق الإيمان والإلحاد بتبنّي تصوّرين محكمين متضادين، دون أن يكتفي الإلحاد برفض التصوّر الإيماني بصورة سلبية، فهو يطرح بديله الروائي والعقدي كحقيقة وجودية معقولة.

من العناصر الروائية والعقدية الإلحادية المتصلة بحديثنا عن شبهة «. . . فمن خلق الله؟»:

- إمكان اللاتناهي (infinity) في عالم الواقع.
- يشهد العلم أنّ المادة أزلية لا أوّل لها.

أو:

- المادة نشأت من عدم دون سبب.
- النظام نشأ من فوضى.
- المعنى نشأ من اللامعنى.
- المادة والطاقة تملكان اختيار أعراضهما الأولى (الشكل، الحركة. . .).
- المادة والطاقة قادرتان على الانتظام الذاتي في قالب قوانين طبيعية متناغمة ومعقدة.
- (العقل/الوعي/الحكمة) هي ظواهر تالية زمنًا للمادة والطاقة لا العكس.
- سبب وجود المادة والطاقة هو الامتناع العقلي لعدمهما.
- الكون حقيقة مفهومة لعقولنا دون أن نفهم سبب ذلك.

ويترتّب عمّا سبق تقرير أنّ الحوار الإيماني ـ الإلحادي يُلزم الملحدين كما المؤمنين بإثبات صحّة مقرراتهم الروائية والعقدية، فعلى المتديّن بدِين

---

(١) Ninian Smart, *Ninian Smart on World Religions* (Aldershot: Ashgate, 2009), 1/232.

الإلحاد دَينٌ عليه أن يوفّيه حتى لا يكون كَلًّا على محض الإنكار، وهو أن يقدّم روايته لأصل الخلق أو بدئه بما لا يخالف المحكمات العقليّة أو قواطع العلوم. . . بل عليه قبل ذلك أن يقدّم أدلّته العقليّة وحججها العلمية لإقامة بنيان دعواه المبدئيّة أنّ الحياة مادة، ولا إله!

ما أهمية عرض أدلة الرأيين؟

تَقابُلُ أدلة فريق المؤمنين وفريق الملحدين، وعدم الاقتصار في العرض على أحدهما في مجرى المناظرة يفيد الباحث عن الحق في الوصول إلى مبتغاه من واحد من ثلاث طرق:

١ ـ إثبات أحد القولين صحته بالدليلين العقلي والعلمي، برهان صوابه.

٢ ـ ثبوت بطلان أحد المذهبين مثبت لصحة الآخر؛ لأن المتناقضين لا يرتفعان، فلا بد من صحة أحدهما.

٣ ـ عند عدم إمكان القطع، بالإمكان ترجيح أقوى القولين برهانًا وإن لم يبلغ مرتبة اليقين التام.

سؤال: «... فمن خلق الله؟» هو اعتراضٌ دهريّ على الملحد أن يثبت مقدماته ويدافع عن تضميناته.

منهجنا في الردّ:

يقع هذا الكتاب في سياق واضح، وهو مناقشة ملحد عنيد في انتصاره لمذهبه، ولذلك فلا بدّ أن نتّبع مسلكًا خاصًا في بيان الحق له، ومن معالم هذا المسلك:

- لا نستدلّ البتّة بالقرآن كدليل خبري نلزم به مخالفنا، على خلاف الدليل العقلي الوارد في القرآن، فهو حجّة في هذا السجال بدلالته العقلية لا بمصدره.

- ما نطلقه على الله ـ سبحانه ـ في هذا الكتاب من أوصاف على ثلاثة أصناف: ما جاء به الوحي (كالخالق والأول)، وما يدخل في باب الإخبار،

كليّة أو جزئيًّا (كالموجود والشيء)، وليس في هذه النسبة إشكال[1]، وأمّا الثالث (كصفة الذكاء)، فلا نطلقها ونقصد معناها، وإنّما هي من باب تقريب المعاني إلى المخالف الملحد، وذلك أنه لا يؤمن إلّا بالمعاني المادية، ودلالات الكون على الأفكار[2].

• سَعَينا أن نردّ بتوسّع على الشبهة كما تبدو في كتابات أئمة الإلحاد اليوم، من أصحاب المؤلفات الذائعة أو المناظرات المشهورة، حتى نبيّن فساد الاعتراض، أصولًا وفروعًا، وحتى يدرك القارئ المسلم دقائق الشبهة وتفاصيل فسادها.

• يكثر في الكتاب النقل عن غير المسلمين، من فلاسفة وعلماء كونيات، وليس في ذلك تصحيح لعقائدهم الكبرى، وإنّما ذلك لصدق حجّتهم في المسائل المخصوصة المدروسة.

• ليس هذا الكتاب في إثبات وجود الله، وإنما في الردّ على شبهة

---

(١) من القواعد المهمة في هذا الباب:
ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.
ما يطلق على الله ـ سبحانه ـ في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفًا كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه.
الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه بل يطلق عليه منها كمالها وهذا كالمريد والفاعل والصانع.
ابن القيم، بدائع الفوائد، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وعادل عبد الحميد العدوي وأشرف أحمد، مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ١/ ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) يقول ابن تيمية: «اذا أثبت الرجل معنى حقًّا، ونفى معنى باطلًا، واحتاج إلى التعبير عن ذلك بعبارة لأجل إفهام المخاطب؛ لأنها من لغة المخاطب ونحو ذلك، لم يكن ذلك منهيًّا عنه؛ لأن ذلك يكون من باب ترجمة أسمائه وآياته بلغة أخرى، ليفهم أهل تلك اللغة معاني كلامه وأسمائه، وهذا جائز، بل مستحب أحيانًا، بل واجب أحيانًا، وإن لم يكن ذلك مشروعًا على الإطلاق؛ كمخاطبة أهل هذه الاصطلاحات الخاصة في أسماء الله وصفاته وأصول الدين باصطلاحهم الخاص، إذا كانت المعاني التي تُبيَّن لهم هي معاني القرآن والسُّنَّة».
بيان تلبيس الجهمية، تحقيق: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، مكة: مطبعة الحكومة، ١٣٩٢هـ، ٢/ ٣٨٩.

إلحادية، ولذلك لن نطرق مواضيع متصلة بالموضوع الأكبر المتعلّق بوجود الخالق، كدليل العناية، ودليل الهداية وغير ذلك من براهين، فقد أرجأناها لكتاب يتناول هذه المواضيع بالتفصيل، وإن كان هذا الكتاب قد وفّى الدليل الكوسمولوجي حظّه من العرض.

وعود الكتاب:

يقع الكتاب في سياق صراع الإيمان والإلحاد في العالم الغربي بين تيار فلسفي علمي إيماني وتيار يعاديه يقوده ما يُعرف بـ(الإلحاد الجديد). ويسعى هذا الكتاب إلى تأكيد أنّ العقل المسلم قادر على بذل الحل الذي يسكت وساوس الإلحاد ويتجاوز عثرات الأجوبة الإيمانية التي تقدّمها النصرانية، ولذلك فإنّنا نتجرّأ في هذا الكتاب على تقديم عدد من الوعود، نسأل الله بفضله أن نوفّيها، وهي:

- يسعى الكتاب إلى إثبات جواب برهاني صريح ضمن منظومة عقديّة سُنيّة إجابةً على سؤال: «... فمن خلق الله؟». ونحن بذلك لا نبتدئ إقامة البرهان من عدم وإنّما نحاول إضافة لبنة جديدة في بناء البرهان الإسلامي القادر على مخاطبة العقل المعاصر في الغرب والشرق.

- نَقَضَ العقل المسلم الشبهة التي يفصّل فيها هذا الكتاب منذ قرون طويلة، ببراهين قاطعة وماتعة. ويسعى كتابنا إلى أن يفيد من التراث العقلي الإسلامي مع الإفادة من رصيد الفكر الغربي القديم والحديث، فلسفيًّا وعلميًّا.

- يناقش الكتاب اعتراضات أئمة الإلحاد من فلاسفة وكوسمولوجيين من المتقدمين وآخر المتأخّرين ليتحقّق للقارئ ما يفيده في رفع رصيده المعرفي حتى يدخل مجال الجدل الفكري على بصيرة.

- يرغب الكتاب في بيان تهافت العقل الإلحادي الغربي وسعيه بكلّ حيلة إلى أن يفرّ من قطعيات العقول ومُدركات العلوم الحديثة. وسيدرك القارئ بالمثال أنّ الأسماء الإلحادية الكبرى اليوم قد جنت على الجدل

الفلسفي، وأنّ الإلحاد لم يكن أضعف منه من اليوم رغم هالة التهويل والنفخ الإعلاميين.

فاللَّهُمَّ سدّد اللسان، وألن لنا حديد البيان، وافتح للفهم عنّا كلّ باب!

اللَّهُمَّ اغفر لي حظّ النفس من هذا الكتاب!

خلق الزمان في ميزان العقل

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ [سبأ: ٤٦]

يتّفق المؤلّهة مع عامة الملاحدة أنّ الجواب الإيماني الموفّق على اعتراض: «. . . فمن خلق الله؟» ممكن إذا تمّ إثبات أنّ الزمان مخلوق، وأنّ الله بذلك متعال عليه؛ فلا يصحّ أن يقال: إن له ابتداءً، أو أنّ الزمان خاضع لضرورة وجود الله؛ فلا يُستدلّ به ضد وجود الأوّل الذي ليس قبله شيء.

والدليل الذي ننتصر به للقول: إنّ الله ـ سبحانه ـ متعال على الزمان، هو المسمى بالدليل الكوسمولوجي، وله أكثر من صيغة، وهو في أشهر صيغتيه يسعى إلى واحد من أمرين: إثبات أنّ الزمن له ابتداء بما يلزم أنّ له مُبدئًا، أو إثبات أنّ الله أوّل لا عدم يسبقه، للزوم القول بالمحال إن جوّزنا خلاف ذلك.

سنتناول هنا شَكلَي الدليل الكوسمولوجي بما يكشف فساد الاعتراض الإلحادي.

(١)
دليل الحدوث

اشتهر دليل الحدوث في الكتابات الفلسفية في الغرب باسم (الدليل الكوسمولوجي الكلامي) (The Kalam Cosmological Argument)، وعبارة

«الكلامي» نسبة إلى (علم الكلام) الإسلامي، والذي هو «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية»[1][2]. وتسميته بدليل الحدوث تراثيًّا راجع إلى أنه متعلّق بنشأة الشيء بعد العدم، ودلالة ذلك على وجود من ليس بحادث.

لخّص كل من (بيتر فاردي) (Peter Vardy) و(جولي أرليس) (Julie Arliss) تاريخ الدليل الكلامي بقولهما: إنّه «نشأ في مدرسة الكلام الإسلامية للفلسفة، لكن تمّ تحديثه مؤخرًا على يد الفيلسوف الأمريكي (ويليام لين كريغ)»[3]. وكان (ويليام لين كريغ) أكثر منهما دقّة بتقريره أنّه «رغم أنّ جذوره تعود إلى ما قبل [العصر الإسلامي]، إلّا أنّ الدليل الكلامي كحجة على وجود الله قد نشأ في عقول لاهوتيي القرون الوسطى من العرب [يقصد المسلمين]، والذين صدّروه إلى الغرب حيث أصبح محلّ جدل حام»[4].

أشهر الصيغ المتداولة في الغرب لهذا الدليل هي الصيغة التي وردت على لسان (أبي حامد الغزالي) في قوله: «وجوده تعالى وتقدس، برهانه أنّا نقول كل حادث فلحدوثه سبب، والعالم حادث فيلزم منه أنّ له سببًا، ونعني بالعالم كل موجود سوى الله تعالى»[5].

ويُعرض هذا الاستدلال ترتيبيًّا كالتالي:

١ ـ لكلّ ما ابتدَأ وجودُه سبب.

٢ ـ الكون ابتدأ في الوجود.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠١م، ص٥٨٠.

(٢) أنكر طائفة من أهل التحقيق على علم الكلام عددًا من الأمور، كإلزام المتكلّمين كلّ المسلمين إقامة الحجة على وجود الله ووحدانيته بالأدلة الفلسفية، واعتبار ذلك أوّل واجب على المكلّفين، وإقحام الجدل الكلامي في ما لا يبلغه العقل، والخوض في ما لا طائل من وراءه غير الظن والحيرة. ولا ينفي ذلك صواب ما قدّمه علماء الكلام في عامة استدلالاتهم على وجود الخالق، فهي أدلّة عقلية، منها ما جاء به النص القرآني، ومنها ما لا يخالف النص ويوافق الحق.

(٣) Peter Vardy and Julie Arliss, *The Thinker's Guide to God* (Alresford, Hants, UK: O Books; Unley, S. Aust.: MediaCom Education, 2003), p.80

(٤) William L. Craig, *The Kalam Cosmological Argument* (Eugene, OR: Wipf and Stock Publishers, 2000), p.i.

(٥) أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٣م، ص١٩.

٣ ـ للكون سبب، وهو الله.

صاغ (ويليام لين كريغ) دليل (الغزالي) على الصورة التالية لبيان تضميناته بما ييسّر تحديد أوجه الخلاف والجدل مع الملاحدة:

١ ـ يتطلّب كلّ شيء ظهر للوجود سببًا لنشأته.

٢ ـ الكون ابتدأ في الوجود:

(أ) توجد ظواهر زمنية في الكون.

(ب) هذه الظواهر الزمنية مسبوقة بظواهر زمنية أخرى.

(ت) لا يمكن لهذه الظواهر أن تتسلسل إلى الماضي دون نهاية.

(ث) وجود سلسلة واقعية لامتناهية، يلزم منه عدد من المحالات.

(ج) إذن، لا بدّ أن تكون لسلسلة الظواهر الزمنية بداية.

٣ ـ إذن للعالم سبب لوجوده، وهو الخالق[١].

اعترض الملاحدة على مقدمتي الاستدلال السابق؛ أي: حتمية السببية، وعدم إمكان التسلسل في الماضي، ولذلك علينا أن نطرح هذه الاعتراضات للدراسة، ونبيّن مدى وجاهتها في سعيها لنقض (البرهان الكوسمولوجي الكلامي).

- فهل لكلّ أثرٍ سبب؟
- وهل يدلّ الدليل على حدوث الكون بعد عدم؟

ـ أ ـ

حتميّة السببية

يقوم الاستدلال بالحوادث لبيان وجوب التصديق بوجود الخالق على يقينية مبدأ السببية في تفسير العالم، فلا ينشأ شيء أو حدث إلا بسبب، وفي غياب السبب لا ينتقل الوجود أو العدم من صفة إلى أخرى، ولا من وجود

---

(١) William L. Craig, *The Kalam Cosmological Argument*, pp.48 - 49.

إلى آخر. ويكاد يكون من العبث أن نحتاج إلى البرهنة على هذا الأمر؛ فهو المهيمن على حياتنا اليومية، ومعارفنا العلمية. ولا يمكن أن يُنسب من ينكره عمليًّا بيننا إلى الاستقامة؛ فلا يوجد منّا من يجلس على طاولته، وينتظر أن يظهر الطعام بلا سبب، ولم نشهد فقيرًا يأمل أن تمتلئ جيوبه مالًا بلا سبب، حتّى الساحر لا يُعتقد أنه لا يبذل الأسباب، فهو إما يفعل ما يفعله بسبب خفة اليد أو قدرات خفية خارقة، وهي نفسها من الجنس العام للأسباب.

لم يُعرف التململ من هيمنة مبدأ السببية على الوجود **علميًّا** بين بعض فلاسفة الإلحاد غير ما كان في العقود الأخيرة بعد انفتاح كوّة علميّة إلى عالم تحت الذرّة، وكان قد سبقه زمنًا اعتراض **فلسفي** ينسب السببية إلى الوهم التجريبي المحض وينكر واجبيّتها الميتافيزيقية.

ما هو الاعتراض الفلسفي؟ وما هي مستنداته؟ وهل يستقيم طرحه ابتداءً؟

وما أصل الاعتراض العلمي؟ وهل وُفِّق في عرض حقيقة عالم دون الذرّة؟ وهل نقاشنا حوله ـ على الصواب ـ علمي أم فلسفي؟

[١]

التشكيك في الحتمية السببية فلسفيًّا

شاع القول: إنّ (دافيد هيوم) (David Hume) قد حاول في القرن الثامن عشر أن ينقض **فلسفيًّا** صدق دعوى اقتضاء الأثرِ سببًا أو أنّ «كل ما له بداية لا بدّ أن يكون له سبب»، بتشكيكه في بداهة الحتميّة السببية، وذلك بردّها إلى ظاهر العامل الاقتراني، وإنكار الحتمية المنطقية الصرفة لترتّب الأثر على السبب[١]، ومن ذلك قوله: «إنّ معرفتنا بالأسباب لم تُحصّل البتة من خلال البداهة العقلية، وهي تأتي دائمًا من تجربتنا في اكتشاف أنّ أشياء مخصوصة ترتبط دائمًا بأخرى»[٢].

(١) David Hume, *An Enquiry Concerning Human Understanding* (Oxford: Oxford University Press, 2007), IV chapter.

(٢) Ibid., p.19.

وتعليقنا هو ما يأتي:

هل أنكر (هيوم) مبدأ السببية؟:

تغفل الكثير من الدراسات حقيقة اختلاف الفلاسفة من المتخصصين في الفكر الهيومي في موقف (هيوم) من السببية، خاصة انتصار فريق منهم إلى «التفسير الواقعي» لنظرة (هيوم) للسببية، وهي قراءة ترى أن (هيوم) لم ينكر مبدأ السببية، وإنّما أنكر معرفتنا في عالم الواقع بالأسباب الحقيقية لآثار العالم، فقد قال (هيوم) نفسه في رسالة أرسلها إلى (جون ستيوارت) (John Stewart) سنة ١٧٥٤م؛ أي: بعد تأليفه كتابه « *An Enquiry Concerning Human Understanding*» (١٧٤٨م) الذي أصّل في فصله الرابع لظاهرية العلاقة الاقترانية بين الأشياء: «ولكن اسمح لي أن أقول لك إنّني لم أقرّر البتة **ذاك الادعاء السخيف** أنّ شيئًا ما من الممكن أن ينشأ دون سبب. أنا لم أقرّر إلّا أنّ يقيننا في خطأ تلك الدعوى لم ينجم عن حدس ولا عن برهان، وإنّما من مصدر آخر»[1].

وهذا الذي قرره هيوم في رسالته السابقة هو ظاهر ما كتبه في مؤلفه «*An Enquiry Concerning Human Understanding*»، فقد كان همه التمييز بين «علاقات الأفكار» و«أمور الواقع»، فالأولى ثابتة بالبداهة العقلية (apriori) أما الثانية فلا تثبتها غير التجربة. ولذلك كتب الفيلسوف (ر. س. سبرول) (R.C. Sproul): «لم ينكر هيوم قانون السببية. هو لا يتكلّم عن آثار غير مسَبَّبة أو أسباب بلا آثار. هو يتحدث بدلًا من ذلك عن معرفة أو اكتشاف الحقائق في ما يتعلّق بالأسباب والآثار في العالم التجريبي. هو لا يزال يتحدّث عن «أسباب تُنتج»، وآثار «تنتج عن» أسباب معينة»[2]. مضيفًا أنّ (هيوم) قد قرر حقيقة بدهيةً لما قال: إنه «لا يوجد شيء من غير سبب لوجوده» «nothing

---

(١) J. Grieg, ed., *The Letters of David Hume* (Oxford: Clarendon Press, 1932), 1/187.

(٢) R. C. Sproul, *Not a Chance: the myth of chance in modern science and cosmology*, Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2000, p.205.

«exists without a cause of its existence». لا يلغي تحليله للسببية قانون السببية ولا يعكّر عليه. إنّه يركّز على حدود المعرفة التجريبية ومقدرتنا على الوصول لمعرفة برهانية للعلاقات الضرورية»[1].

لقد كان (هيوم) يناقش أغلوطة «بعد هذا، إذن بسبب هذا» «Post hoc ergo propter hoc»، فاقتران صياح الديك بإشراقة الفجر لا يعني أنّ إشراقة الفجر أثر لصياح الديك. فما نعرفه نحن من ظواهر العالم لا يتجاوز صور تتابعها، ولا يلزم من تتابع أمرين أن يكون أحدهما سببًا للثاني. ولكنّ هذا التشكّك (الهيومي) لا ينفي السببية وإنما يقصر قدرة الإدراك البشري في ملاحظة علائق الأشياء على الاقتران العرفي، لغياب الإلزام العقلي المخبر عن علاقة السببية بينها. وفساد دعوى (هيوم) هنا هو في إطلاق نفي معرفتنا بالأسباب لأنّ بعض الاقتران لا يرتبط ضرورة بالسببية!

سنلزم أنفسنا رغم ما سبق بالقول: إنّ (هيوم) قد نفى حقيقة السببية، متابعة لدعوى الملاحدة اللاحقين الذين استعملوا نفس استدلالات (هيوم)، ولننظر إن كانت هذه الدعوى قادرة على الصمود، علمًا أنّها لا تجد قبولًا في الساحة الإلحادية المعاصرة، إلا قليلًا، والسبب الرئيس لذلك أنّ لقبولها تكلفة فلسفية باهظة جدًّا، وهي أنّه لا يمكن الكشف عن قانون من «التجربة» و«الملاحظة»، وأنّ حال الاقتران بين «السبب» و«الأثر» لا يدلّ على شيء غير العادة، ولا يمكن أن يُبنى عليه شيء علميًّا، في حين أنّ العلم الحديث قائم على مبدأ السببية في الكشف عن القوانين المطّردة من خلال التجربة والمشاهدة، فما يُحكم عليه اليوم بأنه «قانون»، هو ما أكّدته التجارب المتكررة.

برهان (هيوم):

من الممكن تلخيص مذهب (هيوم) على الصورة التالية:

---

(١) Ibid., p.212.

١ ـ كلّ الأفكار المتمايزة، منفصلة عن بعضها.

٢ ـ فكرتا السبب والأثر متمايزتان.

٣ ـ من السهل التفكير في خروج الشيء إلى الوجود دون التفكير في سببه.

٤ ـ التمييز بين السبب والأثر ممكن، ولا يلزم منه تناقض ولا محال[١].

وقد ردّد الفيلسوف الملحد (ج. ماكي) نفس الدعوى اعتراضًا على الدليل الكوسمولوجي، قائلًا: «كما أشار إلى ذلك (هيوم)، بإمكاننا قطعًا أن نتصوّر بدايةً لشيء ما غير مُسبّبة. وإذا كان الشيء الذي بإمكاننا تصوّره هو مع ذلك مستحيل بصورة ما، فلا بدّ عندها من إقامة الحجة لإثباته»[٢].

حجيّة التصوّر:

عمدة ردّ العلاقة الحتمية بين السبب والأثر عند (هيوم) هي إمكان تصوّر أثر دون سبب، و«التصوّر» هنا هو مجرّد التخيّل الذهني المجرّد (imagination) وليس هو التصوّر العاقل (to conceive)[٣] بمعنى إنشاء فكرة عقلية متناسقة[٤]، وهي دعوى بلا حتمية؛ لأنّه بالإمكان «تصوّر» فساد حتميّة منطقية، «فتصوّر» الإمكان الذهني لا يلزم منه الإمكان الميتافيزيقي أو الواقعي. وقد أقرّ (جاكي) نفسه بذلك ـ رغم عنف خطابه ـ قائلًا: إنّه يجد مشقّة في تصوّر إمكان خروج شيء من العدم بلا سبب، مهما توسّعنا في فهم الصدفة[٥].

---

(١) G.E.M. Anscombe, ''Whatever Has a Beginning of Existence Must Have a Cause': Hume's Argument Exposed'' in *Analysis' Vol. 34, No. 5 (Apr., 1974), pp.148 - 149.*

(٢) J. L. Mackie, *The Miracle of Theism* (Oxford: Clarendon Press, 1982), p.89.

(٣) لا نبالي هنا بالعبارة التي استعملها (هيوم) للتعبير عن فكرته، وإنما العبرة بالمعنى المقصود الذي أراده.

(٤) Edward Feser, *The Last Superstition: A Refutation of the New Atheism*. Electronic copy.

(٥) J. L. Mackie, *The Miracle of Theism,* p.126.

وحجيّة التصوّر مشكلةٌ في أصلها لأنّ ما يتصوّره الواحد قد لا يتصوّره آخر، فمن هو الحجةّ في التصوّر؟! ولماذا يكون تصوّره حجّة؟! وقد يتصّور المرء شيئًا على غير حقيقته، فكيف يكون تصوّره حجّة؟!

بل لنا أن نقول لـ(هيوم): إنك تزعم أننا نرى تتابع الأشياء ولا نرى السببية وإنما نفترضها افتراضًا بسبب هذا التتابع، ونحن في المقابل ننكر عليك دعوى إمكان تصوّر حدوث شيء دون سبب لأنّ السببية لا تُبصَر ـ كما تقول ـ، فإذا كان غيابها عن البصر دليل غياب الدليل عليها، فكذلك غيابها (عن التصوّر المجرّد) ليس دليلًا على غيابها وجوديًّا.

وبعبارة أخرى، يحق لنا أن نتساءل عما إذا ما كان بإمكاننا حقًّا أن نتصوّر شيئًا يأتي إلى الوجود بلا سبب؛ إذ غاية ما يبلغه خيالنا أن نتصوّر شيئًا يحدث أمامنا بلا تصوّر سبب ظاهر أثناء تخيّله، لكنّ ذلك في نفسه لا يعني أننا تخيلنا أنه بلا سبب، فعدم تخيّل السبب لا يطابق تخيّل الحادث دون سبب[١]. ولو أنّ شيئًا ظهر أمامنا فجأة فلن نقول: إنه بلا سبب، ولن يستحضر أي منّا (هيوم) ودعاويه، وإنما سنبذل جهدنا لتصور سببه، وعند العجز سنكتفي بالقول: إننا الساعةَ لا نعرف سببه، دون أن ننفي إمكان العلم به لاحقًا.

العلاقة السببية بين المعرفة والواقع:

يتمثّل خطأ (هيوم) المنهجي أساسًا في خلطه بين الجانبين الإبستيمولوجي والأنطولوجي عند تجربة الحكم على فكرتين متمايزتين ذهنيًّا، فمعرفتنا بتمايز الشيئين (الجانب الإبستيمولوجي) ليست حجّة لنفي ترابطهما الحتمي واقعيًّا (الجانب الأنطولوجي)، فإحساسنا بالتمايز ليس في ذاته دليلًا على عدم الارتباط بين الظواهر الكونية[٢].

---

(١) See G.E.M. Anscombe, ''Whatever has a beginning of existence must have a cause': Hume's argument exposed,'' in her *Collected Philosophical Papers, Volume 1* (Basil Blackwell, 1981).

(٢) Bruce R. Reichenbach, *The Cosmological Argument: A Reassessment*, (Springfield, Ill.: C. C. Thomas, 1972), p.59

ويمثّل الفيلسوف (بروس ريكنباك) (Bruce Reichenbach) على خطأ (هيوم) بمثال صحن متساوي السَماكة، مقعّر من جهة، ومحدّب من الجهة المقابلة. معلوم أنّه بإمكاننا ذهنيًّا أن نتصوّر طبيعة التقعّر في الصحن إذا نظرنا إليه من جانب دون تصوّر تحدّبه من جهة أخرى، كما يمكننا أن نتصوّر تحدّبه من الجهة الأخرى دون تصوّر تقعّره من الجهة المقابلة، فهل يلزم من ذلك أنّه لا علاقة حتميّة بين تحدّب الصحن وتقعّره؟ لا شكّ أنّ العلاقة بين هاتين الصفتين حتمية، إذ الصحن محدّب من جهة بسبب تقعّره من الجهة المقابلة، ومقعّر من جهة بسبب تحدّبه من الأخرى، وبذلك تسقط دعوى (هيوم) أنّ تصوّر انفصال أمرين حجّة لنفي حتميّة العلاقة بينهما[١].

الانتقاض الذاتي:

يرفض (هيوم) قانون السببية لأنّه من أمور الواقع (matters of fact)، وليس مرتبطًا بالأفكار المجردة كالرياضيات والهندسة، وبالتالي فهو دائمًا ممكن (contingent)، وليس ضروريًّا، لكنّ اعتراض (هيوم) أيضًا ممكن وليس ضروريًّا لأنه متعلّق بأمور الواقع لا ضروريات الأفكار[٢]، وبالتالي لا يُحتج به في هذا السياق إلا أن يقوم عليه برهان!

السببية في نفي أصل السببية!:

ليس بإمكان المرء أن يقيم البرهان على بطلان السببية إلّا بأن يصوغ برهانًا عقليًّا أو تجريبيًّا على بطلان السببية، وهذا البرهان نفسه لا يمكن إلّا أن يكون مصاغًا في قالب سببي بالربط بين مقدماته ونتائجه، ولما كان برهان نفي السببية قائمًا على أصل سببي، كانت هذه الدعوى هادمة لذاتها (self - defeating) لأنها تقرّ بالسببية في سعيها لإبطالها. وفي هذا يقول (ابن رشد): «والعقل ليس هو شيء أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها، وبه يفترق من

---

(١) Ibid., pp.58 - 59.

(٢) Timothy A. Mitchell, *David Hume's Anti - Theistic Views: a critical appraisal* (Lanham, MD: University Press of America, 1986), pp.99 - 100.

سائر القوى المدركة، **فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل**. . . [و]المعرفة بتلك المسببات لا تكون على التمام إلّا بمعرفة أسبابها، فرفع هذه الأشياء هو مبطل للعلم، ورفع له، فإنّه **يلزم أن لا يكون هاهنا شيء معلوم أصلًا علمًا حقيقيًّا**، بل إن كان فمظنون، ولا يكون هاهنا برهان، ولا حدّ أصلًا . . . ومن يضع أنّه ولا علم واحد ضروري، **يلزمه أن لا يكون قوله هذا ضروريًّا**»(١).

الوهم الإبستيمي لنفي السببية:

تقوم دعوى نفي السببية بين أفراد الكون على أصل (الذرية الإبستيمية) (epistemological atomism)، بأن يكون الوجود في وحداته الأصغر متفلّتًا وغير مترابط، وهو ما يفسد أيّ طمع في إثبات علل ذاتية للواقع.

والطبيعة الذرية المدعاة للوجود تخالف ما نعرفه عن الوجود؛ إذ لا تَظهر الأشياء مشتتة، مبعثرة في عالمنا، وإنما نحن ندركها بعين اليقين متدفقة، مسترسلة بما لا يوقع في الذهن وهم الانقطاع ولا يوحي بالعلائق العشوائية بينها، فنفي العلاقة العليّة بين صور العالم المتتابعة، والمنتظمة، لا يركن إلى حس ولا يعضده واقع، ولا يمكن أن يكون محل نظر إلّا إذا سلّم الراصد ابتداءً لفلسفة الطبيعة الذريّة لعلائق الوجود.

السببية، مبدأ ميتافيزيقي:

ليست السببية مجرّد دعوى مستفادة من التجربة وإنما هي حقيقة متعالية على التجريب لأنها من صميم الوجود الحقيقي للأشياء؛ إذ إنّ من ماهية الشيء المحدود عدم استغنائه عن غيره لينتقل من العدم إلى الوجود، ومن حال إلى آخر، ونفي السببية عن الوجود حاجز للعقل البشري عن التفكير والتعامل مع الأفكار والواقع، حاله حال مبدأ الماهية ومبدأ التناقض، فبغيرهما لا مكان للمعنى والفهم والفعل العاقل في وجودنا.

---

(١) ابن رشد، تهافت التهافت، تحقيق: سليمان دنيا، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٣م، ص٧٨٥.

الترجيح من غير مرجح:

وجود الشيء أو تغيّره من حال إلى آخر ـ ما لم يكن أزليًّا ـ ممكن نظريًّا في جميع الأوقات، ولا سبيل من الناحية العقلية لتفضيل أحد الأزمنة على الآخر إلا بافتراض مرجّح، وهذا المرجّح إما من داخل الشيء أو من خارجه، فإن كان من داخله، لزم التناقض لأنّنا نفترض وجود قوة الخلق في الشيء قبل وجود الشيء نفسه، كالقول بقوة الأرض على إيجاد نفسها قبل وجودها من العدم، وهذا باطل في بداهة العقل، فصار لزامًا القول: إنّ سبب الخلق خارج عن الشيء، غير مزامن له، لما سبق، وغير متأخر عنه لنفس السبب، ولم يبق إلا أن يوجد السبب قبل وجود الشيء ليرجّح وجوده على عدمه، وهو ما عرضه علماؤنا في حديثهم عن «بطلان الترجيح دون مرجّح».

نفي السببية، نفي للوجود:

ما الوجود المادي إلا أشياء العالم المادي (الجبال والأنهار والطيور والأزهار...)، وليس «الشيء» في هذا الوجود إلا ما يمثّله بصفاته وخواصه، والأشياء إنما تختلف نظرًا لاختلاف صفاتها خواصها، وإذا نحن قلنا بنفي السببية في هذا العالم، فإننا بذلك **ننفي عن أشياء العالم صفاتها وخواصها**؛ إذ جعلنا كلّ أشياء الواقع واحدة في صفاتها، وإذا نحن نفينا هذه الخواص فإننا بذلك ننفي حقيقة الأشياء المادية للعالم إذ جعلناها بلا أثر، سواءً، وبالتالي بلا شيء يحدّد ماهيّتها وحدّها، وإذا نحن نفينا الماهية والحدّ فإننا نكون قد نسبنا الوجود إلى العدم، وهذا أمر واضح الفساد، مخالف للمعلوم عقلًا وللمدرك حسًّا[1].

---

(١) قال (ابن رشد) في رده على نفاة السببية الذاتية: «الأسباب الذاتية... لا يفهم الموجود إلا بفهمها، فإنه من المعروف بنفسه أن للأشياء ذوات وخواص، هي التي اقتضت الأفعال الخاصة بموجود موجود، وهي التي من قبلها اختلفت ذوات الأشياء وأسماؤها وحدودها، فلو لم يكن لموجود موجود فعل يخصه، لم يكن له طبيعة تخصه، ولو لم يكن له طبيعة تخصه لما كان له اسم يخصه ولا حدّ، =

السببية إذن جزء من ماهية الوجود المادي؛ إذ هي مرتبطة بماهية الشيء؛ أي: ما يكون به الشيء شيئًا؛ فهي لازم من لوازم أن يكون للشيء وصف ذاتي، وليس يخلو الشيء من صفة ذاتية يكون بها نفسه.

التجربة صانعة أم كاشفة؟:

اعتراض (هيوم) بأنّ التجربة هي التي أنتجت في عقولنا: مفهوم السببية معارَض بقولنا إنّ التجربة قد كشفت حقيقة السببية التي هي مبدأ مستغن عن التجربة في وجوده، فالاطّراد لم يكسب العقل معرفة بالسببية وإنما كشف حقيقتها القَبْلِيَّة في الوعي، تماما كما يكشف تعاملنا مع أشياء الواقع قَبْلِيّة الحقائق الرياضية.

العالم الميكروسكوبي وطبائع الأشياء:

كان أثر الأشياء في بعضها زمن (هيوم) يُدرَك من خلال الملاحظة العامة والتجربة، وما كان الفرق ـ مثلًا ـ بين البنزين الذي يشتعل نارًا والماء الذي يطفئ النار مدركًا بصورة دقيقة، إذ يشترك البنزين والماء في صفة السيولة دون أن يُظهر ظاهرهما سبب تضاد أثرهما، لكن مع تطوّر المعارف العلميّة واختراع المايكروسكوب انفتحت أمام أعين الناس أبوابٌ لملاحظة الفوارق الدقيقة بين الأشياء وأسباب تأثيرها في بعضها على المستوى الذرّي، كما عُرفت الأسباب المحكمة للمرض والعدوى وغير ذلك مما لم يكن يُدرك له سبب مفهوم غير الاقتران.

وأخيرًا، هل يعتقد الملاحدة حقيقة أنّ (هيوم) قد سدّد الضربة المميتة للسببية كما يدّعون؟ لا أظنّ أنّ الأمر كذلك؛ وذلك لثلاثة أسباب:

= وكانت الأشياء كلها شيئًا واحدًا، ولا شيئًا واحدًا؛ لأن ذلك الواحد يسأل عنه: هل له فعل واحد يخصه أو انفعال يخصه أو ليس له ذلك؟ فإن كان له فعل يخصه، فهنا أفعال خاصة، صادرة عن طبائع خاصة، وإن لم يكن له فعل يخصه واحد، فالواحد ليس بواحد، وإذا ارتفعت طبيعة الواحد ارتفعت طبيعة الموجود، وإذا ارتفعت طبيعة الموجود لزم العدم».
ابن رشد، تهافت التهافت، ص٧٨٢ ـ ٧٨٣.

١ ـ يهمل الملاحدة أنفسهم دعوى انتقاض الحتمية السببية بمجرّد مفارقة عالم الكتب إلى عالم الواقع، ولا يحتجّ أيّ منهم بالعادة والاقتران عندما تكون له مَظلمة ـ مثلًا ـ أمام محكمة، وإنما يجزم بالأسباب بصورة قاطعة دون ريب!

٢ ـ يتبنى عامة الملاحدة (المذهب العلموي) (scientism)، ولذلك هم يرون أنّ الطريق الوحيد للحقيقة هو العلم، والعلم لا يدرك الحقيقة إلا بإدراك الأسباب، وهو يترقى من معرفة الأسباب للكشف عن القوانين، فلا قوانين إلا بأسباب، ولذلك لا يُسَلَّم لهم مذهبهم حتى يقولوا بالأسباب!

٣ ـ يستدل الكثير من الملاحدة عند مناقشة مسألة (حرية الإرادة) ـ في الاعتراض على العدل الإلهي ـ بحتمية القوانين الكونية لنفي الإرادة الحرّة للإنسان وتقرير جبرية الفكر والسلوك الإنسانيين، ولا سبيل للقول بالجبرية بغير القول بالسببية!

نفي السببية، نفي للعقل الذي هو حصيلةُ ترتيبٍ سَبَبِيٍّ للأفكار، ونفي للكون بنفي ماهية الأشياء وأعراضها.

[٢]

التشكيك في الحتمية السببية علميًّا

ظهر التحدّي العلمي لمبدأ السببية مع تطوّر دراسات الذرّة وما دونها، أو ما يعرف بـ(ميكانيكا الكم) (Quantum mechanics)؛ فقد دلّت الدراسات ـ كما يقول الملاحدة ـ أنّ (جسيمات افتراضية) (virtual particles) في هذا العالم تظهر وتختفي دون سبب ظاهر. وهو ما يعني أنّ السببية منتفية في هذا المجال الصغير، بما يسمح للقول إنّه من الممكن أن يكون الكون قد نشأ دون سبب في مجال كمومي أوّلي.

القائلون بالمذهب السابق هم أنصار مذهب (كوسمولوجيا الكم الصدفوي)، وهم على قولين، أولهما أنّ الكون قد سُبق بالفراغ الكمي، وثانيهما ـ وهم قلة قليلة ـ على أنّ الكون قد نشأ من العدم المحض. من أهم

أنصار القول الأول رائد هذا المذهب الكوسمولوجي (إدوارد تايرن) (Edward Tyron)[(١)]، و(لورنس كراوس) (Lawrence Krauss)[(٢)]، ومن أهم أنصار المذهب الثاني فيلسوف الفيزياء (كونتن سميث) (Quentin Smith) القائل: «التصور الأكثر معقولية هو أننا قد جئنا من لاشيء، بلاشيء، لأجل لاشيء»[(٣)]، والكيميائي الملحد (بيتر أتكنز) (Peter Atkins) الذي لخّص هذا التصور العشوائي لنشأة الكون بقوله: «في البدء، كان هناك لاشيء. الفراغ المحض، وليس المكان الفارغ. لم يكن هناك مكان، ولا زمان؛ لأنّ هذا كان قبل الزمان. كان الكون بلا شكل وكان فارغًا[(٤)]. بالصدفة كان هناك تذبذب، ومجموعة نقاط، وقد ظهرت من اللاشيء واكتسبت وجودها من النموذج الذي كوّنته. وقد حدّدت [بداية] الزمان... من العدم المحض، وبدون أدنى تدخّل خارجي، ظهر إلى الوجود وجود بدائي»[(٥)].

وقد احتجّ القائلون بـ(المذهب الكمومي الصدفوي) بأنّ الطبيعة الصفريّة لمجموع الطاقة في الكون مبرّرٌ علمي للقول إنّ الكون ليس بحاجة إلى مبدئ، ومن هذه الدعوى نبدأ النظر قبل أن نستعرض قول الصدفويين الأكبر حول انهيار قانون السببية.

١ ـ الكون ذو الطاقة الصفرية:

ذهب بعض فلاسفة الإلحاد إلى أنّه يلزم من تساوي قوة القوى المتضادة في الكون أن يكون مجموع طاقة الكون صفرًا، وهو ما يعني: أنّ الكون حصيلة لاشيء، وبالتالي فهو لا يحتاج إلى شيء ليوجَد. وقد حاول (فكتور

---

(١) Edward P. Tryon, "Is the Universe a Vacuum Fluctuation?", in *Nature* 246, 1973, (5433): 396 - 397.

(٢) من المهم لفت الانتباه إلى أنّ (كراوس) قد اتّجه مؤخرًا في مناظراته ولقاءاته العامة إلى التأكيد أنه يؤمن بنشأة الكون من العدم المحض!! على الأقل هذا ما يبدو لي من ظاهر كلامه. و(كراوس) ـ للأسف ـ عيي اللسان، ولذلك يجد السامع مشقّة في الجمع بين كلامه.

(٣) William Craig and Quentin Smith, *Theism, Atheism, and Big Bang Cosmology* (New York: Oxford University Press, 1993), p.135.

(٤) يقتبس (أتكنز) في حديثه هنا عن نشأة الكون من لغة التوراة (سفر تكوين ١/١ ـ ٢).

(٥) Atkins, *The Creation* (Oxford: W. H. Freeman, 1981), p. 119.

ستنجر) (Victor Stenger) ـ عالم فيزياء الجسيمات والكوسمولوجيا، والذي يعد أحد أهم رموز الإلحاد في السنوات الأخيرة[١] ـ أن يصيغ هذه الدعوى علميًّا، فقال: «**بما أنّ مجموع طاقة الكون، صفرٌ، فلم تكن هناك حاجة إلى الطاقة لوجود الكون**»[٢].

يشبه الاستدلال بتعادل القوى المتضادة في الكون، للقول بصفرية طاقته، للانتهاء بأنّ الكون قد وجد من لاشيء، بالقول: إنّ رحلة إنسان حول العالم، بدأت من (القيروان)، وانتهت إليها بعد المرور بكلّ دول العالم، تساوي عدم التحرّك من مدينة (القيروان)؛ لأنّ الحركة بدأت من حيث انتهت!

وبعيدًا عن مناقشة تهافت هذا الاستدلال العجيب بتضاد القوى لنفي حقيقة وجود حقيقةِ شيئيةِ العالم، يبدو أنّ أساس الاستدلال نفسه عليه ملاحظات علمية، ومنها:

أ ـ لا يمكن أن يكون الكون قد نشأ من تساوٍ للقوى المتضادة؛ لأنّ من طبيعة الانفجار أن تكون قوة الجاذبية أدنى من قوّة الدفع.

ب ـ استمرار تمدد الكون دليل على أنّ الجاذبية في الكون أضعف من قوى التمدّد.

ت ـ ظهور الكون من العدم، واستمرار هذا الوجود دليل على أنّ المادة قد تغلّبت على (المادة المضادة) (antimatter).

ث ـ من المبالغة القول إنّ العلماء قد توصّلوا إلى قياس كلّ أوجه الطاقة الإيجابية والسلبية في الكون، فإنّ الكون شاسع ممتد الأطراف، ولم تبلغ مراصد الباحثين وأدوات تحليلهم إلا بعضه.

ج ـ معارفنا العلمية الحالية تشير إلى أنّ دعوى الطاقة الصفرية غير دقيقة، وفي ذلك يقول (عبد السلام محمد) ـ عالم الفيزياء الباكستاني الحاصل على نوبل (١٩٧٩م)، والمتخصص في النظرية الكمومية ـ: «لا يبدو أنّ

---

(١) وقد توفي أثناء إعداد كتابنا هذا.

(٢) Victor J. Stenger, *Not by Design: The Origin of the Universe (Buffalo: Prometheus Books, 1988), p. 174.*

القياسات تدعم في الوقت الحاضر [دعوى أنّ] كتلة الكون تساوي صفرًا... وبدون ذلك علينا أن **نتخلّص من كامل مفهوم أنّ الكون قد نشأ من (تذبذب كمومي)** (quantum fluctuation)»[1]. وقد شهد (غاري ستيجمان) (Gary Steigman) منذ العقد السابع من القرن الماضي أن «الكون ليس متناظرًا (not symmetric)، وأنه يحتوي القليل، إن وجد، من المادة المضادة»[2].

ح ـ التسليم بالتناظر التام بين المادة والمادة المضادة لا ينصر قول فلاسفة الإلحاد بصفرية الطاقة؛ لأنّ تصادم المادة والمادة المضادة وانفجارهما لا يؤول إلى إنتاج العدم المحض أو الطاقة الصفرية، وإنّما ينتجان فضلة من (أشعة غاما)، والتي هي الشكل الإيجابي للكتلة/الطاقة[3].

خ ـ التسليم بالطاقة الصفرية للكون حجّة لوجود الله، وليس العكس؛ إذ إنّ وجود كون هائل، معقّد، على وجه مرتب ومنظّم، هو مضاد بصورة مطلقة لمفهوم العشوائية التي لا يمكن فكّ الإلحاد عنها، ولذلك انتهى (أنثوني زي) (Anthony Zee) ـ أحد العلماء الحجّة في مفهوم (التناظر) ـ إلى نقيض ما انتهى إليه (ستنجر)، فقد أكّد أنّ علم الفيزياء ما كان ليوجد لولا وجود التناظر في الكون. وعلّق على ذلك بقوله: «أحبّ أن أفكّر في المصمم النهائي ضمن مفهوم التناظر، إنّه إلٰه التناظر *Deus congruentiae*»[4]. فالتناظر على حدّ قوله تعبير عن عظيم التصميم الإلهي، ولا يمكن ردّه إلى عوامل مادية عمياء[5].

---

(١) Abdus Salam, "Science and Religion: Reflections on Transcendence and Secularization," in *Cosmos, Bios, Theos,* eds. Henry Margenau and Roy Abraham Varghese, eds. (La Salle, Ill.: Open Court, 1992), p. 99.

(٢) Gary Steigman, "Observational Tests of Antimatter Cosmologies," in *Annual Reviews of Astronomy and Astrophysics 14 (1976), p. 355.*

(٣) Lederman and Schramm, *From Quarks to Cosmos*, p. 163; Alan H. Guth, *The Inflationary Universe: The Quest for a New Theory of Cosmic Origins (Reading, Mass.: Perseus Books, 1997), p. I 07.*

(٤) Anthony Zee, *Fearful Symmetry* (New York: Macmillan, 1986), pp.280 - 81.

(٥) التناظر في الكون حقيقة قرآنية، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، وهذا برهان ساطع على الحكمة والقصد في الخلق، لكن لا يلزم من معنى التناظر التساوي التام بين عناصر الكون من المتقابلات.

٢ ـ التذبذب الفراغي والقدرة الخلقية للاشيء:

أبرزُ تحد في الكتابات الإلحادية لحتمية السبب لإنتاج الأثر، ظهر في توظيف ظواهر عالم (الكم) لنفي حاجة الكون إلى سبب. من الأسماء الكبيرة التي اتّجهت إلى هذا القول (هاوكنغ) (Hawking)، و(هارتل) (Hartle)، و(ألكسندر فلنكن) (Alexander Vilenkin). وهي دعوى تقرّر أنّ الكون قد ظهر إلى الوجود بتذبذب فراغي من العدم، مستعينة بما لاحظه عدد من العلماء من ظهور جسيمات افتراضية وانعدامها دون سبب على المستوى دون الذرّي.

ولعلّ أكثر من اشتهر مؤخرًا من هؤلاء الفيزيائيين (لورنس كراوس) في كتابه: «كون من لا شيء: لماذا هنالك شيء بدلًا من لا شيء» (٢٠١٢م)، وهو الكتاب الذي قال عنه الفيزيائي وعالم الرياضيات (إ. أس. كوهلي) (I. S. Kohli): «إنّ العديد من دعاويه غير مدعومة في كليّتها بنظرية قانون النسبية الحديثة ولا نظرية المجال الكمومي في الزمكان المنحني»[١].

رغم جرأة عدد من أعلام (الإلحاد الجديد) على الاستدلال بنظرية نشأة الكون من اللاشيء الكمومي، إلّا أنّ هذه النظرية لا تزال إلى اليوم تعاني فحش مغالطاتها المكشوفة، والتي تظهر حال اليأس عند الدهريين الجدد، وإقبالهم على كلّ دعوى تنصر إلحادهم حتى لو كانت بادية الفساد كما سيأتي. ومن أوجه هذا الفساد:

أ ـ لاشيء كشيء:

هل (الفراغ الكمّي) (quantum vacuum) لاشيءٌ عندَ من يقولون بأسبقيته لنشأة الكون؟

تعطي عبارة (فراغ) (vacuum) إيحاءً فاسدًا للذهن أنّ هذا الفراغ هو عدم محض، والحقيقة أنّ هذا الفراغ ليس إلّا بحرًا من المادة المضطربة، وهو مجال خصب للتفاعلات الفيزيائية التي تحقّق وجودها ضمن المكان والزمان.

---

(١) Ikjyot Singh Kohli, Comments On: A Universe From Nothing, <http://arxiv.org/pdf/140506091730pdf> .

فهذا المجال هو وجود، وليس من (العدم الفلسفي) في شيء.

وقد اعترف (هانز باجلز) (Heinz Pagels) بالتناقض الداخلي للاشيء الكَمّي، في قوله: «العدم «قبل» خلق الكون هو الفراغ الأتم الذي بإمكاننا تصوّره ـ لا وجود لمكان، ولا زمان، ولا مادة. إنه عالم دون موضع، ومن غير مدة ولا أزل، ولا عدد ـ. إنّه ما يسمّيه علماء الرياضيات «بالمجموعة الفارغة». ومع ذلك فهذا الفراغ غير المتصوّر يحوّل نفسه إلى وجود تام ـ نتيجةٌ حتمية للقوانين الفيزيائية. أين كتبت هذه القوانين في ذاك الفراغ؟ ما الذي «قال» للفراغ إنه حاملٌ بكونٍ ممكن؟ يبدو أنّه حتى هذا الفراغ خاضع للقانون»[1].

إنّه «فراغ» ليس بفارغ وإنما هو وجود مؤلف من عناصر فيزيائية، ففيه جلّ ما نعرفه عن الوجود إلّا المادة، ففيه الطاقة والقوانين، ويتجاوز ذلك بامتلاكه القدرة والإرادة!

(الفراغ) عند الفيزيائيين هو غير العدم المحض عند الفلاسفة.

ب ـ شيء كلاشيء:

عندما يُقال: إنّ لاشيء هو الشيء الذي أخرج كلّ شيء إلى الوجود، فذاك يعني أنّ اللاشيء أعظم في حقيقته من السحر، إذ السحر لا يستغني عن ساحر، أمّا هذا اللاشيء، فلا يحتاج شيئًا. وهاهنا هرب الملاحدة من الغيب الذي لا تدركه الحواس، إلى ما هو أغرب من السحر، وهو: اللاشيء المبدِع!

ليس اللاشيء في حقيقته لاشيئًا، وإنّما هو عالم من الطاقة الحيّة، وما كانت عبارة اللاشيء إلّا وسيلة للهروب من الشيء السابق للكون؛ لأنّ المؤمنين بالله سيسألون عندها عن أصل هذا الشيء؛ أي: سببه!

وقد وُجه (كراوس) بسيل من الاعتراضات العلمية والفلسفية على زعمه

(١) Heinz Pagels, *Perfect Symmetry: The Search for the Beginning of Time* (New York: Bantam Books, 1985), p.347.

أنّ التذبذب الفراغي الذي أبدع الكون هو «لاشيء» كما هو بادٍ في عنوان كتابه، مما منعه من أن يهرب من حقيقة أنه «من لاشيء، لا يخرج شيء». وكما هو متوقّع من (كراوس) صاحب الأسلوب الصبياني الساخر في مناظراته، اتّجه إلى الإقذاع في الحطّ من الفلسفة والفلاسفة، والتأكيد على أنّ التعريفات الفلسفية لا تعنيه[١]؛ إذ (اللاشيء) في العلم هو (شيء)، وليس هو العدم المحض. قال: «بـ«لاشيء»، لا أقصد لاشيء... ما عاد لاشيء لاشيئًا في الفيزياء... لاشيء هو في الحقيقة سائل من الجسيمات الافتراضية، يغلي ويحتدم»[٢]. لكنّه بذلك أفسد دعوته الإلحادية القائمة على استغناء الكون عن شيء يتسبب في وجوده بعد إذ كان عدمًا!

أمّا (ستفين هاوكنغ)، والذي كان يشكّك في وجود الله من طرف خفي لفترة طويلة من الزمن، وما كشف إلحاده صراحة إلّا سنة ٢٠١٤م، فقد قال في كتابه (التصميم العظيم) (٢٠١٠م)[٣]: إنّ الكون من الممكن أن يكون قد نشأ من العدم. ولكن كيف ذلك؟

ردّ (هاوكنغ) الأمر إلى الخلق العفوي، وخصّ الجاذبية بسلطان خارق، إذ قال: «لأنه يوجد قانون كالجاذبية، فبإمكان الكون أن يخلق ـ وسيخلق ـ نفسه من عدم»[٤].

ما معنى أن يخلق قانون الجاذبية الكون من عدم؟! سؤال أدهش

---

(١) يقول الفيلسوف (إدوارد فزر) في مقاله: «على العلماء أن يقولوا لكراوس أن يخرس فورًا»، في الردّ على دعوى (كراوس) أنّ سبب كثرة منتقديه ما يعتبرونه هم قلّة أدب منه: «تلك خدمة وهمية يقّدمها كراوس لنفسه. سبب كثرة منتقدي كراوس هو أنه في كلّ مرّة يفتح فمه للحديث عن الدين أو الفلسفة، لا يُظهر ـ بصورة قاطعة ـ إلّا أنّه لا يفقه شيئًا في ما يتحدّث عنه. إنّ مبلغ ثقته في نفسه يناسب عكسيًّا حقيقة معرفته وبراعته في المحاججة».

<http://www.thepublicdiscoure.com/2015/09/15760/>

(٢) Lawrence Krauss, "A Universe from Nothing," Atheist Alliance International, 2009, <http://www.youtube.com/watch?v=Z0HqZxXZKvc> (mn.18).

(٣) رغم أنّ هذ الكتاب قد أثار عليه المؤلهة، إلا أنّ (هاوكنغ) لم ينكر فيه وجود الله، وإنما قال: إنه بالإمكان تفسير الكون دون حاجة إلى إقحام الإله.

(٤) Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, *The Grand Design (New York: Bantam Books, 2010), p.180.*

المخالفين لـ(هاوكنغ) الذي من الممكن أن يعدّ أحد أكبر العقول العلمية في بريطانيا اليوم. ولهؤلاء المندهشين أن يندهشوا؛ لأنّ هذه الدعوى تخالف البداهة؛ إذ هي تقوم على افتراضات واضحة الفساد:

١ ـ تفترض أن الجاذبية لاشيء!

٢ ـ تفترض وجود القانون الكوني في غياب الكون نفسه، بمادته وطاقته وزمانه.

٣ ـ تفترض أن القوانين المادية، كالجاذبية، أشياء قادرة على الخلق، في حين أنّها على الحقيقة مجرّد وصف لسُنّة عمل المادة، ولا يمكن للوصف أن يخلق بذاته. وكما يقول عالم الرياضيات (جون لنوكس) (John Lennox) في تعقيبه على (هاوكنغ): «لا يمكن البتة للقوانين الفيزيائية أن تقدّم تفسيرًا كاملًا للكون. إنّ القوانين بذاتها لا تخلق شيئًا؛ إذ هي ليست سوى وصف لما يقع تحت ظروف معيّنة. يبدو أنّ ما فعله هاوكنغ هو الخلط بين القانون والوسيلة»[١].

٤ ـ لم يسأل (هاوكنغ) نفسه: «ومن أين جاءت الجاذبية؟!»؛ إذ الجاذبية ممكن من الممكنات، وليست من ضرورات الوجود! ومن المثير هنا أنّ (نيوتن) (Newton) مكتشف الجاذبية نفسها، وأهم شخصية علميّة واجهت التفسيرات الدينية التي تنسب الظواهر الطبيعية إلى التدخّل المباشر للإله أو ملائكته، قد قال في كتابه الخطير (*Principia Mathematica*): إنّه قد ألّفه ليدفع الأذكياء إلى الإيمان بالله.

٥ ـ تفترض أنّ قوانين الكون أمر بسيط، سهل، على خلاف ما أقرّ به الفيزيائي اللاأدري[٢] الكبير (بول ديفيس) (Paul Davies) من أنّ قوانين

---

(١) John Lennox, "As a scientist I'm certain Stephen Hawking is wrong. You can't explain the universe without God",in *DailyMail*, 3 September 2010 < http://www.dailymail.co.uk/debate/article - 1308599/Stephen - Hawking - wrong - You - explain - universe - God.html#ixzz3RHHRTZs9 >

(٢) شاع في وسائل الإعلام والتواصل العربية القول: إنّ (بول ديفيس) عالم مؤمن بالله؛ وذلك ربما يعود لكتاباته التي ينتصر فيها للطابع الذكي للكون، ولردوده على كثير من اعتراضات الملاحدة، لكن حقيقة مذهبه هو أنه لاأدري، بل لقد كتب في مؤلفه «*The Goldilocks Enigma*» (٢٠٠٦م) أسباب اعتراضه =

الفيزياء «تبدو نفسها نتيجة لتصميم غاية في الإبداع»[1].

٦ ـ محض وجود القوانين الفيزيائية هو أمر غير متوقّع في كون مادي أعمى، ولذلك كتب (ريتشارد فينمان) (Richard Feynman) ـ الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء ـ: «محض وجود قوانين من الممكن فحصها هو أمر من جنس المعجزات؛ فإمكان وجود قانون، مثل قانون التربيع العكسي للجاذبية، هو ضرب من المعجزات. هذا أمر غير مفهوم البتة»[2].

٧ ـ دعوى أنّ الكون قد بدأ من العدم المحض عاجزة عن فكّ اللغز الأكبر وهو: من أين جاءت المعلومات (information) إلى هذا الوجود الذي لا يمكن أن يقوم بخواصه الكثيرة والمتشعبة دونها؛ إذ إنّ العدم المحض للمادة يطابق العدم المحض للمعلومات؟!

٨ ـ حتى لو افترضنا ـ جدلًا ـ أنّ الكون بلا بداية، يبقى السؤال قائمًا: لماذا توجد الجاذبية من الأزل؟ ولِمَ تحمل هذه الخصائص الرياضية دون غيرها؟

كثيرًا ما يستذكر العقلاء كلمة (أينشتاين): «عالِم الطبيعة، فيلسوف بائس»[3]، ولعلّ الأمر يبلغ أسوأ من ذلك عندما تتحكّم في العالم حماسته العقدية ليجعل الكون المعقول غير معقول!

ت ـ السببية في عالم الكم:

تقوم دعوى نشأة الكون من الفراغ المتذبذب على أصلِ النشأة (اللاحتمية) (non - deterministic) للجسيمات الافتراضية في عالم الكمّ، فهي جسيمات تظهر كتذبذبات عفوية للطاقة الموجودة في الفراغ تحت

= على مفهوم الإله الواحد الخالق، وكان منها سؤال: . . . فمن خلق الله؟ (ص٢٦٥).

(١) Paul Davies. *Superforce: The Search for a Grand Unified Theory of Nature* (New York: Simon and Schuster, 1984), p.243.

(٢) Richard Feynman, *The Meaning of it All* (London: Penguin Books, 2007), p.23.

(٣) Albert Einstein, "Physics And Reality", tr. Jean Piccard, in *Journal of the Franklin Institute*, vol. 221, p.349

الذري، وهو ما استنتج منه عدد من علماء الكم أنّ هذه الجسيمات تظهر بلا سبب[1]، ولكنّ هذه الدعوى غير أمينة في نقل حقيقة فهم علماء الفيزياء لهذه الظاهرة.

• خدعوك فقالوا...!:

يعمد أنصار التفسير الكمومي في الغرب إلى إهمال ذكر أنّ وجود الجسيمات الافتراضية محلّ جدل علميًّا[2]، والأخطر من ذلك إخفاؤهم أنّ

---

(١) جمهور الذين يقولون بـ(اللاحتمية) في عالم الذرة وما تحتها يرون أنّه يلزم من (اللاحتمية) القول بـ(اللاسببية)، ويذهب في المقابل قلّة من فلاسفة علم الكم إلى وجود ما يسمونه بـ(السببية غير الحتمية)، بعدم إقصاء السببية وإن أقصوا الحتمية، وذلك بالقول بـ(الاحتمالية المسبَّبة) في عالم الكم أو غير ذلك، لكنّ هذا المذهب ضعيف الحضور، ولذلك فإنّ المدافعين عن السببية من المؤلّهة من فلاسفة الغرب يقرّون لمنكري «الحتمية» في عالم الكم أنّ ذلك لا بدّ أن يؤول إلى نفي السببية (وهو ما تبنته صراحة وبقوّة (مدرسة كوبنهاغن) اللاحتمية)، وهو ما جعل مواجهتهم للاعتراض الإلحادي بظواهر علم الكم قائمًا على الانتصار للحتمية لا التوفيق بين اللاحتمية والسببية.

ومن الغريب في هذا الشأن فرح بعض المسلمين والنصارى بمفهوم «اللاحتمية» لظنّهم أنّ ذلك يثبت معنى «القيوميّة» لله سبحانه، بأن «يُسمح» لله ﷻ بمساحة خفيّة للمعجزات أو تغيير مجرى أفعال الناس! وهذا قول منكر، إذ إنّ هذه الدعوى حتى لو صحّت، لا تسمح للفعل الإلهي أن يؤثّر في الوجود لأنّ «اللاحتمية» المزعومة، قاصرة على عالم الذرة وما دونها، أما عالم فوق الذرة فلا تمسّه «اللاحتمية»، مما يعني أنّ مساحة السلطان الإلهي هامشية جدًّا، ولا تكاد تؤثّر على حياة الناس.

إنّ السلطان الإلٰهي ثابت في كلّ شيء، في عالم دون الذرة، وفوق الذرة، وعالم الأفكار، والمشاعر، والمشهود والغيب، وهو أدقّ وأجلّ من أن نرسم له حدودًا، فللَّه أن يعطّل القانون الكوني لينفذ أمره، وله أن ينشئ مكانه قانونًا آخر عند أمره للشيء أن يكون، سواء كان معجزة أو أي أمر خارق أو مخالف لتيار دفق السنن الكونيّة.

كما فرح بعض المسلمين والنصارى بمفهوم «اللاحتمية» لظنّهم أنّ ذلك ينقذ إرادة الإنسان من «الجبرية» ويسعف «حريّة الإرادة» بالحياة. وذاك وهم فاسد كما تقول «الموسوعة البريطانية»، فإنّ حريّة الإرادة تفترض واقعًا مقننًا يسمح بالتفكير السببي والفعل السببي في حين أنّ «اللاحتميّة» المزعومة في عالم الكم تعود إلى العشوائية الذاتية (intrinsic randomness) بما يتعارض مع إمكان وجود إيجابي لحريّة الإرادة تتوافق فيه الإرادة مع نتائجها في العقل والواقع.

Erik Gregersen, ed. *The Britannica Guide to Relativity and Quantum Mechanics* (New York: Britannica Educational Pub., 2011), p.94.

(٢) انظر في الخلاف:

= R. Weingard, 'Do virtual particles exist', in *PSA: Proceedings of the Biennial Meeting of the Philosophy of*

لظاهرة نشأة الجسيمات وانعدامها غير المفهوم عشرات التفسيرات، وما التفسير اللاحتمي الأشهر المعروف بـ(تفسير كوبنهاغن) (Copenhagen interpretation)[١]، إلا واحد منها، وكثير من التفسيرات الأخرى ـ كتفسير (دافيد بوم) (David Bohm) ـ هي تفسيرات (حتمية) (deterministic)؛ أي: إنّها ترى لنشأة هذه الجسيمات الافتراضية أسبابًا ضمن آليات قانونية مستقرة تعود إلى أسباب أوّلية، وهو ما كان عليه (أينشتاين) الذي رفض بشدة (تفسير كوبنهاغن)، علمًا أنّ جلّ التفسيرات المتاحة (للشكلية الرياضية) (mathematical formalism) لميكانيكا الكم هي حتميّة بصورة تامة[٢]. والخلاف بين (تفسير كوبنهاغن) وتفسير (بوم) ـ أهم منافس لـ(تفسير كوبنهاغن) ـ ليس في تحقيق المعرفة بعالم الكم، وإنما ـ كما يقول الفيزيائي المشهور (جون بولكنغهورن) (John Polkinghorne) ـ وهو على مذهب الكوبنهاغيين ـ في كتابه: «نظرية الكم: مقدمة مختصرة جدًّا» ـ: حول أمور خارجية متعلقة بالموقف الشخصي للعالِم من شكل النظرية (كعدد افتراضاتها، وقدرتها على استيعاب عدد أكبر من الظواهر)[٣]، بل إنّ هناك تفسيرات

= Science Association, 1982: 235 - 242.

(١) من العجب أنّ عامة الفيزيائيين المسلمين هم على مذهب (مدرسة كوبنهاغن) ـ كما يقول الفيزيائي الإيراني (مهدي غولشني) ـ (Mehdi Golshani, Quantum theory, causality, and Islamic thought, in *The Routledge Companion to Religion and Science*, James W. Haag et al., eds. (New York: Routledge, 2011), p.179)، دون اعتبار منهم للاعتراضات العلمية والفلسفية واللاهوتية عليها. ولا أجد تفسيرًا لذلك غير الكسل المعرفي، والخضوع السلبي للمقررات الرسمية لأقسام الفيزياء، والاستسلام للمشهور، أو بعبارة أخرى: عامة علماء (scientists) المسلمين هم «علماء textbooks»، فهم في البيولوجيا دراونة أقحاح، وفي الفيزياء لاسببيون أقحاح؛ لأن «textbooks» تقول كذا! والمثير هنا هو أنّ غفلة المسلمين تقابل وعي عامة المفكرين الغربيين المنتصرين للإيمان بالله بلوازم اعتناق المذهب الكوبنهاغي، وهو ما وعاه أيضًا المتخصصون في فلسفة العلوم، كـ(مارا بلر). وانظر في شطحات الكوبنهاغيين في زمن ما بعد الحداثة:

Mara Beller, *The Sokal Hoax: At Whom Are We Laughing*? <http://www.mathematik.unimuenchen.de/~behmmech/BohmHome/sokalhoax.html>.

(٢) William Lane Craig and J. P. Moreland, eds. *The Blackwell Companion to Natural Theology* (Chichester, U.K.; Malden, MA: Wiley - Blackwell, 2009), p.183.

(٣) John Polkinghorne, *Quantum Theory: A Very Short Introduction* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2002), pp.88 - 89.

للظاهرة الكمومية من المستحيل نقض أي منها على أساس كمومي بحت، وبإمكان كل منها أن تفسّر النتائج التجريبية الملاحظة[١]، وهو ما جعل الفيزيائي(جيمس كاشنج) (James Cushing) يصرّح أنّ «اعتبارات الدقة التجريبية والاتساق المنطقي وحدها لا تلزمنا بقبول النظرة اللاحتمية»[٢]، ولذلك لم يغتر الفيزيائي (روجر بنروز) بموافقة (تفسير كوبنهاغن) للتجارب والحسابات الرياضية، بل صرّح أنّ هذا التفسير مع ذلك «لا معنى له البتّة» «makes absolutely no sense»[٣].

كما أثبت استقراء اختيارات العلماء في السنوات الأخيرة أنّ (تفسير كوبنهاغن) في نزول، فما عاد هو التفسير المهيمن كما كان حتى الثمانينات من القرن الماضي، حتى إنّ إحدى الإحصائيات الأخيرة أظهرت أنّ ٤٤٪ من المستفتى آراؤهم لا يفضلون أيّ تفسير مطروح، في حين اختار ١٧٪ الاهتمام العملي البحت على الجانب النظري، وقال نصفهم: إنهم قد غيروا مذهبهم مرة واحدة أو أكثر، بل وتفوق تفسير (بوم) (١٧٪) على (تفسير كوبنهاغن) (١١٪)[٤]، وفي إحصائية أخرى فضلت الأغلبية (٦٣٪) تفسير (بوم)، ولم يختر (تفسير كوبنهاغن) غير ٤٪[٥][٦].

(١) James Daniel Sinclair, "At Home in the Multiverse",Paul Copan and William Lane Craig, eds. *Contending with Christianity's Critics: Answering New Atheists & Other Objectors* (Nashville: B & H Academic, 2009), p.16.

(٢) James Cushing, "Determinism and Indeterminism in Quantum Mechanics", in Robert J. Russell, ed. *Quantum Mechanics: Scientific Perspectives on Divine Action* (Vatican City State: Vatican Observatory; Berkeley, Calif.: Center for Theology and the Natural Sciences, 2001), p.99.

(٣) R. Penrose, *Gravity and State Vector Reduction*, in *Quantum Concepts in Space and Time*, eds. R. Penrose and C. J. Isham (Oxford: Clarendon Press, 1986), p.129.

(٤) C. Sommer, "Another Survey of Foundational Attitudes Towards Quantum Mechanics", <http://arxiv.org/pdf/1303.2719v1.pdf>.

(٥) T. Norsen, S. Nelson, "Yet Another Snapshot of Foundational Attitudes Toward Quantum Mechanics", <http://arxiv.org/pdf/1306.4646v2.pdf>.

(٦) لا تمثّل هذه النتائج بصورة علمية آراء المتخصصين في العالم لأن من أجروها في مؤتمراتهم لم ينتقوا المشاركين بصورة تعكس الإطار الأكبر للعلماء، لكنها مع ذلك تظهر نهاية عصر هيمنة نظرية (اللاحتمية) وميل الجيل الجديد إلى النظريات الحتمية.

علمًا أنّ عددًا من أكابر الفيزيائيين المعارضين لـ(تفسير كوبنهاغن) كانوا في يوم من الأيام من أنصاره قبل أن تنكشف لهم رخاوة البناء التفسيري للنظرية، ومن هؤلاء (ألفرد لاندي) (Alfred Landé) الذي ألّف كتابين مدرسيين في ميكانيكا الكم بروح كوبنهاغيّة صرفة، ثم صار من أهم معارضيها، و(لويس دي برولي) (Louis de Broglie) و(ماريو بونخي) (Mario Bunge) و(فردريك بوب) (Friedrich Bopp)[1].

وتقول أستاذة تاريخ العلوم بـ(الجامعة العبرية) (مارا بلّر) (Mara Beller) في حديثها عن تشكيك أنصار (مدرسة كوبنهاغن) في مبدأ السببية: «ربما توقع الواحد منّا أنّ أنصار (تفسير كوبنهاغن) يملكون عددًا من الحجج القوية جدًّا، وإن لم تكن قاطعة للنزاع فهي على الأقلّ وجيهة جدًّا، ولكنّ القراءة النقدية كاشفة أنّ كلّ دعاوى الجزم الواسعة ـ أو لِنقُل بعيدة الاحتمال ـ قائمة على**حجج دائرية مضطربة، وتقريرات حدسية جذابة ولكنها خاطئة**... ليست اللاسببية في كتابات (بور) و(هايزنبرغ) و(بولي) و(بورن) **عبارة محددة بدقة قاطعة**، وذلك على وجه التحديد لأنّ اللاسببية تُستعمل كأداة شرعنةٍ، وكسيف لمحاصرة الخصوم، ولذلك يتغيّر معناها من نص إلى آخر، ومن سياق إلى آخر»[2].

كلّ ما سبق دال أنّ (تفسير كوبنهاغن) هو أبعد ما يكون عن أن يمثّل أرضًا صلبة للتفسير غير السببي لنشأة العالم؛ فنجاحه العملي لا تعلق له بصحة تفسيره للعالم الكمومي، ولذلك قال الفيزيائي الملحد (فكتور ستنجر) ـ بعد اعترافه بالخلاف العلمي بين علماء الكم ـ: إنه علينا أن نبقى «متفتحين على إمكانية أن تظهر يومًا ما أسبابُ هذه الظاهرة»[3].

---

(١) Karl Popper, Quantum Mechanics without ''The observer'', in *Quantum Theory and the Schism in Physics*, Karl Popper (London; New York: Routledge, 1992), pp.36 - 37.

(٢) Mara Beller, ''Bohm and the ''Inevitability'' of acausality'', in *Bohmian Mechanics and Quantum Theory: An Appraisal*, eds. J.T. Cushing, Arthur Fine, and S. Goldstein (Dordrecht; Boston: Kluwer Academic Publishers, 1996), p.215.

(٣) Victor Stenger, *Has Science Found God?* (Amherst, N.Y.: Prometheus, 2003), p.173.

انتفاء الحتمية والسببية في عالم تحت الذرة هو مجرّد دعوى لفريق من العلماء وليس هو بقول نهائي لـ(عِلم الكَم)، ولا هو محلّ إجماع، وإنما هو المذهب الأشهر في القرن الماضي، وهو اليوم يفقد شعبيته بصورة واضحة بين المتخصصين.

- **المصادرة على المطلوب:**

أغلوطة «افتراض المقدمة» أو كما تعرف باللاتينية (petitio principii) وتسمى اليوم بالإنجليزية: (begging the question) أصلٌ تقوم عليه كثير من استدلالات الملاحدة لعقيدتهم، وهي هنا ظاهرة لائحة؛ إذ تدلّ جميع الشواهد وتقريرات الموضوعيين من علماء الكم أنّ اللاسببية مبدأ فلسفي/ ميتافيزيقي مقحم على حقائق دراسات عالم تحت الذرة؛ إذ لا يقول أحد باللاسببية في عالم تحت الذرة لداع موضوعي حاسم يستدعي مفارقة أصل القول بالسببية؛ فقد جاء مثلًا في (دليل أوكسفورد للسببية)، في مقال: «السببية في ميكانيكا الكم»: «ليس بإمكان الملاحظة وحدها أن تلغي بصورة نهائية إمكانية فهم ميكانيكا الكم على الطريقة (البومية) [=نسبة إلى (دافيد بوم)] كنظرية صحيحة لعالم حتمي [العلاقات]»[1]. فالقول باللاسببية مسقَط على الواقع وليس منعكسًا عنه.

ومما يؤكد ما سبق حالُ الشك والاضطراب المهيمن على الدراسات الكمومية عند تأسيس القواعد النظرية، وهو ما ألزم فيلسوف العلوم (الفيزياء) (ريتشارد هيلي) (Richard Healey) في مؤلّفه «فلسفة ميكانيكا الكم» أن يقول: إنه لا توجد نظرية واحدة تفسّر بصورة تامة ميكانيكا الكم، «وإنما نحن في مواجهة عدد هائل من المحاولات لفهم ميكانيكا الكم. في الحقيقة، يبدو في بعض الأحيان وكأنّ هناك محاولات متنوعة **بنفس عدد الذين قدموا محاولات جديدة**»[2]؛ أي: إنّ كلّ محاولة جديدة للفهم تقدّم نظرية جديدة لفكّ لغز عالم

(١) Helen Beebee; Christopher Hitchcock and Peter Charles Menzies, eds. *The Oxford Handbook of Causation* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2009), p.676.

(٢) Richard Healey, *The Philosophy of Quantum Mechanics* (Cambridge, NY, Cambridge UniversityPress, 1991), p.2.

الكم! ومن أوضح ما يعبّر عن حجم الشك والحيرة بين العلماء، قول الفيزيائي (جون غربن) (John Gribbin) في موسوعته العلمية «*Q is for Quantum: An Encyclopedia of Particle Physics*» تحت مادة (التفسيرات الكمومية): «. . .**بإمكانك أن تفضّل تفسيرًا في أوّل أيّام الأسبوع وآخرَ في آخر الأسبوع، ولكنّ الأمر الذي يجب ألّا تفعله هو أن تؤمن بأنّ أيًّا من التفسيرات الكمومية تمثّل الحقيقة!!**»(١).

وجدير بالإضافة هنا الإشارة إلى تأثير القناعات الفلسفية على الخيارات العلمية في فهم عالم الكم بين العلماء(٢)، وهو ظاهر مثلًا في إقرار أكثر من

---

(١) John Gribbin, ed. *Q is for Quantum,* p.320.

(٢) يبدو أنّ سيطرة (تفسير كوبنهاغن) على المجال العلمي في الجزء الأكبر من القرن الماضي تعود إلى عدد من العوامل التي لا تتعلق بصواب النظرية في ذاتها، ومنها:

١ ـ جاذبية فلسفة الوضعية المنطقية التي لا تهتم بحقيقة الواقع في ذاته وإنما بما يدركه الذهن منه، وإنكارها ـ العملي ـ لحقيقة ما لا يُدرك بالتجربة (Gino Tarozzi, ''Logical Positivism, Quantum Mechanics and the Meaning of Philosophical Principles'', *in The Controversial Relations Between Science and Philosophy: A critical assessement,* G. Auletta, ed. (Vatican City: Libreria Editrice Vaticana, 2006), pp.129 - 166)، بالإضافة إلى تأسيس (هايزنبرغ) (Heisenberg) لـ(مبدأ اللايقين) (uncertainty principle) الذي فُهم خطأ أنه متعلق بنفي الحتمية في عالم الواقع في حين أنه متعلّق على الحقيقة بنفي الدقة التنبئية لتوقعاتنا بحالين للشيء الواحد (كمكانه وسرعته)، علمًا أنّ (هايزنبرغ) كان يفضّل استعمال العبارة الألمانية «Ungenauigkeit»؛ أي: «اللادقة» للتعبير عن فكرته قبل أن يستعمل لاحقًا عبارة «uncertainty». وقد زعم (هايزنبرغ) لاحقًا (١٩٢٧م) أنّ (مبدأ اللايقين) يدلّ فلسفيًّا على لاحتمية عالم الكم، وهي قفزة فلسفية غير مبررة من حقيقة القصور المعرفي إلى التفسير الوجودي، وقد خرج بذلك من الحديث العلمي إلى التأويل الفلسفي (Mehdi Golshani, Quantum theory, causality, and Islamic thought,pp.180 - 181).

٢ ـ ارتباط النظرية في نشأتها باسم قامة علمية ذات صيت هي (نيلس بور) (Niels Bohr) الذي نشط بصورة كبيرة في نشر فكرته بين الفيزيائيين الشبان الذين تحمّسوا لريادته في باب علم ميكانيكا الكم البكر (John Gribbin, ed. *Q is for Quantum: An encyclopedia of particle physics,* p.90). وقد علّق (موري جيلمان) (Murray Gell - Mann) الفيزيائي الحاصل على جائزة نوبل سنة ١٩٦٩م، في محاضرته لحفلة نوبل سنة ١٩٧٦م بقوله: «غسل نيلس بور عقول جيل كامل من الفيزيائيين ليؤمنوا أنّ المشكلة [=تفسير ميكانيكا الكم] قد تمّ حلّها منذ خمسين سنة مضت» (M. Gell - Mann, *The Nature of the Physical Universe:* The 1976 Nobel Conference (Wiley, New York, 1979)). كما كتبت مؤرخة العلوم (مارا بلّر) مقالا خطيرًا في فضح السلطان الدكتاتوري لـ(بور) بين أوساط العلماء، وهيبتهم المرضيّة له، وساقت لإثبات ذلك شهادات تكشف ـ كما تقول ـ أنّ سلطان (مدرسة كوبنهاغن) لم يكن مردّه العلم، ولا الفلسفة، وإنما «السيكولوجية الاجتماعية»

= "social psychology" (Mara Beller, ''Bohm and the ''Inevitability'' of acausality'', p.227)

نصف المشاركين في إحصائية بين العلماء عن الموقف من النظريات الكمومية (٥٨٪) أنّ اختيارهم العلمي نابع من موقفهم الفلسفي الشخصي[١]، بل إنّ (ماكس بورن) (Max Born) ـ الحائز على نوبل في الفيزياء ـ نفسه قد أقرّ صراحة أنّ **إنكاره للحتميّة هو اختيار فلسفي وليس اختيارًا فيزيائيًّا**[٢].

خلاصة الأمر إذن؛ هي أنّ التفسير اللاسببي ليس نابعًا من دلالة اللاسببية في الكون عليه، وإنما نابع من تسليم طائفة من الفيزيائيين بإمكان اللاسببية في الطبيعة، ولما سلّموا لهذا الافتراض سمحوا لأنفسهم أن يقرؤوا عالم الكم قراءة لاسببية. فيكون **خلافنا مع من يستدلون بالظاهرة الكمومية خلافًا فلسفيًّا/ ميتافيزيقيًّا، وليس خلافًا علميًّا**، ولذلك فاستدلالهم بلاسببية عالم ما تحت الذرة لإثبات اللاسببية في الكون مصادرة على المطلوب؛ **فإنّ الملاحدة قد افترضوا اللاسببية في الكون ـ تبعًا لتأثّر أئمة مدرسة كوبنهاغن بفلسفة الوضعية المنطقيّة التي تقوم على الأخذ بالظواهر دون النبش في ما**

= ٣ ـ ظهر تفسير (بوم) بعد عقود من (تفسير كوبنهاغن)، مما سمح للنظرية الأولى أن تبسط هيمنتها على الساحة العلمية (Xavier Oriols and Jordi Mompart, eds. *Applied Bohmian Mechanics, p.33*)، علمًا أنّ (بوم) نفسه قد ألّف في الفترة الأولى من حياته كتابًا مدرسيًّا: «*Quantum Theory*» انتصر فيه لتفسير (بور)، بل وعُدّ من أفضل الكتب في تأييد تلك النظرية (Mara Beller, "Bohm and the "Inevitability" of acausality", p.224)!

٤ ـ لم تقدّم نظرية (بوم) ـ أهم منافس لـ(تفسير كوبنهاغن) ـ إضافات تجريبية تنبئية جديدة، وإنما أثبتت وأكدت نفس نبوءات (تفسير كوبنهاغن)، مكتفية بعد ذلك بالجانب التنظيري التفسيري، وهو ما لا يهتم به كثير من الفيزيائيين الذين لا يعتنون بغير الجانب العملي الحسابي والفيزيائي.

٥ ـ رغبة الكثيرين في التخلّص من حتميات الطبيعة للقول بمبدأ حريّة الإرادة.

ومن أراد أن يقرأ بتوسّع في الأسباب غير العلمية لتفضيل تفسير (مدرسة كوبنهاغن) على تفسير (بوم) ـ وأهمية النظر بجدية إلى تفسير (بوم) ـ، فليراجع:

James Cushing, *Quantum Mechanics: Historical Contingency and the Copenhagen Hegemony* (Chicago: University of Chicago Press, 1994).

(١) M. Schlosshauer; J. Kofler; A. Zeilinger (2013). "A Snapshot of Foundational Attitudes Toward Quantum Mechanics" in *Studies in History and Philosophy of Science Part B: Studies in History and Philosophy of Modern Physics* 44 (3): 222 - 230.

(٢) Mehdi Golshani, "Causality in the Islamic Outlook and in Modern Physics" in *Studies in Science and Theology,* Vol. 8, ed. by N. H. Gregersen (ESSSAT, Fall 2001).

وراءها ـ **للتدليل على وجود اللاسببية**. وبعبارة تكاد تطابق ما نقول، قال (دافيد بوم): «استنتاج أنّه لا توجد درجة أعمق للحركة المحتّمة سببيًّا، **ليس إلا ضربًا من التفكير الدائري؛ إذ لا يلزم ذلك إلا إذا افترضنا سلفًا عدم وجود تلك الدرجة**»[1].

ولا شكّ أنّ موقف القائلين بالسببية هو الأقوى لأنّهم يعتقدون أنّ السببية مبدأ ميتافيزيقي، وأنها من جوهر أشياء الكون، وهم يُجرون هذا الأصل الذي يقوم عليه وجود ما فوق الذرة على عالم ما دون الذرة دون أن يقوم عليهم برهان فلسفي أو علمي جاد. كما أنّهم يقررون مع الفيزيائي البارز (مهدي غولشني) ـ أحد القضاة المحكّمين في جائزة (تمبلتون) المعروفة، والمتخصص في فيزياء الكم ـ أنّه لا يجوز للعلماء إلا أن يقولوا: «ليس عندنا يقين في الطبيعة لأنّه عندما نجري تجربة، فنحن نتدخّل في الأمر، وبالتالي فإنّ الأمر ليس إلا جهلًا معرفيًّا وليس جهلًا وجوديًّا»[2]. والملاحدة هنا يحاولون استغلال دقة عالم الذرة وخفائه لافتراض غياب السببية[3]، غير أنّ الخفاء

---

(١) "The conclusion that there is no deeper level of causally determined motion is just a piece of circular reasoning since it will follow only if we assume beforehand that no such level exists." (Bohm, *Causality and Chance in Modern Physics* (London: Routledge & Kegan Paul, 1984), p.95.

(٢) W. Mark Richardson and Gordy Slack, eds. *Faith in Science: Scientists search for truth* (London; New York: Routledge, 2001), p.131.

(٣) من المثير هنا أنّ بعض الكتابات الشعبية تزعم أنّ تجربة الفيزيائي (جون بل) (John Bell) سنة ١٩٦٤م قد أثبتت أنه لا أمل لمن يراهن على أنّ سبب جهلنا بالأسباب هو وجود أمور خافية علينا أو ما يعرف بـ(المتغيّر الخفي) (Hidden Variable). والصواب هو أنّ جهود (جون بل) هي التي أثبتت فساد دعوى (فون نومان) (Von Neumann) في الثلاثينات من القرن الماضي التي زعمت فساد القول بوجود المتغيرات الخفيّة، وذلك بكشف (بل) عن خطأ رياضي في حسابات (نومان) (J. S. Bell, *Speakable and Unspeakable in Quantum Mechanics* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1987)!

لم تنف حسابات (بِل) غير طابع (locality)، وليس (non - locality)، علمًا أنّ هناك اليوم من ينازع في رفض طابع (locality)، ومنهم الفيزيائي الهولندي (جيرارت هوفت) (Gerard 't Hooft) الحاصل على جائزة نوبل سنة ١٩٩٩م لأبحاثه في الفيزياء الكمومية، وهو من المنتصرين للتفسير الحتمي لميكانيكا الكم.

Gerard 't Hooft (2009). "Entangled quantum states in a local deterministic theory".

= <http://arxiv.org/abs/908.3408>.

ليس حجة لأحد من المتنازعين (أنصار السببية ومخالفيهم)، ويبقى أن يُجرى على الأصل المتيقّن حتى ينتقض ذلك (!) بدليل يقيني.

نفي السببية في عالم تحت الذرة ليس عليه برهان علمي، وإنما هو افتراض قائم على (حجّة الجهل)، وهو يحتاج إلى افتراض إمكانه سلفًا، وليس ذلك بممكن لأنّ السببية مبدأ ميتافيزيقي وليست دعوى تجريبية.

• هل بإمكاننا أن نعلم؟:

عالم ما تحت الذرة عصيّ على الملاحظة والفهم إلى درجة عالية، بسبب ضعف مقدراتنا الذهنية وغرابة هذا العالم، حيث نعجز عن ملاحظة واقعه بالصورة المألوفة، كما أن تفاعلات عناصره غير مألوفة[١]؛ ولذلك ذهب عدد من المفكرين إلى أنّه علينا أن نتعامل مع قوانينه والجسيمات الافتراضية لميكانيكا الكم بلغة غير واقعية؛ أي: أن نأخذ تقريرات ميكانيكا الكم كتقريرات تعكس معرفتنا (أو لغتنا) الواقعية، لا العلاقات الموضوعية في عالم تحت الذرة. وهو ما يعني أنّ العالم الكمومي ليس لاحتميًّا على الحقيقة، وإنما حدود معرفتنا القاصرة عن معرفة الأسباب الخفية هي التي توحي لنا بهذه اللاحتمية التي يتسلّل من خلالها الملاحدة للقول: إنّ الكون قد ينشأ عن لا شيء[٢]، ولذلك كتب الفيلسوف التوماوي (إدوارد فزر) (Edward Feser) في وجوب التواضع المعرفي عند تناول الظواهر الكمومية، قائلًا: «لا يلزم من

= ثم إنّ (جون بل) نفسه قد كتب سنة ١٩٨٢م في مدح جهد (دافيد بوم)، واصفًا ما كتبه بأنّه يقارب المستحيل، موحيًا أنّ الموقف القاسي للعلماء من تفسير (بوم) وانتصارهم للاحتمية **لم تفرضهما الحقائق التجريبية وإنما «الاختيار النظري المتعمد»** (Xavier Oriols and Jordi Mompart, eds. *Applied Bohmian Mechanics: From nanoscale systems to cosmology* (Singapore: Pan Stanford, 2012), p.34)، علمًا أنّ السبب العلمي الأساسي لرفض نظرية (بوم) هو طابع «non - locality» في تفسيرها، وقد تبيّن من خلال أبحاث (بِل) في الثمانينات ـ وفي غيرها ـ أنه طابع صميمي للعالم الكمومي (John Gribbin, ed. *Q is for Quantum: An encyclopedia of particle physics* (NY: Free Press, 1998), p.50)!

(١) Ruth E. Kastner, *The Transactional Interpretation of Quantum Mechanics: The Reality of possibility* (New York: Cambridge University Press, 2013), p.25.

(٢) J. P. Moreland, *Scaling the Secular City: A Defense of Christianity* (Grand Rapids, Mich.: Baker Book House, 1987), pp. 38 - 39.

فشل النظرية الكمومية في تحديد سبب لظاهرة ما ألا يوجد لها سبب؛ إذ إنّ النظرية لا تلتقط كلّ صفات الظاهرة التي تصفها في المقام الأوّل. غياب شيء ما في عرض الطبيعة لنفسها ليس كعرض عدمه في الطبيعة. إنّ **غيابه في الظهور لا يرجّح حتى عدمه في الطبيعة إذا سبق لنا العلم بصورة مستقلة أنّ العرض سيغفله حتى لو كان موجودًا هناك**»[١]. فطبيعة معرفتنا بخفاء عالم ما دون الذرة تلزمنا ألّا نبني قوانين على ما قد يخفى منه؛ ولذلك يحسن بالعقل البشري أن يقف عند حدود إدراكه، وأن يجعل ما يعرفه، وهو قانون السببية، أصلًا لفهمه للعالم، وألّا ينكر هذا الأصل دون بيّنة واضحة (!) يدركها العقل أو تجسّها الحواس. إنّ على عالم الفيزياء أن يكفّ يده عن محاولة هدم الثوابت العقلية ومألوفاتنا الحسيّة والتجريبية بدعوى أنّ عالم الذرّة وما دونها يقرّر غير المألوف ولا المتصوّر؛ إذ إنّ عالم الفيزياء هذا ذاته عاجز عن القطع بحقيقة أبسط مظاهر عالم دون الذرة، وهو الإلكترون؛ إذ إنّ العلماء إلى اليوم في حيرة من حقيقة حال هذا الشيء، هل هو جسيم أم موجة؟ وهو أمر أبسط بكثير من القول في الأمور المركّبة الكبرى أو الخفيّة!

ويذهب الفيلسوف المعمّر (مورتيمر أدلر) (Mortimer Adler) إلى القول: إنّ العلم التجريبي عاجز بطبيعته عن حلّ لغز حقيقة السببية في (عالم الكم)، وإنّ الفلسفة وإن لم تكن تملك الحل القاطع ـ كما يقول ـ إلا أنها «قادرة على تقديم سبب جيّد للقول: إنّ حقيقة عالم ما تحت الذرة أنّه حتمي بصورة جوهرية. والسبب هو أنّ **العلماء المنظّرين للعالم الكمومي يعترفون بصورة مكررة أنّ حدسهم وقياساتهم المشوشة هي سبب اللاحتمية** التي ينسبونها إلى أشياء وأحداث ما تحت الذرة، وهو ما يعني أن اللاحتمية لا يمكن أن تكون جوهرية لواقع ما تحت الذرة»، موافقًا (أنشتاين) في أنّ علم الكم غير كامل في وصفه لعالم ما تحت الذرة، وإن كان لم يتابعه حول إمكان العلم بالأمر لاحقًا[٢].

---

(١) Edward Feser, *Scholastic Metaphysics: A Contemporary Introduction* (NJ: Rutgers University 2014), p.136

(٢) Mortimer Adler, *Truth in Religion: The plurality of religions and the unity of truth: an essay in the philosophy of religion,* (New York: Maxwell Macmillan International, 1990), pp.93 - 100.

ولعلّ أبرز ظاهرة تكشف خفاء (عالم الكم) هي أنّ **الكثير من الفيزيائيين** اليوم يدعون إلى هجر النظر في التفسيرات والاهتمام فقط بالأمور الحسابية (وهي قد لا تعكس اختلاف التفسيرات)، رافعين شعارًا ذاع حديثًا، وهو: «**اخرس وعُدّ**» «Shut up and calculate»؛ إذ لا يجني الباحث عن تفسير أنطولوجي لعالم الذرة وما دونها غير الظنّ والوهم!

• فماذا لو قبلنا التفسير اللاحتمي؟:

لا يلزم من قبول التفسير الكوبنهاغي لعالم تحت الذرة القول بنشوء الشيء من لاشيء؛ إذ إنّ حدوث الأثر لا يكون إلا بتوفر مقدماته، فرغم أنّ توفّر هذه الشروط ليس سببًا حاسمًا لوجود الأثر إلّا أنّ وجودها شرط لازم لإمكان حدوث الأثر، فنحن نميّز ـ كما يقول المناطقة ـ بين «الشرط الضروري» «necessary condition» و«الشرط الكافي» «sufficient condition»، فالشرط الضروري لا يستغني عنه الشيء ليُحتمل وجوده، أمّا الشرط الكافي فيترتب عنه الأثر ضرورة، ومن ذلك أنّ حضور الطالب الامتحان شرط ضروري لنجاحه، وإن كان لا يلزم من ذلك أن ينجح، في حين أنّ تقديمه أجوبة صائبة شرط كاف لنجاحه؛ أي: إنّه يترتبّ عن ذلك نجاحه يقينًا.

وبعبارة متصلة بما نحن بصدده نقول: خروج الجسيم إلى الوجود تمّ بسبب توفّر شروط ضرورية هي عالم الكم وقوانين الكم، وفي غياب هذا العالم وقوانينه لا يمكن للجسيم أن يظهر، لكنّ توفّر هذه الشروط وحدها لا يلزم منه حدوث الأثر (ظهور الجسيم)، فتوفّر الشروط السببية حتم لظهور الجسيم وإن كان توفّرها لا يحتم ظهوره. وبفهمنا للاحتمية عالم الكم على هذه الصورة يمكننا أن نقرر أنّ عالم الكم لا يقدّم نموذجًا يقاس عليه للقول بنشأة الكون من العدم المحض، وإنما لا بدّ من توفّر شروط سببية، وفي هذا يقول الفيلسوف (كيث وارد) (Keith Ward): «في فرضية التذبذب الكمومي، لا يمكن للكون أن يظهر للوجود إلا أن توجد مجموعة متوازنة تمامًا من القوى الأساسية، واحتمال محدد دقيق لتذبذبات معينة تقع ضمن هذه

المجموعة، وزمكان من الممكن أن تقع فيه التذبذبات. إنه (لاشيء) بالغُ التعقيد والضبط!»[١].

لم تمرّ خديعة العدم الخالِقِ التي ادّعاها (كراوس) دون توبيخ، ومن ذلك قول عالم الكوسمولوجيا (جورج ف. ر. إليس) (George F. R. Ellis) ـ الذي يعدّ من أعلام فنّه في العالم، وهو أحد الذين شاركوا (ستيفن هوكنز) أحد كتبه[٢]: إنّ (كراوس):

أ ـ لم يفسّر كيف وجدت الأشياء التي تكوّن منها عالم ما قبل كوننا.

ب ـ لم يفسّر لِم وُجدت ابتداءً.

ت ـ لم يفسّر لِم تحمل الشكل الذي أخذته لاحقًا.

ث ـ لم يقدّم أي برهان تجريبي أو من الممكن ملاحظته لاختبار دعاويه حول آلية نشأة الكون.

ج ـ لم يبيّن كيف من الممكن اختبار ما وُجد قبل وجود الكون.

ح ـ ما قدمه ليس من العلم في شيء، وإنّما هو دعوى فلسفية يعتنقها بحرارة إلى درجة أنه ليس بحاجة إلى أن يقدّم عليها أي برهان محدد لإثباتها.

خ ـ زعم أنّ المعادلات الرياضية التي اقترحها كافية للإجابة على الإشكال الفلسفي الذي ظلّ قائمًا لآلاف السنين.

وانتهى إلى تقرير أنّ الزعم أنّه بالإمكان **أن نفهم الواقع بصورة كاملة من خلال الفيزياء ومعادلاتها ليس إلا وهمًا**[٣].

تلزم الحقائق السابقة الملحد أن يثبت أزلية مكان ما قبل وجود الكون، ليتقهقر السؤال عن أصل الكون مرتبة واحدة إلى الخلف دون أن يقدّم له

---

(١) Keith Ward, *God, Chance and Necessity* (Oxford: One World, 1996), p.40

(٢) *The Large Scale Structure of Space - Time* (1973).

(٣) في حوار معه تحت عنوان:

Physicist George Ellis Knocks Physicists for Knocking Philosophy, Falsification, Free Will" (22 - 7 - 2014).

<http://blogs.scientificamerican.com/cross-check/2014/07/22/physicist-george-ellis-knocks-physicists-for-knocking-philosophy-free-will/>.

الملحد جوابًا. وهو ما جعل (بول ديفيس) ـ المنتصر للخلق الصدفوي من المجال الكمومي ـ يعترف أنّ أصل الزمكان قبل ظهور المكان والزمان في عالمنا هو أمر ملغز![1].

• خلق من عدم أم مجرّد تحوّل حال؟:

إنّ الجسيم الذي يزعم الملاحدة أنه نشأ من لاشيء لا يمثّل «خلقًا من عدم»، إنما هو في الحقيقة انتقال من حال فيزيائي إلى آخر؛ فهو **تحوّلٌ للشيء من حال الطاقة إلى حال المادة**، فهذا الجسيم إنما يستمد وجوده من الطاقة ولولاها لم يكن؛ فهو لا يخرج إلى الوجود الفيزيائي ـ عند من يرى وجوده حقيقة ـ من العدم المحض وإنّما يأخذ من الطاقة مادته ليكون نفسه، ثم يعود بعد فترة قصيرة جدًّا إلى حال الطاقة[2].

نحن هنا إذن بإزاء تحوّل في طبيعة المادة، من وإلى الطاقة، ولسنا بصدد نشوء المكان والزمان والمادة أو الطاقة، وهذا ما يجعل مثال هذا الجسيم غير صالح لأن يقاس عليه القول بخروج الكون من العدم دون سبب. وقد اضطر الفيلسوف الملحد (كونتن سميث) إلى الإقرار أنّ هذه الأمور تكشف أنّ حال هذا الجسيم «هو في أفضل اعتبار يظهر أنّ قوانين لاسببية تحكم **تغيّر حال** الجسيم، كتغيّر موقع جسيم ما من نقطة إلى أخرى». نافيًا أن يكون لها أدنى تعلّق بسببية البدايات المطلقة لوجود الجسيمات[3].

ثمّ إنّ افتراض نشأة الكون من لاشيء دون سبب، هو أمر متهافت غير مفهوم؛ إذ يلزم منه أنّ النشأة الأولى قد اختارت كوننا بمواصفاته دون أي شيء آخر، رغم غياب السبب للإيجاد والاختيار؟ وهنا لنا أن نسأل: **ما مبرر التخصيص الحتمي لمادة الكون دون غيرها إذا كان الأمر برمته غير مبرر ولا مسبب؟!** ولماذا يفترض الملحد في الخلق من عدمٍ القصدَ والتخصيص؟!

---

(١) Paul Davies, *God and the New Physics* (New York: Simon & Schuster, 1983), p. 215.

(٢) Ibid., p.31.

(٣) Quentin Smith, "The Uncaused Beginning of the Universe," Philosophy of Science, 1988, 55:50.

ولماذا ظهر كلّ من المكان، والزمان، والمادة، والطاقة؟!

البرهان الوحيد المدّعى لظهور الشيء من العدم، هو في حقيقته مجرّد تحوّل شيء موجودٍ من صفة إلى أخرى وليس انبثاقًا من اللاشيء!

• قياس فاسد علميًّا:

افتراض الكوبنهاغيين نشأة الكون بفعل قانون الكم الذي تنشأ بسببه الجسيمات الافتراضية، بعيد؛ لأنّ هذه الفرضية تزعم أنّ هذه النشأة قد حدثت قبل (جدار بلانك)؛ أي: عندما كان حجم الكون ضئيلًا جدًّا حتى إنّ قوانين الكم نفسها تتعطّل فيه. كما أنّ قصر عمر الجسيمات الافتراضية إذا ربط بحجم الكون في بدايته يلزم منه أن يكون عمر كوننا من بدايته إلى نهايته في حدود (10^{-103} ثانية)[1]، وهو أمر ضئيل جدًّا إلى درجة أنه ليس بإمكاننا حسيًّا أن نشعر بوجود هذا الكون عند ظهوره، ومعلوم أنّ كوننا أعظم من ذلك عمرًا ببعيد.

• هل علينا أن نتخلّى عن مبدأ السببية؟:

يطرح الفيلسوف (رم ب. إدواردز) (Rem B. Edwards) اعتراضًا على المحتجين بالنشأة العفوية للجزئيات الافتراضية في عالم ما دون الذرة بقوله: «إذا كانت معرفة السببية الكونية ضمن العالم والمستقاة من داخل العالم لا يمكن تطبيقها على نشأة العالم، فإنّ معرفة الآثار الكمومية المستقاة من العالم لا يمكن تطبيقها أيضًا»[2]؛ فرفض قانون السببية المكتسب من هذا العالم، عند من لا يرون بديهيته، يجب ألّا يُقصى من النظر عند البحث عن نشأة الكون بدعوى أنّ هذا القانون خاص بعمل الكون لا نشأته، ليفضَّل عليه قانون اللاسببيّة الكمومية (المزعوم)؛ لأنّ قانون الكمومية هو أيضًا خاص بعمل ما

---

(١) Hugh Ross, *The Creator and the Cosmos: How the greatest scientific discoveries of the century reveal God* (Colorado Springs, Colo.: NavPress, 2001), p. 91.

(٢) Ibid., p.174.

دون الذرة ضمن حياة العالم، وليس نشأة العالم. فإذا كانت السببية مرفوضة بسبب أصلها العالمي، فكذلك اللاسببيّة يجب أن ترفض لأنها عالمية الأصل أيضًا ـ على دعوى أنصارها!

• الحاجة إلى حجّة:

لا توجد حجّة علميّة واحدة تربط مباشرة بين نشأة الكون وظاهرة التذبذب الفراغي؛ إذ ليس بين الأمرين ما يدلّ على أنّ آلية نشأة الكون من العدم هي كآلية نشأة الجسيمات الافتراضية في عالم الكم. وقد كتب (فكتور ستنجر) ـ أحد أهم المنتصرين لدعوى نشأة الكون من التذبذب الفراغي اللاحتمي ـ قائلًا: «ليس كلّ شيء محتاجًا إلى سبب. من الممكن أن يقع الشيء بصورة عفوية كما هو حال الكثير من المجموعات الخطية في الكون والتي لها عدد كمومي في الفراغ». وأضاف مع ذلك مقرًّا أنّه «**لا تزال الكثير من الأمور في مرحلة التخمين**، ولا بد أن أعترف أنه لا توجد إلى الآن اختبارات تجريبية أو قائمة على الملاحظة من الممكن اعتمادها لاختبار فكرة الأصل الصدفوي»[١].

والنظر في طبيعة نشأة هذه الجسيمات الافتراضية والتي يدلّ عليها الأثر ولا تظهر بنفسها للملاحظة، عند من يرون وجودها أصلًا، يكشف أنّها تظهر وتختفي في زمن ضئيل جدًّا، هو أجزاء من الثانية، وهو ما يجعلها أبعد شيء عن هذا العالم الذي وجد بكامل كيانه، مجتمعًا في نقطة واحدة تمددت بعد ذلك لتكوّن هذا العالم العتيق والفسيح.

ما الذي نحن بإزائه إذن؟! إنه الإيمان الأعمى القائم على الرغبة النفسيّة في الهروب من فكرة مخالفة، والسعي إلى فكرة تحقّق الرضى الذاتي دون برهان موضوعي! وهذا هو عين ما ينكره الملاحدة على المؤمنين بالله!

---

(١) Victor J. Stenger, "Was the Universe Created?" in *Free Inquiry* (Summer 1987), 30.

ـ ب ـ

وجوب القول بالتسلسل

يتمثّل الاعتراض الإلحادي التقليدي على (دليل الحدوث) في القول: إنّه يلزم من التسليم بأنّ الكون ـ كمجموع أو كأفراد ـ بحاجة إلى سبب، أن يكون لسبب وجود الكون سببٌ لوجوده. وهو ما يعني أنّ سلسلة الأسباب ستمتد إلى الماضي، إلى ما لا نهاية، وهو ما يفسد حجة المؤلّهة الذين يرون أنّ الخالق هو «السبب الأوّل»، ولا سبب قبله.

الردّ على هذا الاعتراض يَظهر في **بيان امتناع التسلسل في الماضي**، وبيان أنّ الوجود **لا يتحمّل اللانهائية واقعًا**. وهو ما سنثبته من وجهين:

- بطلان وجود اللاتناهي واقعيًّا.
- عدم إمكان تحصيل اللاتناهي واقعيًّا من خلال جمع أفراد الأشياء.

أولًا: فساد اللاتناهي الواقعي

لا سبيل لإثبات الزعم الإلحادي القائل بأزليّة الكون إلا بعد التسليم بإمكان (اللاتناهي) (infinity) الفعلي في الواقع. ولا سبيل لإثبات إمكان (اللاتناهي الفعلي)؛ لترتّب المحالات (absurdities) على القول به؛ مما يحتّم القول بفساد دعوى دخول اللاتناهي إلى الوجود الكائن؛ أي: إنّه لا يمكن لـ(لاتناهي) أن يوجد في عالم الحقيقة، وسبب هذا الامتناع أنّه تترتب على وجوده أمور يقطع العقل أنها فاسدة. ومن هذه المحالات:

- تفاضل اللامتناهيات، وهو أمر محال (absurd)؛ إذ كيف تتفاضل المتساويات، فيكون أحدها أكبر من الآخر أو أصغر منه؟!
- حاجة اللامتناهي إلى زيادة، وهذا فاسد ضرورة لأنّ اللامتناهي لامتناهٍ، فلا معنى للزيادة عليه!
- الزيادة الواقعية للامتناهي، وهو أمر مخالف لطبيعة اللاتناهي.
- تساوي غير المتماثلات؛ أي: مساواة الشيء لما هو أكبر منه أو أصغر، وهذا مخالف للبداهة!

ويأتيك التفصيل:

[١] تفاضل اللامتناهيات:

قال (أبو حامد الغزالي): «قِدَم العالم محال؛ لأنه يؤدي إلى إثبات دورات للفلك لا نهاية لأعدادها ولا حصر لآحادها، مع أن لها سدسًا وربعًا ونصفًا، فإنّ فلك الشمس يدور في سنة، وفلك زحل في ثلاثين سنة، فتكون أدوار زحل ثلث عشر أدوار الشمس، وأدوار المشتري نصف سدس أدوار الشمس، فإنه يدور في اثنتي عشرة سنة؛ ثم كما أنه لا نهاية لأعداد دورات زحل، لا نهاية لأعداد دورات الشمس، مع أنه ثلث عشره، بل لا نهاية لأدوار فلك الكواكب الذي يدور في ستة وثلاثين ألف سنة مرة واحدة... فلو قال قائل: هذا مما يعلم استحالته ضرورة فبماذا تنفصلون عن قوله؟!»[١].

يقصد الغزالي من قوله: إنّه إذا افترضنا ـ جدلًا ـ أنّ هذه الأجرام السماوية تدور في مداراتها منذ الأزل، مع علمنا أنّ دورة الفلك (أ) تساوي نصف سدس دورة الفلك (ب)، فإنّ هذا يلزم منه أمران متناقضان:

الأول: لما كان (أ) و(ب) موجودين منذ الأزل، لزم أن يكون عدد مرات دورانهما في فلكهما لامتناه لكلّ واحد منهما؛ إذ إنّ دوران الشيء في فلكه منذ زمن لامتناهٍ، لامتناهٍ عددًا.

الثاني: لما كان (ب) يحتاج ١٢ دورة في فلكه حتى يُتم (أ) دورة واحدة حول فلكه، لزم أن يكون عدد دورات (أ) في فلكه أكبر من عدد دورات (ب) في فلكه ١٢ مرة؛ إذ إنّ الفارق بين الشيئين لا بدّ أن يتضاعف بقدر تضاعف عدد هذين الشيئين.

= لا يمكن الجمع بين القولين الأوّل (تساوي الدورتين عددًا) والثاني (تفاضل الدورتين عددًا)، لاستحالة ذلك.

---

(١) أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص٩٩.

[٢] حاجة اللامتناهي للزيادة:

قال (الغزالي): «أعداد هذه الدورات شفع أو وتر؟ أو شفع ووتر جميعًا؟ أو لا شفع ولا وتر؟ فإن قلتم: شفع ووتر جميعًا، أو لا شفع ولا وتر، فيعلم بطلانه ضرورةً، وإن قلتم: شفع، فالشفع يصير وترًا بواحد، فكيف أعوز ما لانهاية له واحد؟ وإن قلتم: وتر، فالوتر يصير بواحد شفعًا، فكيف أعوزه ذلك الواحد الذي به يصير شفعًا؟! فيلزمكم القول بأنه ليس بشفع ولا وتر.

فإن قيل: إنما يوصف بالشفع والوتر، المتناهي، وما لا نهاية له فلا.

قلنا: فجملة مركبة من آحاد، لها سدس وعشر كما سبق، ثم لا توصف بشفع ولا وتر، يعلم بطلانه ضرورة من غير نظر، فبماذا تنفصلون عن هذا؟!»[(١)].

يقصد (الغزالي) من إلزاماته السابقة أنّ دورات الأجرام السماوية في أفلاكها لها حال من أربع:

الأولى: زوجية وفردية معًا. وهذا محال بداهة لأنّ العدد لا يكون زوجيًا وفرديًّا في نفس الآن.

الثانية: لا زوجية ولا فردية. وهذا محال بداهة لأنّ العدد لا يخرج عن الزوجي والفردي. ولا يمكن تجويز هذا الاحتمال بالقول: إنّ ما لا يتناهى من الممكن أن يكون لا زوجيًّا ولا فرديًا؛ إذ إنّ كل ما هو مجموع آحاد لا بد أن تكون محصّلته فردية أو زوجية، وكذلك هو حال ما كان له نصف وربع وسدس. . .

الثالثة: زوجي.

الرابعة: فردي.

لا احتمال لنا إذن سوى الزوجي أو الفردي، لكن يقع هنا إشكال،

(١) المصدر السابق، ص٩٩ ـ ١٠٠.

وهو: إذا كان الزمان لامتناه، فكيف يحتاج العدد الزوجي من الدورات إلى واحد ليصير فرديًّا؟! وكيف يحتاج العدد الفردي من الدورات ليصير زوجيًّا؟! إنّ الحاجة إلى زيادة تقتضي أنّ العدد متناه، في حين أنّ دورات هذه الأفلاك لامتناهية لأنّها بدأت من الأزل!

[٣] حصول زيادة اللامتناهي واقعيًّا:

اللامتناهي، هو ما لا نهاية له، وهي صفة يلزم منها ألّا إمكان للزيادة عليه، ونحن نعلم في المقابل أنّ الزمن تحصل له زيادات كلّ لحظة تدخل إلى الوجود، وهذا تناقض. قال (ابن حزم): «ما لا نهاية له فلا سبيل إلى الزيادة فيه، إذ معنى الزيادة إنما هو أن تضيف إلى ذي النهاية شيئًا من جنسه يزيد ذلك في عدده أو في مساحته. فإن كان الزمان لا أوّل له يكون به متناهيًا في عدده الآن، فإذن كل ما زاد فيه ويزيد مما يأتي من الأزمنة منه فإنه لا يزيد ذلك في عدد الزمان شيئًا»[١].

وبإمكاننا أن نمثّل لهذا الأمر في واقع الأشياء برجل يملك جنيهات بعدد أيام الزمان اللامتناهي في الماضي، ثمّ أراد شخص أن يهديه مبلغًا من المال، فهل يزيد ذلك في رصيده شيئًا؟ إن قلت: «نعم!»، فقد جعلت اللامتناهي يزيد في عدد أفراده، وذاك محال! وإن قلت: «لا!»، فقد جعلت الزيادة كعدمها، وهو أيضًا محال!

[٤] تساوي غير المتماثلات:

احتجّ الغزالي كغيره من المتكلّمين «بدليل التطبيق»، وهو ببساطة أن نرسم خطًّا زمنيًّا يمتد من النقطة (أ) الزمنية إلى الأزل. ونرسم نفس الخط الزمني كالأول غير أننا نضيف خطًّا زمنيًّا محدودًا إلى الطرف المتناهي منه؛ ليكون لنا في النهاية خط زمني أوّل وخط زمني ثان أطول منه. إذا «طبّقنا»

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ط٢، ٢٨/١.

الخط الأول على الثاني، وجدنا أنّ الخط الثاني أطول من الأوّل.

نجد أنفسنا هنا أمام محالَين:

الأول: السلسلة الأولى التي تبدأ من الأزل أقصر من الثانية، والناقص لا يكون أزليًّا.

الثاني: السلسلة الثانية التي تبتدئ من الأزل أكبر من السلسلة الأولى بمدة محدودة، وما زاد على المحدود بمحدود، فهو محدود؛ أي: لا يكون أزليًّا.

النتيجة: لا يمكن لمجموع الأحداث التي تكوّن الخطّ الزمني أن تكون أزليّة لأنها تقود إلى محال عقلي عند تطبيق السلسلة الأطول على السلسلة الأقصر الداخلتين في الماضي.

مثال:

الأزل ---------- * ٢٠٢٠م

الأزل ---------- * ٢٠٢٠م ---- ٢٠٣٦م

القول بأنّ المدة الممتدة من الأزل إلى سنة ٢٠٢٠م أقصر من المدة الممتدة إلى سنة ٢٠٣٦م يلزم منه محال عقلي:

١ ـ ما ابتدأ من الأزل لا بدّ أن يكون أزليًّا؛ لكنّ السلسلة الممتدة إلى ٢٠٢٠م أقصر من الثانية وبالتالي فهي محدودة؛ إذ إنّ السلسلة الأقصر لا يمكن أن تكون أزليّة؛ فلا يكون الأزلي أقصر من غيره.

٢ ـ السلسلة الممتدة من الأزل إلى ٢٠٣٦م أطول من السلسلة الأولى بخمس عشرة سنة، ومدة الخمس عشرة سنة هي مدّة محدودة، وما كان أطول من المحدود بمحدود، فهو محدود.

النتيجة: لا يمكن للزمان أن يكون أزليًّا لأنه يلزم من ذلك محال عند مقارنة زمنين ابتدآ من الأزل وينتهيان عند حدثين متباعدين تاريخًا.

الواقع المادي لا يتحمّل وجود المتناقضات في أشيائه، ووجود المتناقضات في العالم النظري دليل عدم إمكانها في الواقع الفعلي.

اعتراض ١ ـ إمكان التسلسل في المستقبل:

يسوق الملاحدة اعتراضًا كلاسيكيًّا على عدم إمكان أن يكون الماضي أزليًّا؛ أي: غير متناه في الماضي، بالقول: إنّ إمكان لاتناهي الماضي متصوّر عقلًا لأنّنا نسلّم أنّ المستقبل غير متناه، ولا وجه للتفرقة بين لاتناهي الزمان في الماضي ولاتناهيه في المستقبل!

والصواب: هو أنّ التفرقة بينهما ضرورية، والمغالطة في هذا الاعتراض واضحة؛ إذ إنه يجب أن نفرّق بين (اللاتناهي الفعلي) (actual infinity) و(اللاتناهي الممكن) (potential infinity)، أما الأوّل فغير ممكن لأنّ **ما يدخل حيّز الوجود من أعيان الواقع لا بدّ أن ينحصر عدده**؛ إذ هو مجموعة من الأشياء المحدودة عددًا، ومحال أن يكون الشيء في لحظة معينة لامتناه، وإنما هو يقينًا قابل للعدّ، على خلاف (اللاتناهي الممكن)، والذي نتخذ له كمثال اللاتناهي في المستقبل، فهو في حقيقته لاتناهٍ **افتراضي لأنه يستمر في الزيادة مع الزمن**، ولذلك **لا يدخل تحت العدّ**، غير أننا لو توقفنا في أيّ زمن من أزمان المستقبل، فسيكون ما مضى من الزمن؛ أي: ما دخل حيّز الوجود، محدودًا، فلاتناهي المستقبل مردّه عدم دخول أفراده حيّز الوجود في طرفه المتزايد؛ ولذلك فالماضي محدود مهما تطاول قدرًا، لدخوله حيّز الوجود، أما المستقبل فلامتناه لعدم دخول أفراده حيّز الوجود.

إنّ أصل النظر في قضية إمكانية اللاتناهي في الماضي يعود إلى إمكانية وجود اللاتناهي وجودًا حقيقيًّا محققًا في عالمنا. والحق هو أنّ اللاتناهي **لا وجود له في الواقع وإنما هو مجرّد افتراض ذهني** يُحتاج إليه في باب الرياضيات النظرية، ولذلك قال (دافيد هلبرت) (David Hilbert) ـ أحد أبرز علماء الرياضيات في العالم في القرنين الماضيين ـ: «**لا وجود البتة للانهائي في الحقيقة**. إنّه لا يوجد في الطبيعة ولا يقدّم أساسًا شرعيًّا للتفكير العقلي... الدور الذي بقي له أن يلعبه هو فقط في **أن يكون فكرة**»[١]. وهي

(١) David Hilbert, "On the Infinite," in *Philosophy of Mathematics,* ed. with an introduction by Paul Benacerraf and Hillary Putnam (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1964), p.151.

حقيقة بدهيّة ألزمت الفيلسوف (دافيد هيوم) أن يصرّح قائلًا: «يبدو العدد اللامتناهي من الأجزاء الحقيقية من الزمن، المتتابعة، والمستنزفة، على أنه تناقضٌ جليّ لا يمكن أن يقبله أيّ امرئ غير فاسد المدارك»[1].

للانهائية إذن مجالها الأثير في الدراسات النظرية للرياضيات، لكنّها لا تملك مكانًا في عالم الطبيعة، وبالتالي فهي عاجزة كلّ العجز أن تمد يدها لإنقاذ الدعوى الإلحادية التي لا يمكن أن تقوم لأولى خطواتها في عالم لا يعترف للزمن الواقعي باللانهائية.

اعتراض ٢ ـ كانتور و«نظرية المجموعة»:

قبل الأعمال الثورية في عالم الرياضيات لـ(برنارد بولزانو) (Bernard Bolzano) (١٧٨١ ـ ١٨٤٨م)، و(ريتشارد ددكند) (Richard Dedekind) (١٨٣١ ـ ١٩١٦م)، والألماني (جورج كانتور) (Georg Cantor) (١٨٤٥ ـ ١٩١٨م) ـ وهو أهمَّهم وأبلغهم تأثيرًا ـ، كان الإجماع منعقدًا بين علماء الرياضيات على مرّ التاريخ أن (اللاتناهي الممكن) هو الوحيد المقبول، أمّا (اللاتناهي الفعلي) فلا مجال لقبوله؛ فالخط يقبل القسمة على عدد لانهائي، كأن يقسم على اثنين، ثم يقسم نصفه على اثنين، وهكذا إلى ما لا نهاية، لكن لا مجال في عالم الواقع لتصوّر خط لانهائي طولًا؛ إذ يمكن تصوّر استطالة الخط إلى ما لا نهاية، لكن لا يمكن تصوّر وجوده في لحظة ما من الزمن على شكل لانهائي[2].

ويحاول بعض فلاسفة الإلحاد الهروب من استحالة اللاتناهي في عالم الواقع بدعوى أنّ عالم الرياضيات (جورج كانتور) قد أثبت بما يعرف بـ(المجموعات اللانهائية) (infinite sets) إمكان اللاتناهي الفعلي؛ إذ أدخل مفهوم المجموعة النهائية التامة (غير التراكمية) إلى عالم الرياضيات. وهي دعوى منتقضة من ثلاثة أوجه:

---

(١) David Hume, *Enquiry Concerning Human Understanding,* p.115.

(٢) William Lane Craig, *The Kalam Cosmological Argument,* pp.65-66

الوجه الأول: واجهت نظرية (كانتور) معارضة حادة من علماء الرياضيات كـ(هنري بوانكاريه) (Henri Poincaré)، ولا تزال مدارس رياضية كثيرة ترفضها[١]. وقد أدّى كشف (برتراند راسل) و(زرملو) (Zermelo) العديد من المفارقات في نظرية (كانتور) إلى تململ علماء الرياضيات منها حتى تخلى عنها عدد من أنصارها، ومنهم (ددكند) (Dedekind) و(فرج) (Frege)[٢]. كما اكتشف (كانتور) نفسه مفارقتين في نظريته[٣].

الوجه الثاني: لا يمسّ ما قرّره (كانتور) الواقع في شيء وإنما هو متعلّق بالتجريد الرياضي، ويبقى أنّ اللاتناهي محال في واقع المادة لاستلزامه محالات وتناقضات كما سبق؛ ولذلك قالت الفيلسوفة (باميلا م. هبي) (Pamela M. Huby): «لم يجعل (كانتور) اللاتناهي الفعلي مقبولًا بمعنى أنه [=(كانتور)] مكّننا من فهم كيف من الممكن أن يكون هناك لاتناهٍ فعلي لأرقامٍ واقعية. ما فعله بالأحرى هو أنه قدّم أساليب بإمكاننا من خلالها أن نتعامل بصورة مرضية وغير مشوشة مع بعض أنواع اللاتناهي (الممكن)»[٤].

كما شهد أحد المؤسسين الأوائل لـ(نظرية المجموعة) (set theory) العصرية، عالم الرياضيات (برنارد بولزانو) ـ صاحب كتاب «مفارقات اللاتناهي» «*Paradoxien des Unendlichen*» الذي نال إعجابًا كبيرًا من (كانتور)، والذي وضع الأسس العصرية لإدخال اللاتناهي الفعلي في عالم الرياضيات ـ أنّ المجموعات اللانهائية لا توجد إلا «في عالم الأشياء التي **لا تَدَّعي الواقعية، بل ولا حتى تدّعي الإمكان**»[٥]. وعبّر (أبراهام روبنسون) (Abraham Robinson) لاحقًا عن هذا المعنى بقوله: إنّ «لانهائيات (كانتور)

---

(١) وإن كان جمهور علماء الرياضيات مع نظرية «المجموعة اللانهائية».

(٢) David Hilbert, "On the Infinite," p.141.

(٣) William Lane Craig, *The Kalam Cosmological Argument,* p.90.

(٤) Pamela M. Huby, "Kant or Cantor? That the Universe, If Real, Must Be Finite in Both Space and Time", in *Philosophy,* Vol. 46, No. 176 (Apr., 1971), p.129.

(٥) Bernard Bolzano, *Paradoxes of the Infinite,* trans. Prihonsky (London: Routledge and Kegan Paul, 1950), p.84

مجرّدة ومنقطعة الصلة بالعالم الفيزيائي»[1].

بل أقرّ (جورج كانتور) نفسه بصواب الاعتراض على **لاتناهي الزمان في الماضي**؛ فقد كتب رسالة سنة ١٨٨٧م، قال فيها: «عندما يُقال إنّه ليس بالإمكان تقديم حجة رياضية لبداية العالم، يكون التركيز على كلمة «رياضية»، ورأيي في هذا يتّفق مع رأي القديس (توما [الأكويني]). ومن جهة أخرى، بالإمكان بصورة بارعة بذل حجة تجمع الرياضيات والفلسفة فقط على أساس الحجة الصحيحة للاتناهي (transfinite)، وهنا أفارق القديس (توما) الذي دافع عن النظرة التي تقول: [القول: إنّ] العالم لم يوجد أزلًا [هو أمر] مُقررٌ بالإيمان فقط، ولا يمكن إثباته برهانيًّا»»[2].

الوجه الثالث: تُعَرَّف المجموعة اللانهائية بأنّها المجموعة التي يساوي كلّها جزءًا منها أو التي يساوي بعضها كلّها، وهذا التوصيف كاف ليبطل كلّ صلة للمجموعة النهائية بالواقع؛ إذ إنّ الواقع لا يقبل مساواة الجزء للكلّ. ولتبيين ذلك بإمكاننا أن نضرب مثلًا:

لنتصوّر ـ جدلًا ـ وجود مكتبة فيها كتب بيضاء لانهائية العدد، وكتب سوداء لانهائية العدد، وكتب خضراء لانهائية العدد، وكتب صفراء لانهائية العدد. وقصدنا بأنّها لانهائية هو أنّها لامتناهية في نفس اللحظة لا أنها تتزايد إلى اللانهاية. فهل بإمكاننا أن نتعامل واقعيًّا مع مجموع كتب هذه المكتبة دون الوقوع في محالات؟ أدنى نظر يخبرنا بامتناع ذلك:

- عدد الكتب البيضاء في هذه المكتبة لانهائي، وهو يساوي مجموع الكتب السوداء والخضراء والصفراء؛ إذ مجموعها لانهائي. وذاك محال؛ إذ الأشياء المضاعفة أكبر مما لم يتضاعف.

---

(١) Abraham Robinson, "The Metaphysics of the Calculus", in *Problems in the philosophy of mathematics,* Imre Lakatos, ed. (Amsterdam: North - Holland, 1967), p.39.

(٢) Georg Cantor in *Probleme des Unendlichen: Werk und Leben Georg Cantors* (Braunschweig: Vieweg, 1967), pp.125 - 126 (Quoted by Paul Copan, *That's Just Your Interpretation: Responding to Skeptics Who Challenge Your Faith* (Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2001), pp.204 - 205).

• عدد الكتب البيضاء يساوي مجموع الكتب البيضاء مع بقية الكتب في المكتبة. وذاك محال؛ إذ إنّ ما يُزاد عليه يتضخم.

• لو حذفنا الكتب البيضاء كلّها، فلن ينقص من المكتبة كتاب واحد؛ إذ سيبقى العدد لامتناهيًا، وذاك محال؛ إذ الحذف يقتضي النقص.

• لو رقمنا كلّ كتب المكتبة، بأن نضع على الأغلفة أعدادًا تصاعدية بدءًا من الكتاب الأوّل الذي نضع عليه رقم (١)، والكتاب الثاني رقم (٢)، والكتاب الثالث رقم (٣)...، فسنكون قد استنفدنا كلّ الأعداد (من ١ إلى اللاتناهي). وهنا سنواجه مشكلة إذا أردنا أن نضع كتابًا جديدًا؛ إذ إنّنا لن نجد له رقمًا نضعه عليه بعد أن استهلكنا كلّ الأرقام عند ترتيب المكتبة. وذاك محال؛ إذ إنّ الزيادة في الواقع تقتضي أنّ للمزيد مكانًا في الترتيب[1].

مختصر الكلام في نظرية (كانتور) و(اللاتناهي الفعلي): هو أنّ هذا اللاتناهي قد يكون مجديًا في عالم الرياضيات، لكنّه غير قابل للتطبيق واقعيًّا لاستلزامه محالات ومخالفات للبدهيات.

اعتراض٣ ـ العد إلى الخلف:

ذهب بعض فلاسفة الإلحاد، مثل (فكتور ستنجر)، إلى أنّ تطبيق وجود الأعداد السلبية (ـ ١، ـ ٢، ـ ٣...) على الواقع ممكن منطقيًّا، ولذلك فإننا إن تعاملنا مع الأحداث الماضية في الزمن السالف على أنها أعداد سلبية، فيمكننا عندها أن نقبل أن يكون الكون لامتناهيًا في الماضي بأن نبدأ باللحظة السالفة على أنها (إلا واحد)، والتي قبلها (إلا اثنين)، وهكذا إلى ما لا نهاية.

لا يملك الاعتراض السابق أن يحلّ المشكلة لأنّه حوّل الإشكال من العدّ من الأزل إلى العد إلى الأزل، وكلاهما متعذّر، فقد خرجنا من بداية غير مدركة إلى نهاية غير مدركة، وفي كلتا الحالتين يتعذّر العدّ!

(١) William Lane Craig, *The Kalam Cosmological Argument,* pp.82 - 83.

ثم إنّ الزمن هو زيادةٌ للحظات، وتراكم لها، ولا يعرف الحذف والتقهقر. فمن اليوم إلى الهجرة مثلًا (١٤٣٧ سنة هجرية) وليس (ناقص ١٤٣٧ سنة). ولا تعرف الطبيعة عددًا مثل: (ناقص خمس تفاحات)، ولا (ناقص خمسة كيلوغرامات)! ليس للعدد السلبي وجود إلا في التقدير الرياضي.

اعتراض٤ ـ فماذا عن لانهائية الإلٰه؟

هاجم (جوليان ولف) (Julian Wolfe) دعوى استحالة الزمن اللانهائي في الماضي، قائلًا: إنّ «السبب الأوّل» للكون ـ والذي يسمّيه المؤلّهة «الله» ـ كائن من الأزل، وبالتالي فقد مرّ عليه زمن لامتناه، وهذا اللاتناهي يثبت إمكان وجود (اللاتناهي الفعلي) في الزمن الماضي، وهو ما يبطل القول: إنّ زمن وجود العالم لامتناه لعدم إمكان اللاتناهي في الطبيعة[1].

يقوم اعتراض (ولف) ومن قال بقوله على افتراض أنّ إلٰه المسلمين (وعامة المؤلّهة) داخل في الزمان، فقد كان يجري عليه الزمان قبل الخلق وبعده، وهذا جهل أو مغالطة؛ إذ إنّ المعتقد الإسلامي هو أنّ الله ـ سبحانه ـ متعال على الزمان، وأنّ الزمان قد بدأ مع الخلق لأنه لا ينفك عن الخلق. وإذا كان الزمان قد بدأ مع الخلق، وكان الله ولا زمان يجري، فقد سقط الزعم أنّ الله ـ سبحانه ـ كائن من الزمن الماضي اللامتناهي، وسقط بذلك أنّ الله كائن منذ زمن لامتناه!

أزليّة الله ـ سبحانه ـ ليست في الزمان، وإنما هي لازمنية (timelessness)، فهو ـ سبحانه ـ متعال على الزمان (supra - temporal)، وهو ـ سبحانه ـ ليس في زمان لامتناه (Infinite time). هو أوّل بلا ابتداء، وليس أوّلًا بابتداءٍ زمنيّ.

بإمكاننا الآن أن نقرّر أنّ:

---

(١) Julian Wolfe, "Infinite Regress and the Cosmological Argument," in *International Journal for Philosophy of Religion* 2 (1971): 246 - 49.

١ ـ اللاتناهي الواقعي لا يمكن أن يوجد في العالم.

٢ ـ الكون الأزلي هو الكون الذي جرى عليه زمن لامتناه.

٣ ـ الكون ليس بأزلي.

٤ ـ الكون مخلوق.

٥ ـ الكون في حاجة إلى خالق متعال على الزمان.

ثانيًا: لانهائية ما هو حصيلة تراكم أفراد

الزمان كما عرّفه (ابن تيمية)، هو: «مقدار الحركة»[(١)]، وعرّفه (الغزالي) بأنّه: «مقدار الحركة موسوم من جهة التقدّم والتأخّر»[(٢)]، وبعبارة أخرى هو سلسلة تتابع الأحداث. فهو ليس كيانًا موضوعيًّا، وإنما هو مظهر تتابع الأحداث في الكون، ولذلك **فعلى الملاحدة إن أرادوا إثبات أزلية الزمان أن يثبتوا أنّ سلسلة أحداث الماضي المتعاقبة غير متناهية.**

ليس الزمان شيئًا قائمًا بذاته وإنما هو أثر لحركة الكون.

والعقل يقرر أنه لا يخلو حال هذه السلسلة من واحد من أمرين:

١ ـ هذه السلسلة لا نهاية لها من جهة الماضي، فوراء كلّ حدث حدثٌ، بلا نهاية.

٢ ـ لهذه السلسلة نهاية من الماضي تبدأ منها.

أشار (أبو حامد الغزالي) أنه إذا انتهت السلسلة من جهة الماضي فيلزم من ذلك أن من أنشأها متعال على الزمان، وأنّ نشأة السلسلة بخروج أوّل أحداثها من العدم إلى الوجود يحتاج إلى مرجّح؛ أي: من يرجّح جانب الوجود فيها على العدم.

وبالإمكان تلخيص حجّة الإمام (الغزالي) كالتالي:

١ ـ توجد ظواهر زمنية في الكون.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥ م، ٢١/ ٥.

(٢) الغزالي، معيار العلم، تحقيق: سليمان دنيا، مصر: دار المعارف، ١٩٦١م، ص٣٠٣.

٢ ـ سبب هذه الظواهرِ ظواهر زمنية أخرى.

٣ ـ لا يمكن لهذه الظواهر الزمنية أن تكون بلا نهاية في الماضي.

٤ ـ لا بد لهذه الظواهر أن تنتهي عند فعل الأزلي (أي: المتعالي على الحدوث)[١].

المقدمة الثالثة هي التي يدور حولها الجدل بين المؤمنين بالله والملاحدة، ولاختبارها علينا أن نتساءل: هل من الممكن أن تكون سلسلة الأحداث غير متناهية في الماضي؟

القول: إنه بالإمكان تكوين سلسلة من كلّ أحداث الماضي إلى الآن من خلال إضافة الأحداث المتعاقبة إلى بعضها، هو أشبه بالقول: إنّه بإمكاننا أن ننجح في العدّ من اللامتناهي السلبي إلى الآن مرورًا بـ(ـ ٢)، (ـ ١) ثم (٠)[٢]. وهذا محال في البداهة؛ إذ إننا إن لم نبدأ من لحظة واحدة ثابتة في الواقع فلن نصل إلى «الآن»، وهو ما يعبّر عنه بـ«استحالة عبور اللامتناهي» «The impossibility of traversing the infinite»، فإنّ **كلّ من يَعُدُّ إلى اللانهاية سيجد نفسه في كلّ لحظة بعيدًا عن اللانهاية نفس المسافة التي كانت تفصله عن الانتهاء منذ البدء**، مهما أخذه العدّ من وقت، ومهما كان سريعًا في الحساب؛ لأنّ ما يفصله عن اللانهاية هو عدد لانهائي، وإذا كان الزمن لانهائي الأحداث، فإنه لا يمكن بلوغ الحدث الآني انطلاقًا من الأزل لأنه مهما تكاثرت الأحداث فهي بعيدة عنّا مسافة لامتناهية من الأحداث.

إنّ عدًّا لا يبدأ من نقطة زمنية محددة لا يمكن أن يبلغ زمن «الآن». وسؤالنا البدهي لمن يزعم خلاف ما تقرّر هنا هو: فما الذي **فضّل** اليوم على البارحة أو السنة الماضية لنبلغ نقطة «الآن؟!».

(١) William L. Craig, *The Kalam Cosmological Argument*, p.45

(٢) Moreland and Craig, *Foundations for a Christian worldview* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2003), p.473.

بإمكاننا صياغة الدليل العقلي على تناهي الزمان في الماضي على الصورة التالية:

١ ـ سلسلة الأحداث الزمنية هي مجموعة تكونت بالإضافات المتتابعة.

٢ ـ المجموعة المكونة من إضافات متتابعة لا يمكن أن تكون لانهائية واقعيًّا.

٣ ـ إذن، لا يمكن لسلسلة الأحداث الزمنية أن تكون لانهائية واقعيًّا[١].

وهو ما عبّر عنه (أبو المعالي الجويني) في مؤلّفه «العقيدة النظامية» بقوله: «**ما يتسلسل لا يتحصّل**»[٢]، وهو تعبير مختصر ومحكم لما نحن بصدده. وقد مثّل لهذا الأمر بقول الرجل لمخاطبه: «لا أعطيك درهمًا إلّا وأعطيك قبله دينارًا، ولا أعطيك دينارًا إلّا وأعطيك قبله درهمًا، فلا يُتصوّر أن يعطى على حكم شرطه دينارًا ولا درهمًا»[٣].

إذا استقرّ في الذهن العلم بحقيقة عدم إمكان إقامة سلسلة من الأحداث تمتد إلى الأزل، لزم المسير إلى أنّ الزمن له بداية، وما كانت له بداية احتاج إلى مُبدئ.

ما يتسلسل لا يتحصّل.

ثم إنّ الزمان كما مرّ هو أثر عن تتالي مجموع أحداث، **ولا سبيل لدخول هذه الأحداث عالم الوجود إن لم يكن هناك حدث أوّل**، ليعقبه ثان وثالث، إلى اليوم. وفي ذلك يقول الإمام (ابن حزم): «لا سبيل إلى وجود ثانٍ إلا بعد أول، ولا إلى وجود ثالث إلا بعد ثان، وهكذا أبدًا. ولو لم يكن لأجزاء العالم أوّل لم يكن ثان. ولو لم يكن ثان لم يكن ثالث. ولو كان الأمر هكذا لم يكن عدد ولا معدود.

---

(١) Peter Williams, *A Faithful Guide to Philosophy* (Milton Keynes, England: Paternoster, 2013), p.93.

(٢) أبو المعالي الجويني، العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، القاهرة: المكتبة الأزهرية، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ص٢٠.

(٣) أبو المعالي الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق: محمد يوسف موسى وعلي عبد الحميد، مصر: مكتبة الخانجي، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م، ص٢٦ ـ ٢٧.

وفي وجودنا جميعَ الأشياء التي في العالم معدودةً إيجابٌ أنها ثالث بعد ثان، وثانٍ بعد أوّل. وفي صحّة هذا وجوبُ أول ضرورة. وقد نبّه الله تعالى على هذا الدليل... في قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾ [الجن: ٢٨].

وأيضًا فالآخر والأول من باب المضاف، فالآخر آخر للأوّل، والأوّل أول للآخر. ولو لم يكن أوّل لم يكن آخر.

ويومنا هذا بما فيه آخر لكل موجود قبله، إذ ما لم يأت بعد فليس شيئًا، ولا وقع عليه بعْدُ شيء من الأوصاف فله أوّلٌ ضرورة»[1].

ولعلنا نشبّه ذاك برجل اسمه (عمرو) دفع دينًا عليه لـ(زيد) بواسطة «شيك بنكي»، لكنّه اكتشف ألّا رصيد له في البنك، فاضطر (عمرو) أن يأخذ من (حذيفة) «شيكًا» ليغطي به عجزه، لكنّه اكتشف أنّ «شيك» (حذيفة) لا رصيد له، فاضطر (حذيفة) أن يأخذ «شيكًا» من (وليد) ليغطي به عجزه، غير أنه اكتشف بعد ذلك أنّ «شيك» (وليد) بلا رصيد.. وهكذا بلا نهاية، وهو ما يترتّب عليه ألا يأخذ (زيد) شيئًا من مدينِه لأنّ سلسلة «الشيكات» ليس لها أوّلٌ له رصيد.

أو هو أشبه بالجندي الذي يُطلب منه أن يطلق رصاصة على خصمه، لكنه يقول: «لن أفعل حتى استأذن من قائدي (علي)!» ولما يستأذن الجندي قائده (علي)، يخبره (علي) أنه يحتاج أن يستأذن قائده (عمر). ولما يستأذن (علي) من (عمر)، يخبره (عمر) أنه يحتاج أن يستأذن من (عكرمة)... وهكذا إلى ما لا نهاية. ويلزم من ذلك ألا يطلق الجندي رصاصته لتعلّق الإذن بعدد لامتناه من الأذونات ليس له أوّل.

وبالإمكان تلخيص هذا البرهان على الشكل التالي:

١ ـ اللحظة الحالية (ح) دخلت حيّز الوجود.

٢ ـ إذا كانت (ح) قد دخلت حيّز الوجود، فإنّ ذلك يعني أنّ جميع الأحداث التي أدّت في نهايتها إلى دخول (ح) حيّز الوجود هي أيضًا قد دخلت حيّز الوجود.

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١/ ٣١.

٣ ـ إذا كانت سلسلة الأحداث كلّها قد دخلت حيّز الوجود، فإنّ عدد هذه الأحداث محدود.

٤ ـ إذا كان عدد الأحداث محدودًا، فإنّ له ضرورة بداية (حدث أوّل).

٥ ـ حتى يكون الكون بلا بداية لا بدّ أن تكون سلسلة الأحداث غير محدودة، وبلا حدث أوّل.

٦ ـ ماضي الكون له بداية.

٧ ـ الكون في حاجة إلى مُبدئ.

إذا لم يكن للزمان أوّل، فلا يمكن أن يكون له وجود.

لم يستطع الملاحدة نقض هذا البرهان على تناهي الزمان، ولذلك قال الفيلسوف الملحد (ويليام رو) (William Rowe): «إنّه من الصعب أن نظهر بدقة الخطأ في هذا الاستدلال!»[١].

اعتراض: اللاتناهي الرياضي:

قد يُعترض علينا هنا بوجود «اللاتناهي» في عالم الرياضيات، والذي هو حصيلة زيادة ١+١+١+١... وبالتالي إمكان تحصيل «اللامتناهي» بزيادة أفراد المجموعة اللامتناهية. وهذا اعتراض فاسد لأنّ هذا اللاتناهي ذهني غير واقعي، كما أنه لحظيّ غير زمني، فهو ليس حصيلة زيادات لامتناهية، وإنّما هو حصيلة وجود أفراد لامتناهين في نفس الآن، وهو أمر قد يسمح به التصوّر النظري الرياضي لكنّه **يخالف حقيقة تدفق الزمن، والمتمثّل في تراكم الساعات بصورة متتالية، غير لحظيّة**.

إنّ طبيعة الزيادة **تقتضي** أنّ المحصّلة في كلّ حين متناهية[٢]

(١) William Rowe, *The Cosmological Argument* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1975), p.122.

(٢) Chad V. Meister *et al. eds*. *Debating Christian Theism* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2013), pp.11 - 12.

(٢)

دليل الإمكان والوجوب

تقوم شبهة «. . . فمن خلق الله؟» ردًّا على الدليل الكوسمولوجي على الظنّ أنّ كلّ صور الدليل الكوسمولوجي تنطلق أو حتى تفترض أنّ الكون مخلوق، وذاك ظن مخالف للحقيقة؛ إذ إنّ جلّ صور هذا الدليل لا تهتم ابتداءً ببيان أنّ الكون حادث، كصورة هذا الدليل عند (أرسطو)، والأفلاطونية الحديثة، و(توما الأكويني). . . والعجيب أنّ جلّ الملاحدة الذين كتبوا في الرد على الدليل الكوسمولوجي لا يعلمون ذلك حتّى إنّ **(داوكنز) قد زعم في كتابه «وهم الإلٰه» أنّ (توما الأكويني) يقيم دليله الكوسمولوجي على أنّ الكون حادث**[١]، رغم شهرة مذهب (الأكويني) في أنه يرى تعذّر إقامة البرهان على حدوث العالم، والخلاف بينه وبين معاصره اللاهوتي والفيلسوف الإيطالي (بونافنتورا) (Bonaventura) في هذا مشهور! ويبدو أن هذه السطحية في معرفة الدليل الكوسمولوجي عند (فرسان الإلحاد الجديد) هي سبب فحش أخطاء الملاحدة في الرد عليه![٢].

يعتبر (دليل الإمكان والوجوب) من أشهر صور الدليل الكوسمولوجي في القرون الوسطى، وهو الدليل المعروف في الأدبيات الإنجليزية بـ(The Contingency Argument). وقد قال فيه (ويليام لين كريغ): «**بإمكاننا أن ننسب إلى الفلاسفة العرب** [= المسلمين] **أصل الدليل الكوسمولوجي**

---

(١) Richard Dawkins, *The God Delusion*, p.77

(٢) انظر:

Edward Feser, "The New Atheists and the Cosmological Argument" in *Midwest Studies in Philosophy,* Volume 37, Issue 1, September 2013, pp.154 - 177.

جهل رؤوس (الإلحاد الجديد) بالأديان التي ينتقدونها أصبح مملًا جدًّا، وعصيًّا على العلاج، ومن ذلك تصرح (هتشنز) ـ المتوفّى منذ بضع سنوات ـ في لقاء تلفزيوني أنّ خطورة الإسلام تتمثّل في أنه الدين الوحيد الذي يزعم أنه خاتمة الرسالات. وهذه دعوى عجيبة؛ إذ إنّ جلّ الأديان اليوم تقدّم نفس الدعوى، ومنها النصرانية التي تقرّر أنّ المسيح هو الطريق الوحيد للخلاص.

الحديث القائم على الإمكان، إذ رغم أنّ أرسطو قد ألمح إليه وسمّى المتكلّمون العالم ممكنًا بسبب ميتافيزيقاهم الذريّة[١]، إلا أنّ الفلاسفة العرب هم الذين بيّنوا الفرق بين الواجب والممكن على أساس فارق الماهية/ الوجود، ولذلك يستحقون أن ينسب إليهم فضل نشأة هذه الصيغة المهمة للدليل الكوسمولوجي»[٢].

ينطلق دليل الإمكان والوجوب من سؤال بَدئيّ بدهيّ طرحه (لايبنتس) (Leibniz)، وهو: «لماذا يُعتبر وجود شيء أحرى من العدم؟»، أو بعبارة أخرى: ما الذي جعل وجود العالم بأشيائه قائمًا، ولم يكن العدم المحض هو الواقع؟ ويقوم هذا الدليل على حقيقة أنّ الوجود كلّه لا يخرج عن ثلاث أحوال:

١ ـ واجب الوجود لذاته، وهو ما كان امتناع وجوده محالًا؛ لأنّه يترتّب على عدمه محال.

٢ ـ ممتنع الوجود لذاته، وهو ما كان وجوده محالًا؛ إذ يترتّب على وجوده محال.

٣ ـ ممكن الوجود والعدم.

لا يدخل في الوجود الحقيقي إذن غير «واجب الوجود» و«الممكن»، أمّا «ممتنع الوجود» فلا مكان له في الوجود الفعلي.

يضطرّ العقل أن يبحث للممكن عن سبب لوجوده؛ إذ يتعادل وجوده وعدمه ضرورة، فليس لوجوده فضل على عدمه، ولا لعدمه فضل على وجوده، ولذلك يحتاج إلى ما يرجّح وجوده على عدمه، وعلى هذا المرجّح أن يكون من خارجه لأنّ ذاته قاصرة عن تفسير وجوده.

---

(١) ظهر المذهب الذري عند اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وهو يرى أنّ الطبيعة تتكوّن من مبدأين، الفراغ والذرات، وأنّ الذرّات محاطة بالفراغ، وأنها على أشكال مختلفة وغير قابلة للانقسام، ومن تصادمها في ما بينها تتكون أشياء العالم.

(٢) William L. Craig, *The Kalam Cosmological Argument*, p.17.

قد يكون سبب ترجيح وجود الممكن على عدمه ممكنٌ آخر، ويكون للممكن الآخر سبب لوجوده هو ممكن آخر، غير أنّ سلسلة المرجّحات يجب أن تنتهي لسبب أوّل رجّح فيها جانب الوجود على العدم، على أن يكون هذا السبب واجب الوجود، إذ إنّ هذه السلسلة لا بدّ أن تنتهي بمن وجوبه واجبٌ عقلًا؛ ولولا ذلك لما كان لتميّز وجود أيّ شيء معنى، وكان العدم والوجود سواء. ولذلك قال (الأصفهاني) ـ المتكلّم ـ عن وجود الله: «**والدليل على وجوده الممكناتُ، لاستحالة وجودها بنفسها، واستحالة وجودها بممكن آخر ضرورة استغناء المعلول بعلته عن كل ما سواه، وافتقار الممكن**». وأقرّه شيخ الإسلام في شرحه للعقيدة الأصفهانية[1].

وقد نستغني عن التعرّض لقضيّة التسلسل وعدم إمكانه، بأن نقول: إنّ العقل يمنع أن يكون سبب وجود الكون، من ضمن الكون؛ لأنّ الكون هو مجموع ممكنات، وليس فيه شيء واجب الوجود؛ إذ **للعقل أن يتصوّر وجود أيّ شيء في الكون أو عدمه،** وهذا ما يقتضي أن يكون واجب الوجود من خارج المادة والزمن، وليس من عالم الآثار، وذاك الذي يسمّيه المؤلّهة «بالله».

وبالإمكان صياغة هذه الحجة على الصورة التالية:

١ ـ كلّ ما في كوننا ممكن الوجود، ولا يمتنع عقلًا ألّا يوجد.

٢ ـ كلّ ما كان حاله كما سبق، فهو محتاج إلى علّة ترجّح جانب وجوده على عدمه.

٣ ـ لا يمكن لسلسلة العلل والآثار أن تستمر في الماضي إلى ما لا نهاية.

٤ ـ لا بدّ لهذه السلسلة أن تنتهي عند من/ما لا علّة لوجوده.

٥ ـ تنتهي السلسلة عند الأوّل، الذي يفسَّر وجوده بطبيعة امتناع عدمه عقلًا، وهو: واجب الوجود.

---

(١) ابن تيمية، شرح العقيدة الأصفهانية، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، ص١٨.

دلالة برهان الواجب والممكن في الردّ على شبهة «إذا كان لا بدّ لكلّ شيء من خالق، فمن خلق الله؟»، هي أنّ وجود الله ثابت بدلالة ذاته على وجوب وجوده، وليس وجوده قائمًا أصلًا على القول بحاجة كلّ شيء [مُحدث] لخالق، وهو ما يُبطل الاعتراض الإلحادي من أصله لأننا لسنا هنا في حاجة إلى أن نثبت أنّ الكون أزلي أو حادث، فسواء كان الكون مخلوقًا أم أزليًّا، فوجوده بحاجة إلى علّة من خارجه، وهي ذات الربّ وإرادته. وقد استدلّ كثير من الفلاسفة القدماء القائلين بأزليّة المادة بدليل الإمكان لإثبات وجود الله، ككثير من فلاسفة اليونان، وكطائفة ممن يسمّون بفلاسفة الإسلام، كـ(ابن سينا)[1] و(الفارابي)...

لا يملك الكون أن يفسّر سبب وجوده من نفسه؛ إذ بالإمكان تصوّر عدمه، أو وجوده على صورة أخرى، ويبقى لذلك التساؤل: «لماذا وُجد الكون، وكان على هذه الصورة؟» قائمًا.

(١) Herbert A. Davidson, *Proofs for Eternity, Creation, and the Existence of God in Medieval Islamic and Jewish Philosophy* (New York: Oxford University Press, 1987), pp.289 - 293.

خلق الزمان في ميزان العلم

لم يكن الدليل على وجود الله أبدًا أوضح ولا أقوى مما هو الآن.

الفيلسوف روبرت س. كونز،
«العلم والإيمان بالله: توافق أم تصارع؟»، ص ٧٣

يتّفق المؤلّهة وعامة الملاحدة أنّه يلزم من الإقرار بخلق الكون، الإقرار بوجود الله، ولذلك كان الملاحدة طوال تاريخهم يرون أنّ دعوى أزليّة المادة هي من أقوى حججهم، وهو مذهب عامة الفلاسفة وعلماء الفلك طوال تاريخ الفلسفة وعلم الفلك حتى بداية القرن العشرين، إذا استثنينا علم الفلك في العالم الإسلامي مما لم يتأثّر منه بالفلسفة اليونانيّة.

مع إطلالة القرن العشرين، انقلب الحال، وصار العلم المادي إلى صفّ القائلين بأنّ الكون حادث: وُجد بعد أن لم يكن. وقد كان من آثار ذلك:

١ ـ تأكيد الدليل الفلسفي على خلق الزمان والمكان.

٢ ـ إحراج الملاحدة، وهو ما جعل رؤوسهم يتخبطون للخروج من هذه الورطة.

تولّى علم الكوسمولوجيا إبطال دعوى أزلية المادة والزمان، وهو علم يُعنى بأصل الكون وتطوّره. ومما يتصل بالبحث في أصلهِ، دراسة بدايته، إن كانت له بداية. وهو علم لا ينطلق من مقررات دينية سالفة، وإنّما يبدأ من المادة وينتهي إليها. ومن نتائج هذا العلم الإفادة في إجابة عدد من الأسئلة

العقدية الكبرى، كحاجة الكون إلى خالق أو استغنائه بنفسه عن ذلك.

رأي علماء الكوسمولوجيا في خلق الكون:

يكاد يجمع علماء الكوسمولوجيا على أنّه منذ ١٣,٧/١٣,٨ بليون سنة[١] حصلت فرقعة[٢] عظيمة، سمّيت بـ(الانفجار العظيم). لم ينشأ هذا الانفجار في مكان ولا زمان، وإنما نشأ المكان والزمان بسبب هذا الانفجار، فالانفجار ظهر به المكان والزمان. لم يكن هناك شيء قبل هذا الانفجار، وإنما به وُجد الشيء. أمّا المكان فخرج إلى حيّز الوجود، وبدأ في التمدّد، وأمّا الزمان فبدأت ساعاته في التتابع.

ظهرت أولى النظريات العلميّة التي تقرّر أنّ للكون بداية وعمرًا محددًا مع دراسات الديناميكا الحرارية في القرن التاسع عشر، والتي تقرّر أنّه يلزم من أزليّة الكون أن يكون قد وصل إلى مرحلة التوازن الحراري بما يمنع حدوث أي تفاعل حراري جديد، لتمتنع بذلك الحياة، وهو خلاف المشهود في الأرض وفي الكون.

اتّجه علماء الكون بعد ذلك إلى النظر في تكوين نموذج كوسمولوجي عام، فقدّم (أنشتاين) سنة ١٩١٧م نموذجه القائم على نظريّته في النسبيّة العامة، غير أنّه اضطرّ إلى أن يعدّل في معادلاته لتتوافق مع نظريته في (الكون الساكن) (Static Universe) التي تقرّر أزليّة الكون. وقد اكتشف عالم الأرصاد الجوية الروسي (ألكسندر فريدمان) (Alexander Friedmann) سنة ١٩٢٢م خطأً حسابيًّا بسيطًا في معادلة أنشتاين، وبتصحيحه تنتهي معادلة (أنشتاين) إلى كون غير مستقر[٣].

---

(١) ١٣,٧ بليون سنة هو قول عامة الكوسمولوجيين، وهو تقدير (وكالة ناسا) سنة ٢٠١٢م، و١٣,٨ بليون سنة هو ما قررته (الوكالة الأوروبية لأبحاث الفضاء) بعد تحليل المعلومات التي جمعها (مرصد بلانك) سنة ٢٠١٣م.

(٢) عبارة «فرقعة» أو «انفجار» فيها تجوّز لأنّه لا يمكن رؤية هذا الحدث من الخارج؛ إذ هو المكان ذاته متوسعًا بعد ذلك.

(٣) Alexandre Friedmann, ''Uber die Krummung des Raumes,'' in *Zeitschrift Für Physik,* 10. (1922), pp. 377-386.

وقد سلف من (فستو سلفر) (Vesto Slipher) تصريحه سنة ١٩١٤م في اجتماع (للاتحاد الفلكي الأمريكي) اكتشافه «صدفة» أنّ عددًا من السدم يبتعد عن الأرض بسرعة عالية جدًّا[١]. لم يلق المستمعون عندها لكلام (سلفر) بالًا، غير أنّ شابًا اسمه (أدون هابل) (Edwin Hubble) اهتم بمعرفة سرّ هذه الحركة الفلكية غير المعروفة. وقد تمكّن من تحقيق حلمه من خلال المرصد الذي بني حديثًا على جبل (ويلسن)، فقد استطاع أن يصوّر أحد السدم، وتمكّن بذلك من التأكّد من صدق ملاحظة (سلفر)، غير أنّه اكتشف أنّ المجرّات هي أيضًا تبتعد عن الأرض.

لم يقف بحث (هابل) عند ذاك الحدّ وإنّما أعلن سنة ١٩٢٩م اكتشافه ما يعرف (بقانون الانزياحات الحمراء) (law of red shifts)، وكان هذا الاكتشاف أحد التوقعات الأساسية لنموذج التوسّع الكوني. وهو يتلخّص في أنّ السرعة التي تبتعد بها مجرة من المجرات عنّا تتناسب تناسبًا طرديًّا مع المسافة بينها وبين الأرض[٢].

في نفس تلك الفترة؛ أي: العقد الثالث من القرن العشرين، قدّم العالم البلجيكي (جورج لوماتر) (Georges Lemaître) فرضية بداية الكون المتوسّع **من خلال انفجار**، وقد سمّاها (نظرية الذرة الأوّلية) (Théorie de l'Atome Primitif)، غير أنها اشتهرت باسم (الانفجار العظيم) تبعًا للاسم الذي أطلقه عليها (فريد هويل) (Fred Hoyle) سنة ١٩٤٩م. وكان قد اكتشف توسّع الكون قبل (هابل)، ونشر في ذلك مقالًا سنة ١٩٢٧م في دورية «*Annales de la Société* scientifique de Bruxelles». كما توقّع أن تدلّ الأشعة الكونيّة على تاريخ الكون في أوّله. وقد افترض أنّ الكون المتوسّع كان منقبضًا في بدايته في نقطة واحدة، انفجر منها بعد ذلك، وكانت حرارة الكون في بدايته عالية جدًّا.

---

(١) نشر (سلفر) مقدمة كشفه سنة ١٩١٢م:

Lowell Observatory Bulletin, pp.2.56 - 2.57.

(٢) Stephen Hawking, *A Brief History of Time* (Toronto; New York: Bantam Books, 1988), pp.38 ff.

دلّت سابقًا معادلات (أينشتاين) وحلول (ألكسندر فريدمان) أنّ الكون في بدايته كان أشبه بالفرن الساخن جدًّا حيث تبلغ درجته ملايين الملايين، ثمّ بدأ في التبرّد التدريجي بعد ذلك. وقد قام الفيزيائي الروسي (جورج جاموف) (George Gamow) بوضع سيناريو لتاريخ الكون منذ بدايته انطلاقًا من ذلك[١]، وكانت **المفاجأة الكبرى هي اكتشاف (إشعاع الخلفية الكونية الميكروي)** (cosmic microwave background radiation) سنة ١٩٦٤م، بما أثبت صدق توقّعات (جاموف) الذي تنبّأ نموذجه التاريخي بوجوده[٢]. وقد نال (أرنو بنزياس) (Arno Penzias) و(روبرت ويلسن) (Robert Wilson) بسبب هذا الاكتشاف جائزة نوبل سنة ١٩٧٨م.

وقد تأكّد هذا الكشف مرّة أخرى بتحليل نتائج مسبار (مستكشف الخلفية الكونية) (COBE) = (Cosmic Background Explorer)، وقد أشرف على هذا التحليل كل من (جورج سموت) (George Smoot) و(جون ماثر) (John Mather)، ونالا لأجل ذلك جائزة نوبل سنة ٢٠٠٦م[٣]. ويعتبر هذا المسبار علامة على تطوّر دقّة الأبحاث الكونيّة، وقد كشف ـ بدقّة أعلى ـ عن انتشار إشعاع الخلفية الكونية في الكون.

لقد كان هذا الاكتشاف مفاجأة للعقل العلمي وصادمًا للعقل الفلسفي الغربي، ولذلك قال عالم الفيزياء النظرية (جون ويلر) (John Wheeler) كلمته الشهيرة: «من بين كلّ النبوءات الكبيرة التي قدّمها العلم على مدى قرون، هل كانت هناك واحدة أعظم من هذه: أن تتنبّأ، وأن تصيب في تنبّئك، وأن يكون

---

(١) George Gamow, "Expanding Universe and the Origin of the Elements," in *Physical Review,* 70 (1946), pp.572-573; *The Creation of the Universe* (New York: Viking Press, 1961), p.50.

(٢) Wilson and Penzias, "Isotropy of Cosmic Background Radiation at 4080 Megahertz", in *Science,* 1967, 156 (3778): 1100-1101.

(٣) قال (سموت) عبارته الشهيرة: «ما وجدناه هو برهان لميلاد الكون»

"What we have found is evidence for the birth of the universe"

<http://www.nytimes.com/2006/10/04/science/04nobel.html?_r=0>.

تنبؤك ضد كلّ التوقعات لظاهرة رائعة مثل توسّع الكون؟!»[١].

أدى الكشف عن أدلّة علمية لحدوث الكون، خاصة من خلال تمدّده، إلى ظهور محاولات في العقد الثالث من القرن العشرين لتجاوز مشكلة البداية، غير أنه من بين كلّ النظريات المطروحة، لم تنل غير (نظرية الحال الثابتة) (The Steady State Theory) لـ(فريد هويل) تقدير العلماء، وهي تقرر أنّه مع تمدد الكون تنشأ مادة جديدة بين الكواكب المتباعدة. وتمثل هذه النظرية امتدادًا لفكر القرن التاسع عشر القاضي بأزليّة الكون.

ومع نهاية النصف الأول من القرن العشرين لم يبق من النظريات الجادة المتنافسة غير نظرية (هويل) و(نظرية الانفجار العظيم) التي تقرّر أنّه يلزم من اعتقاد تمدّد الكون في المستقبل أنّ أجزاء الكون كانت أقرب إلى بعضها كلّما رجعنا إلى الخلف في الزمن، حتى يعود كلّ شيء إلى (مفردة) (singularity) منها تفجّر المكان.

استمرّ الخلاف بين النظريتين فترة من الزمن، رغم أنّ (نظرية الحال الثابتة)، لم تقدّم ـ كما يقول مؤرّخ العلوم (أس.ل. جاكي) (S. L. Jaki) ـ دليلًا تجريبيًّا واحدًا[٢]، ولم توهَب روح الحياة والمدافعة إلّا بسبب خصومتها للتفسير الديني للنظرية الأشهر[٣]، غير أنّ الاكتشافات الكونية أثبتت صحّة نبوءات (نظرية الانفجار العظيم)، وكان كشف وجود (إشعاع الخلفية الكونية الميكروي) سنة ١٩٦٤م أقوى دعم لـ(نظرية الانفجار).

لم تستطع (نظرية الحال الثابتة) أن تثبت بعد تقدّم (نظرية الانفجار العظيم) أيضًا بسبب مشاكلها الداخلية، فبالإضافة إلى فقدانها الأدلة الإيجابية لصحَّتها، تقف الأدلة العلمية ضدّها، ومنها:

---

(١) John A. Wheeler, "Beyond the Hole," in *Some Strangeness in the Proportion*, ed. Harry Woolf (Reading, Mass.: Addison-Wesley, 1980), p.354.

(٢) Stanley L. Jaki, *Science and Creation: from eternal cycles to an oscillating universe* (New York: Science History Publications, 1974), p.347 (never secured "a single piece of experimental verification").

(٣) المصدر السابق.

• عدم وجود مجرّات قديمة جدًّا في محيط مجرّتنا، ينفي أن يكون الكون أزليًّا.

• عدم وجود مجرات صغيرة جدًّا في محيط مجرتنا، ينفي الخلق العفوي المستمر.

• ندرة الانزياحات الحمراء وراء z = ٥ تقتضي وجود حدّ حقيقي للكون أدنى من الحد البصري المتوقّع من كون لانهائي ثابت.

• تفتقد النظرية لآلية مادية (مثل الانفجار الأوّلي) لقيادة التوسّع المبصَر للكون.

• (إشعاع الخلفية الكونية الميكروي) المدرَك ـ والذي يتناسق تمامًا مع تصوّر تبريد الكرة النارية البدائية ـ يتحدى قصّة الكون كما تقدّمها «نظرية الحال الثابتة».

• عدم الانتظام الهائل (enormous entropy) للكون لا معنى له في (نظرية الحال الثابتة).

• وفرة (الهليوم) في الكون توافق ما تنبأت به (نظرية الانفجار العظيم) لا (نظرية الحال الثابتة).

• لا تقدّم (نظرية الحال الثابتة) تفسيرًا للوفرة المعروفة (للديوتريوم) و(الهليوم الخفيف) و(الليثيوم)، وفي المقابل تقبل هذه الظاهرة التفسير السلس في سيناريو (الانفجار العظيم) الحار[١].

لقد أدّى ظهور فساد (نظرية الحال الثابتة)، وعجز مخزونها النبوئي، إلى أن ينصرف عامة أنصارها عنها إلى (نظرية الانفجار العظيم) التي نجحت في ما فشلت فيه النظرية الأخرى، ومن هؤلاء (أرنو بنزياس) القائل: «لقد تبيّن أنّ (نظرية الحال الثابتة) قبيحة جدًّا **حتّى إنّ الناس لفظوها**. كان الطريق الأيسر لمطابقة الملاحظات مع العدد الأقل من المعلمات (parameters) هو الطريق

---

(١) Hugh Ross, *The Fingerprint of God: Recent scientific Discoveries Reveal the Unmistakable Identity of the Creator* (Orange, CA: Promise Publishing, 1991), p.95

الذي فيه أنّ الكون خُلق من لاشيء، في لحظة، وبقي يتّسع»[1].

أدلة نظرية الانفجار العظيم:

كان رأي علماء الفلك حتى نهاية العقد الثاني من القرن العشرين أنّ الكون أزلي بلا بداية، غير أنّ صعود نجم (نظرية الانفجار) قلب الرأي العام العلمي إلى نقيضه بعد تراكم الأدلة الفيزيائية والرياضية على الانفجار الخلقي الأوّل. لقد انتهى العلماء بعد جهد وصبر إلى ما قرّره عامة اللاهوتيين قبل ذلك بقرون، وهو الأمر الذي صوّره عالم الفيزياء والفلك ورأس علماء وكالة (ناسا) (NASA) ـ اللاأدري ـ (روبرت جسترو) (Robert Jastrow) بقوله في موقف تخيّلي ظريف في ختام كتابه الماتع «الله والفلكيون»: «**تنتهي القصّة بالنسبة للعالِم (scientist) الذي عاش بإيمانه بقوّة العقل، كمنامٍ سيئ. لقد تسلّق جبال الجهل، ويكاد يقهر أعلى قمّة، وبينما هو يرفع نفسه إلى الصخرة الأخيرة، يُفاجأ بتهنئة من جَمْع من اللاهوتيين الجالسين هناك منذ قرون**»[2].

عرض عالم الفيزياء الفلكية الكندي/الأمريكي (هيو روس) (Hugh Ross) ثلاثين دليلًا علميًّا على حدوث (الانفجار العظيم) الذي انبثق منه المكان والزمان، وهي دلائل منسّقة على طريقة جيّدة، وموثّقة تفصيلًا من دراسات المتخصصين أصحاب الكشوف والدراسات، ولذلك ارتأينا نقل ملخص معظمها في ما يأتي:

١ ـ وجود إشعاع الخلفية الكونية وحرارته:

قدّر (رالف ألفر) (Ralph Alpher) و(روبرت هرمان) (Robert Herman) سنة ١٩٤٨م أنّ تبرّد الكون بعد (الانفجار العظيم) سينتج أشعة كونية بحرارة تقارب ٥ كلفن (F° ٤٥٥ ـ) وقد اكتشفت هذه الأشعة سنة ١٩٦٥م وكانت حرارتها تقريبًا ٣ كلفن (F° ٤٥٧ ـ)، وهي قريبة جدًّا من النسبة المتنبَّأ بها.

(١) Quoted by Fred Heeren, *Show Me God* (Wheeling, IL: Day Star Publications, 1997), p.156.

(٢) Robert Jastrow, *God and the Astronomers* (Toronto: George J. McLeod, 1992,), p.116

٢ ـ طابع الجسم الأسود لإشعاع الخلفية الكونية:

الاختلافات بين طيف الإشعاع الخلفي المتنبّأ به والمكتشف لاحقًا بلغ أقلّ من ٠,٠٣٪ على مدى طول الموجات المدرَكة.

٣ ـ نسبة التبريد لإشعاع الخلفية الكونية:

تتنبّأ (نظرية الانفجار العظيم) أنّ الإشعاع الكوني كلّما كان أطول عمرًا كلّما كان أبرد، وكلّما عدنا إلى الماضي من خلال قياس الإشعاعات الأبعد، كلّما ارتفعت حرارة الإشعاع، وهو ما أثبته العمل المرصدي.

٤ ـ التماثل الحراري لإشعاع الخلفية الكونية:

الاختلاف الحراري بين الإشعاعات الكونية من مختلف الجهات لا يتفاوت إلّا بقدر جزء واحد من عشرة آلاف، وهو ما لا يمكن أن يفسّر إلّا بأنّ الإشعاعات الخلفية تعود إلى حدث خلق كوني أوّلي حار جدًّا.

٥ ـ نسبة الفوتونات مقارنة بالبريونات في الكون:

نسبة (الفوتونات) مقارنة بـنسبة (البريونات) ـ البروتونات والنوترونات ـ في الكون تتجاوز ١٠٠ مليون للواحد، وهذا يثبت أنّ الكون في حال أنتروبية عالية جدًّا. ولا تفسير لذلك إلّا أنّ الكون كلّه قد تفجّر بسرعة من حال حار وكثيف جدًّا.

٦ ـ تموجات الحرارة في إشعاع الخلفية الكونية:

لا بدّ أن تبلغ التموّجات الحرارية في خريطة إشعاع الخلفية الكونية درجة تقارب الواحد من عشرة آلاف حتى تتكون المجرّات وعناقيد المجرّات من انفجار خلقي عظيم. وقد تمّ رصد هذه التموّجات بالنسبة المتنبأ بها.

٧ ـ قوة طيف التموجات الحرارية في إشعاع الخلفية الكونية:

أكّدت تجربة (بوميرانج) في أبريل ٢٠٠٠م درجات الطيف الحراري لإشعاع الخلفية الكونية المتنبأ بها.

٨ ـ معدّل التوسّع الكوني:

أظهر قياس سرعة المجرات أنّ توسّعًا كونيًّا قد بدأ في زمن قريب من الزمن المحدّد للانفجار العظيم.

٩ ـ المدارات المستقرّة للنجوم والكواكب:

المدارات المستقرة للكواكب حول النجوم، وللنجوم حول نواة المجرّة، لا يمكن أن تثبت ماديًّا إلّا بعد توسّعات كبيرة وسريعة ثلاثية الأبعاد في المكان.

١٠ ـ وجود الحياة والإنسان:

لا بدّ من نظام شمسي مستقر لوجود الحياة والإنسان، وهو ما لا يمكن أن يكون في غير سيناريو الانفجار والتبريد التدرّجي الذي تنبأت به (نظرية الانفجار العظيم).

١١ ـ وفرة الهليوم في الكون:

يتنبّأ نموذج (الانفجار العظيم) أن يتحوّل ربع (الهيدروجين) في الكون إلى (هليوم) في الدقائق الأربع الأولى للخلق. الاحتراق النجمي هو المصدر الوحيد الآخر (للهليوم). وقد قاس العلماء نسبة كثافة (الهليوم) في السحب الغازية والمجرات التي ليس فيها البتة نجوم تحترق أو فيها فقط قليل من ذلك، وحدّدوا بذلك نسبة الهليوم الأوّلية، ووجدوا أنّها قريبة جدًّا مما تنبّأت به النظريّة.

١٢ ـ وفرة الديوتريوم في الكون:

(الانفجار العظيم) هو فقط القادر على إنتاج (الديوتريوم) ـ الهيدروجين الثقيل ـ، أمّا النجوم فتدمّره. وقد أثبتت قياسات (الديوتريوم) في السحب الغازية والمجرات التي ليس فيها البتة نجوم تحترق أو فيها فقط قليل من ذلك، أنّه يلزمنا أن نقرّ أنّ الكون يعود في أصله إلى انفجار أوّل.

١٣ ـ وفرة اللثيوم في الكون:

نفس التعليق السابق.

١٤ ـ حجج النسبية العامة:

أثبتت نظرية النسبية العامة صحّتها مرارًا وتكرارًا، **ولا تصحّ معادلاتها إلّا في كون له بداية**، وله طبيعة تمدديّة.

١٥ ـ مبرهنة الزمكان للنسبية العامة:

أثبتت مبرهنة رياضية قدمها كلّ من (ستيفن هاوكنغ) و(روجر بنروز) سنة ١٩٧٠م أنّه إذا كان للكون كتلة، وإذا كانت ديناميكيّته محكومة بقانون النسبية العامة، فلا بدّ عندها أن يكون متناهيًّا في الماضي(١).

١٦ ـ قياسات كثافة الطاقة في الفضاء:

طوّر كلّ من (أنشتاين) و(إدنجتون) نموذجًا كونيًّا دون أن يتضمن انفجارًا عظيمًا وذلك بإثبات قوة مضادة للجاذبية سمّاها أنشتاين (الثابت الكوني)، وأثبت لها قدرًا معينًا. تراجع (أنشتاين) بعد ذلك عن نظريّته، غير أنّ علماء أثبتوا بعد عقود وجود هذا الثابت، وتدلّ قيمته التي وصلوا إليها على أنّ للكون بداية.

١٧ ـ الأعمار النجمية:

وفقًا لنظرية الانفجار الكبير، ستتكون أنواع مختلفة من النجوم في حقب مختلفة بعد الخلق. وتُخبر الألوان ودرجات حرارة أسطح النجوم عن زمن بداية احتراقها. أعمار هذه النجوم تتوافق مع (نظرية الانفجار العظيم)، ومع بقية قياسات الزمن إلى بداية الانفجار.

١٨ ـ أعمار المجرّات:

طبق (نظرية الانفجار العظيم)، لا بدّ أن تتكوّن المجرّات في بدايات الكون، ضمن البلايين الأربعة الأولى. وهو ما يوافق قياسات العلماء.

١٩ ـ انخفاض في ازدحام المجرّات:

تتنبّأ (نظرية الانفجار العظيم) أنّ المجرّات تتباعد عن بعضها البعض

---

(١) Stephen Hawking and Roger Penrose, "Singularities of Gravitational Collapse and Cosmology," in *Proceedings of the Royal Society of London,* Series A, 314 (1970), pp. 529-548.

على مرّ الزمن. وقد أثبتت صور مرصد هابل أنّه كلّما نظرنا بعيدًا إلى الماضي، كلّما كانت المجرّات أكثر تقاربًا. وعند النظر في الثلث الأول من عمر الكون نلاحظ أنّ المجرّات كانت شديدة التقارب، وكأنّها حرفيًّا تفكّ أذرعها الحلزونية عن بعض.

٢٠ ـ صور تاريخ الكون:

تتنبّأ نظرية الانفجار العظيم أنّ جميع المجرات قد نشأت في أوقات متقاربة، ولما كانت المجرات تغيّر شكلها بصورة دراماتيكية مع تقدّمها في العمر، كان شكل أقدمها غير شكل أحدثها، وهو ما أثبتته صور المرصد هابل.

٢١ ـ نسبة المادة العادية مقارنة بالمادة الأجنبية:

يتنبّأ نموذج (الانفجار العظيم) أنه لتتكون المجرات والنجوم وتتطوّر حتى توجد منطقة صالحة للحياة الفيزيائية، لا بد أن تتحوّل في الكون نسبة من المادة الأجنبية (التي لا تتفاعل بصورة جيدة مع الإشعاعات) إلى مادة عادية (تتفاعل بصورة جيدة مع الإشعاعات) بمعدّل خمسة أو ستة إلى واحد، وهو ما أثبتته القياسات الحديثة.

٢٢ ـ وفرة البرليوم والبورون في النجوم الهرمة:

كشف الفلكيون أنّ نسبة (البرليوم) و(البورون) في الكون توافق ما تنبأت به (نظرية الانفجار العظيم).

٢٣ ـ كثافة المجموعات النجمية الأولى والثانية والثالثة:

يتنبّأ (الانفجار العظيم) أنّه مع توسّع الكون ستظهر ثلاث مجموعات نجمية مختلفة، وأنها في هذه المرحلة العمرية لا بدّ أن تحمل صفات معينة، وهو ما أثبته البحث العلمي.

٢٤ ـ كثافة الثقوب السوداء والنجوم النوترونية ومكانها ونوعها:

الكون الناشئ عن انفجار عظيم، والذي يسمح بوجود حياة مادية في

مكان فيه، من المتوقّع أن ينتج بعد بلايين السنين من احتراق نجومه عدد صغير نسبيًّا من (الثقوب السوداء)، وعدد أكبر من (النجوم النيوترونية) في كلّ مجرة. ومن المتوقّع أيضًا أنّ تنتج المجرّات الكبيرة (ثقوبًا سوداء) في مركز لبّها. وقد كشف العلماء (الثقوب السوداء) و(النجوم النيترونية)، وكثافتها، ومكانها.

٢٥ ـ تشتّت عناقيد المجرات النجمية:

يتنبّأ (الانفجار العظيم) أنه مع توسّع الكون ستنتشر في الكون أنواع مختلفة من المجموعات النجمية والمجرّيّة بدرجات محدّدة تتزايد مع الوقت. ويتنبأ أيضًا أن المجموعات النجمية الأكثر كثافة لن تتشتت، ومع ذلك «ستتطوّر» السرعات المدارية لنجومها حول مركز المجموعة نحو وضع يسمى بـ(virialization). وقد كشف الرصد الفلكي عن هذه التطورات في تاريخ الكون.

٢٦ ـ كتلة النيوترينو وطبيعته:

تفترض أفضل نماذج (الانفجار العظيم) أنّ الشكل الأكثر هيمنة من أنواع المادة هو مادة أجنبية تسمّى (المادة المظلمة الباردة). ويدرك العلماء اليوم أنّ (النيوترينات) موجودة بكثافة كبيرة في الكون، وأنها «باردة» و«مظلمة». وتكشف الأبحاث الأحدث أنّ (النيوترينات) تتحوّل من طبيعة ولون إلى آخر. يدلّ هذا التحوّل أنّ جسيم (النيوترينو) لا بدّ أن تكون كتلته أصغر من (الإلكترون) ببلايين وملايين المرات. مثل هذه الأحجام هي التي تفترضها أفضل نماذج (الانفجار العظيم).

٢٧ ـ الكثافة الكونية للبروتونات والنيوترونات:

أثبتت أربع طرق مختلفة لتحديد كثافة البروتونات والنيوترونات في الكون أنّ النسب التي توصّلت إليها توافق ما توقعه (نموذج الانفجار العظيم) لكون يضمّ نجومًا وكواكب صالحة للحياة[١].

---

(١) Hugh Ross, *The Creator and the Cosmos,* appendix.

شهادات علماء الكوسمولوجيا:

إنّ القول: إنّ هذا العالم مخلوق، له بداية، ليس دعوى عاطفيّة للمتديّنين، ولا هو مجرّد أملٍ إيماني، وإنّما هو حقيقة تؤكّدها الدراسات العلميّة الحديثة والأحدث، وهو مذهب يدرّس في أقسام الكوسمولوجيا والفيزياء الكونية في جميع جامعات العالم. وقد أزعج هذا القول لعقودٍ من يدرّسونه لأنه ينصر الآراء الدينية التي يرفضونها، وفي هذا يقول (روبرت جسترو): «اللاهوتيون عامة مبتهجون ببرهان نشأة الكون، في حين أنّ الفلكيين غاضبون بصورة غريبة. لقد آل الأمر إلى أنّ العلماء (scientists) يتصرّفون على الطريقة التي نتصرّف بها نحن لما تكون اعتقاداتنا مخالفة لما دلّ عليه الدليل»[١].

إنّ استقراء أقوال العلماء يكشف ـ كما يقول (ستيورات روبنز) (Stuart Robbins)، المتخصص في الفيزياء الفلكية من جامعة كولورادو ـ: إنّ «(نموذج الانفجار الكبير) لنشأة الكون هو النموذج الأكثر قبولًا»[٢].

عندما يكشف الإلحاد عن قناعه:

أهم دعوى (للإلحاد الجديد) هي تأكيده أنه تعبير عن موقف علمي موضوعي يتّبع الدليل حيث يسير. وهو بذلك يقطع مع الخرافات والأذواق والمواجيد التي لا يدعمها العلم المعاصر. المفاجأة الكبرى التي قد تصدم عوام القراء ممن ليس لهم اهتمام بمتابعة الآراء الرائجة والسائدة عند علماء الكوسمولوجيا هي اكتشافهم أنّ (الإلحاد الجديد) قد اختار مخالفة العلم، مخالفة صريحة، وقرّر أن يبني نظرته للكون على غير ما تقرّره اكتشافات الهيئات العلمية الكبرى التي يدعونا الملاحدة دائمًا إلى أن نسلّم لها بالقول الفصل.

---

(١) Robert Jastrow, *God and the Astronomers*, p.16

(٢) "The Big Bang model of the universe's birth is the most widely accepted model".

عن مقال بعنوان «Big Bang» لروبنز منشور على الموقع الرسمي لجامعة (Case Western Reserve):

<http://burro.cwru.edu/stu/advanced/cosmos_bigbang.html> (10/5/2012)

لقد انتعش الإلحاد وعاش في ظلّ تصوّر فلسفي لأزليّة المادة، وبُني علم الكوسمولوجيا على هذا المبدأ. وقد كان على الإلحاد أن يغيّر وجهته، ويقرّ أنّه قد فقد مبرره العلمي مع تطوّر معارف الإنسان، لكن المفاجأة التي شهدها الميدان العلمي في القرن الماضي (العشرين)، هي أنّ بداية الكشف عن حقيقة خلق الكون قد وُوجهت بالعناد والاستكبار في البداية، ثم تطوّر الأمر إلى محاولة القفز فوق دلالاتها الدينية اليقينية.

كان (أينشتاين)[١] من أوائل من امتعضوا من بداية اتجاه العلماء إلى القول بأنّ الكون ليس أزليًّا، وقد سبق له أن بنى نظريته على أنّ الكون كائن بلا بداية، غير أنّه عاد وأقرّ بعد ذلك رغمًا عنه بخلق الكون حتى تستقيم نظريّته بعد نشر (هابل) لكشفه عن الانزياح نحو الأحمر[٢].

أمّا عالم الكوسمولوجيا والرياضيات البريطاني المادي (أرثر إدنجتن) (Arthur Eddington) (ت١٩٤٤م) فقد اهتزّ لهذا الكشف وقال: إنّ أصل الكون هو «فلسفيًّا أمر بغيض» «philosophically repugnant»[٣]، وأنّه «يبدو أنّ البداية تقدّم صعوبات لا تُقهر إلّا إذا اتفقنا أن ننظر إليها بصراحة تامة كأمر فوق طبيعي»[٤].

ويعبّر (روبرت ويلسن) ـ مكتشف (إشعاع الخلفية الكونية الميكروي) مع (بنزياس)، والذي كان من أنصار الحال الثابتة ـ عن أثر الكشف العلمي على عقيدته، بقوله: «لقد أحببت **فلسفيًّا** نظرية الحال الثابتة، وعليّ بوضوح أن أتراجع عن ذلك»[٥]. تعبيرًا عن هزيمة الأمل الإلحادي أمام براهين العلم.

أمّا (ألان سنداج) (Allan Sandage) (ت٢٠١٠م) ـ الذي لُقِّب بأبي

---

(١) آمن (أنشتاين) بإله غير شخصي. وهناك نزاع في نسبته إلى مذهب (وَحدة الوجود).

(٢) Lincoln Barnett, *The Universe and Dr. Einstein* (New York: William Sloane Associates, 1948), p. 106.

(٣) Arthur S. Eddington "On the Instability of Einstein's Spherical World," in *Monthly Notices of the Royal Astronomical Society,* 90. (1930), pp. 668-678.

(٤) Arthur Eddington, *The Expanding Universe* (New York: Macmillan, 1933), p.178 (The beginning seems to present insuperable difficulties unless we agree to look on it as frankly supernatural.)

(٥) Quoted by Heeren, *Show Me God*, 157.

(الكوسمولوجيا الرصديّة المعاصرة) ـ فقد قال عن بدء الكون بانفجار: «إنّها نتيجة غريبة... لا يمكن أن تكون صحيحة»[1]. علمًا أنّه قد تحوّل في أواخر حياته إلى الإيمان بالله، وهو من أدقّ من قدّموا تقديرًا علميًّا لعمر الكون.

كما عبّر (هويل) عن امتعاضه الشديد من المآلات اللاهوتية لـ(نظرية الانفجار العظيم) بقوله في كتاب مدرسي ألّفه سنة ١٩٧٥م، معترضًا على النموذج النسبي (لألكسندر فريدمان): «كثيرون مسرورون بقبول هذا الموقف... دون البحث عن تفسير فيزيائي للبداية الحادة للجسيمات. يُنظر إلى البداية الحادة عمدًا على أنّها فوق ـ فيزيائية؛ أي: خارج الفيزياء... يبدو هذا النمط من التفكير مرضيًا للكثير من الناس لأنّ «شيئًا ما» من خارج الفيزياء بالإمكان إضافته إلى بداية الزمن. لقد وضعت كلمة «إلٰه» مكان «شيء ما» بمخادعة لفظية... لا أعتقد أنّنا بحاجة إلى استدعاء الميتافيزيقا لحلّ أيّ مشكلة بإمكاننا أن نفكّر فيها»[2].

وكان الفيزيائي البريطاني (دنيس شياما) (Dennis Sciama) (ت١٩٩٩م) ـ أستاذ (هاوكنغ)، وأحد من يعدّون آباء لعلم الكون الحديث، وأحد أهم المناصرين لـ(نظرية الحال الثابتة) مع زميله (هويل)، وقد دعمها في كتابه الأول «*The Unity of the Universe*» (١٩٥٩م) ـ بادي الانفتاح على الحقيقة؛ إذ تحوّل عن مذهبه بعد اكتشاف (إشعاع الخلفية الكونية الميكروي) ليصبح من أهم المنافحين عن (نظرية الانفجار العظيم). وقد أقرّ عن نفسه أنّه قد لعب دورًا في الدفاع عن (نظرية الحال الثابتة) لأنّها كانت جذابة بصورة كبيرة لدرجة أنه تمنّى أن تكون صحيحة، «لكن لما تراكمت الأدلة؛ **اتّضح بجلاء أنّ اللعبة قد انتهت**، وأنه يجب التخلّص من (نظرية الحال الثابتة)»[3].

ويعلّق عالم الفيزياء الفلكية (كريستوفر إشام) (Christopher Isham) على

---

(١) Robert Jastrow, *God and the Astronomers*, p.133

(٢) Fred Hoyle, *Astronomy and Cosmology: A modern course* (San Francisco: W. H. Freeman, 1975), pp. 684-685.

(٣) Stephen Hawking, *A Brief History of Time A Reader's Companion,* eds. by Stephen Hawking and Gene Stone, (New York, Bantam Books, 1982), pp. 62-63.

انزعاج العلماء الماديين من الكشف عن نشأة الكون من خلال انفجار عظيم، بقوله: «**ربّما أفضل حجة لصالح الطرح القائل: إنّ (الانفجار العظيم) يؤيّد الإيمان بالله هو التململ الواضح الذي قوبل به من طرف بعض الفيزيائيين الملاحدة. وقد أدّى ذلك إلى ظهور أفكار علمية، مثل (الخلق الدائم) (continuous creation) أو (الكون المتذبذب) (oscillating universe)، وقد تمّ تقديمها بحماسة تفوق بكثير قيمتها الحقيقية ممّا يلزم المرء بأن يرى دوافع نفسيّة أعمق بكثير من الرغبة المألوفة للمنظّر لدعم نظريّته**»[1].

وقد اعترض الفيزيائي والمحرّر العلمي في المجلّة العلمية الشهيرة «الطبيعة» (جون مادوكس) (John Maddox) (ت٢٠٠٩م) على (نظرية الانفجار العظيم)، وتوقّع بحماسة سقوطها لأنّ المؤمنين بالخلق والخالق يجدون فيها «تبريرًا واسعًا» لمعتقدهم، وتوقّع أن تنهار في غضون عقد من الزمان بنشر نتائج أبحاث (مرصد هابل الفضائي)[2]. ويبدو أنّ أبحاث (هابل) قد انتهت إلى نقيض ما أراده (مادوكس)؛ إذ إنّ أعظم مشاريع هذا المرصد قد حُدّد سنة ٢٠١٣م، وكان جوهره الكشف عن تطوّر الكواكب، و**البذور الأولى للبناء الكوني بعد البليون سنة الأولى من الانفجار العظيم!**[3].

ولا يزال العلماء الملاحدة إلى اليوم في صراع مع الدلالات العقدية للكشوف الفلكية، ولذلك نقرأ في مقال نشر منذ ثلاث سنوات في مجلّة «*New Scientist*» الشهيرة التي يسيطر عليها الماديون: «اعتقد علماء الكوسمولوجيا أنّ عليهم الالتفاف وراء المشكلة. لقد حاولوا على مرّ السنوات الماضية إثبات عدة نماذج مختلفة للكون تتفادى الحاجة إلى بداية، مع الاستمرار في اشتراط انفجار عظيم. **يبدو الآن من المؤكّد أنّ الكون كانت**

(١) C. Isham, "Creation of the Universe as a Quantum Process" in R.J. Russell, W.R. Stoeger and G.V. Coyne, eds. *Physics, Philosophy and Theology: A common quest for undestanding* (Vatican City: Vatican Observatory, 1988), p.378.

(٢) John Maddox, "Down with the Big Bang." in *Nature* 340, 1989, p. 425.

(٣) "Hubble explores the origins of modern galaxies". *SpaceTelescope.org*. August 15, 2013

له بداية[1]»[2].

الإلحاد موقف عاطفي دوغمائي كشف العلم نفاقه.

ماذا لو ثبت بطلان نظرية الانفجار العظيم؟:

يحتجّ البعض بالقول: إنه لا يمكن أن يُستدل بـ(نظريّة الانفجار العظيم) للقول بأنّ الكون مخلوق، فهي لا تعدو كونها «**نظرية**»؛ أي: أمرٌ لم يثبت، وإنما مجرد افتراض. ولو ثبت بطلان هذه النظرية فسيفقد المؤمنون بالله دليلهم العلمي الوحيد على وجود الله، ليرجع الأمر إلى ما كان عليه سابقًا من دلالة العلم الطبيعي على أزلية المادة، خاصة مع وجود بدائل نظرية كوسمولوجية تقرّر أزلية الكون.

ليس الاعتراض السابق على شيء؛ إذ هو قائم على العناوين المثيرة التي ينكشف عند النظر في حقيقة ما وراءها أنّها لا تؤول إلى إثبات ما يريده أصحابها من ردّ خلق الكون، وذاك هو سبيل الإلحاد اليوم، إذ يعتمد على كسل عموم القرّاء، وغياب الهمّة للبحث وراء الادّعاءات العريضة للقول بانتقاض أدلّة المؤلّهة.

أولًا: معنى النظرية:

من الأخطاء الشائعة في الثقافة الشعبية العربية والغربية اعتبار (النظرية) (Theory) مجرّد رأي لا تسنده البراهين، مما يعني أنّه لا يحمل أيّة سلطة أدبيّة، وأنّه ضرورة لا يمكن أن يكون «حقيقة علمية».

(النظرية) في المفهوم العلمي طبقًا لتعريف (الأكاديمية القومية الأمريكية للعلوم) هي: «تفسير موثّق بصورة جيدة لبعض جوانب العالم الطبيعي من

---

(١) "The Genesis problem," *in New Scientist*, issue 2847, 13 January 2012 <http://www.newscientist.com/article/mg21328473.500-the-genesis-problem.html#.VBaSGRt0zIU>

(٢) أفضنا في عرض شهادات العلماء الملاحدة على أنّ (نظرية الانفجار العظيم) دالة على أن الكون مخلوق لا يستغني عن خالق لأنّنا لاحظنا أنّ من هواة الملاحدة من ينفي اقتضاء (نظرية الانفجار) وجود خالقٍ أبدع الكون.

الممكن أن يضم حقائق، وقوانين، واستدلالات، وفرضيات مختَبرة»(١).

يشكّل التعريف السابق الصورة الأكثر شيوعًا لمعنى «النظرية» في الساحة العلمية، وهو بذلك يقدّم التصوّر العلمي الجامع لمجموعة مسائل أو أحداث في نسق واحد مترابط يزعم موافقته للحقيقة الموضوعية القائمة في الكون.

وبإمكاننا أن نقول في ضوء مطابقة (نظرية الانفجار العظيم) للشواهد المادية والرياضية للكون: إنّ سيناريو (الانفجار الأوّلي العظيم) موثَّق بالقرائن العلميّة المدعومة بالنبوءات الصادقة للعلماء، وهو بذلك تفسير علمي مدلّل عليه لنشأة الكون.

ثانيًا: تعدّد شواهد خلق الكون:

ليست (نظرية الانفجار العظيم) هي الدليل العلمي الوحيد لخلق الكون، وإنّما هناك دلائل أخرى، أو بالأحرى بإمكاننا أن نقول: إنّ كلّ الدلائل المادية والرياضية تدلّ على أنّ الكون له بداية، ولذلك قال الكوسمولوجي الشهير **اللاأدري** (ألكسندر فلنكن) (Alexander Vilenkin) سنة ٢٠١٢م في عيد ميلاد (هاوكنغ) السبعين، والذي ناقش فيه العلماء أهم نظريات نشأة الكون: «تقول **كلّ الأدلة** التي عندنا إنّ الكون له بداية»(٢). وأكّد هذا الأمر بلغة أكثر حدّة، بقوله: «لقد قيل إنّ الحجة هي التي تقنع العقلاء والدليل هو الذي يقنع حتى غير العقلاء. لم يعد بإمكان علماء الكوسمولوجيا، بعد أن قامت الآن الأدلة، أن يَتَخفّوا وراء إمكانية وجود كون أزلي. **لم يعد هناك مهرب،** عليهم أن يواجهوا مشكلة البداية الكونيّة»(٣).

نذكر من الأدلة التي تثبت أنّ للكون بداية:

---

(١) National Academy of Sciences, *Teaching about Evolution and the Nature of Science* (Washington, DC: National Academy Press, 1998), p.7.

(٢) Lisa Grossman, *Death of the Eternal Cosmos, in New Scientist*. 1/14/2012, Vol. 213 Issue 2847, p.7

(٣) Alexander Vilenkin, *Many Worlds in One: The Search for Other Universe* (New York: Hill and Wang, 2006), p.176.

القانون الثاني للديناميكا الحرارية:

يحتلّ (القانون الثاني للديناميكا الحرارية) (The second law of thermodynamics) مكانة خاصة بين القوانين الكونية التي كشفها العلماء، حتى قال فيه عالم الكوسمولوجيا (إدنجتون): إنّه القانون الأوّل لكلّ العلوم، وإنّ أية نظرية علمية تتعارض مع هذا القانون لا تملك أملًا في البقاء، وإنّها ستنهار ضرورة[١].

لهذا القانون صيغ عديدة تعبّر عن حقيقته ـ رغم أنّه متعلّق في الأصل بالانتقال الحراري ـ من أهمّها أنّ الكون ينحو إلى الفوضى بعد الانتظام، وأنّ النُظُم تتحوّل من السلوك المنتظم إلى السلوك العشوائي. ومن لوازم هذا القانون أنّ الكون يتّجه إلى فقد طاقته، ويتحوّل بصورة عفوية من الحرارة إلى البرودة، ومن النظام إلى الفوضى، فكلّ شيء يتحوّل من الأعلى إلى الأدنى. إنّه بعبارة عامة، **قانون الفساد في الكون**، وهو الحقيقة الكبرى التي ألزمت (أنشتاين) أن يقول بكلّ ثقة: إنه لا يمكن أن يتمّ إبطاله في يوم ما[٢].

بإمكاننا أن نستفيد من القانون الثاني للديناميكا الحرارية في معرفة إن كانت للكون بداية بالنظر إلى أربعة أصول معرفية يتمسّك بها الملاحدة، وهي:

- الكون هو كيان مغلق رغم ضخامته الهائلة.
- الكون هو كيان مادي بحت.
- روح الكون هي طاقته التي يستهلكها وتمنعه من أن يبلغ مرحلة التموّت الحراري.
- الكون يستهلك طاقته على مدى الزمن بما يجعلها تتناقص يومًا بعد يوم، كما يتقلص البنزين من خزّان السيارة كلّما أخذت السيارة منه رصيدًا لحركتها.

---

(١) Arthur Eddington, *The Nature of the Physical World* (New York: Macmillan, 1928), p.74.

(٢) Albert Einstein (author), Paul A Schilpp (editor), *Autobiographical Notes* (A Centennial Edition, Open Court Publishing Company, 1979), p. 31.

حقيقة تناقص الطاقة عبر الزمن، دالة على أنّ لهذا الكون بداية محدّدة بدأ منها استهلاك الطاقة، ولا يستقيم لذلك أن يكون الكون أزليًّا؛ لأنه لا ينقص إلا المبدوء، فإنّ الكون الذي تتناقص طاقته من الأزل، تنفد طاقته في الأزل!

يقول الفيزيائي اللاأدري (بول ديفيس): «اليوم، نحن نعلم أنه لا يمكن لنجم أن يستمر في الاحتراق إلى الأبد؛ إذ لا بدّ أن ينفد وقوده. وهذا يفيد في توضيح مبدأ عام جدًّا: [مفهوم] الكون الأزلي يتعارض مع استمرار وجود العمليات الفيزيائية التي لا رجعة فيها. إذا كان بإمكان النظم الفيزيائية أن تخضع لتغييرات لا رجعة فيها بمعدل محدود، فهي إذن ستنتهي من تلك التغييرات في زمن لانهائي مضى»[١].

ويضيف (ديفيس) معلّقًا على دلالة (الانفجار العظيم) على أنّ الكون له بداية: «ثمّة خيوط لأدلّة عديدة تدعم هذه النظرية المذهلة، **وسواء قبلنا كافّة التفاصيل أم لم نقبل، فالفرضيات الأساسية ـ بوجود نوع من خلق ما ـ تبدو قاهرة من وجهة نظر العلم**، ويعود الفضل ـ مباشرة ـ إلى مجموعة كبيرة من البراهين، تعود إلى أحد أكثر قوانين الفيزياء شهرة، ذلك المعروف بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية، ويوضح هذا القانون ـ بالمعنى العام ـ أنّ الكون يصبح ـ يومًا بعد يوم ـ أكثر اضطرابًا، فثمّة نوع من الانحدار التدريجي والعنيد ينزع إلى الفوضى، والأمثلة على صحة القانون الثاني واضحة للعيان، ففي كلّ مكان: بنايات تنهار، بشر يتقدّمون في العمر، جبال وسواحل تتآكل، وموارد الطبيعة تنضب... وقد أثبتت تجارب دقيقة عديدة أنّ الكميّة الكليّة للاضطراب في نظام ما لا تنخفض أبدًا، وإذا كان النظام معزولًا عن محيطه، فأيّ تغييرات تحدث داخله سوف ترفع الأنتروبي؛ أي: الاضطراب، بحدّة بالغة حتى لا يمكنه بعدها الوصول إلى أعلى، وحينها لن يحدث المزيد من

(١) Paul Davies, *The Mind of God: The Scientific Basis for a Rational World* (New York: Simon & Schuster, 1992), p.46

التغيير؛ إذ يكون النظام قد وصل إلى حال توازن الديناميكا الحرارية»[١].

طمع بعض الملاحدة في أن تكون الكوسمولوجيا الكمومية هي المخرج من مأزق القانون الثاني للديناميكا الحرارية لتلافي بداية للكون، لكنّ دراسة نشرت قريبًا للكوسمولوجي (آرون وال) (Aron Wall) أثبتت أنّ السلطان التام لهذا القانون على كوسمولوجيا الكم يلزمنا بالإقرار بخلق الكون، ولا حلّ لمواجهة ذلك إلا بتبنّي إمكانية أن تسير حركة الزمان بصورة عكسيّة؛ أي: أن يتحرّك الزمان إلى الماضي لا من الماضي (!!)[٢]، وكفى بهذا الحلّ حجّة على عجز الحلول العاقلة عن تفادي اللوازم الإيمانية للقانون الثاني للديناميكا الحرارية.

النظرية النسبية لأينشتاين:

علِم (أينشتاين) أثناء عمله على نظريته أنّ الحسابات تقوده إلى كون غير مستقر في حجمه، فاضطرّ للهروب من هذه النتيجة البغيضة إليه أن يفترض سنة ١٩١٧م وجود ما سمّاه بـ(الثابت الكوني) (Cosmological constant) كإضافة إلى نظريته في النسبية العامة، حتى يتحقق الاستقرار الكوني بالتغلّب على سلطان الجاذبية بوجود قوة تنافرٍ تفعل فعلًا معاكسًا لفعل الجاذبية، لكنّه اضطرّ إلى التنازل عن رأيه والإقرار بتوسّع الكون بعد اكتشاف (هابل) في آخر العقد الثاني من القرن العشرين لدليل مدرك لتنائي المجرّات عنّا.

وقد نشر (أرفند بورد) (Arvind Borde) و(ألان غوث) (Alan Guth) و(ألكسندر فلنكن) (Alexander Vilenkin) ورقة علمية في أبريل ٢٠٠٣ في مجلة «*Physical Review Letters*» تحت عنوان: «الزمكانات المتضخمة غير تامة من جهات الماضي»، وأثبتوا فيها أنّ الكون اللامتناهي في الزمان لا يتوافق مع نظرية أنشتاين النسبية التي ثبت صدقها علميًّا منذ زمن.

---

(١) بول دافيز، الله والفيزياء الحديثة، تعريب: هالة العوري، دمشق: دار صفحات، ٢٠١٣م، ص٢٢ ـ ٢٣.

(٢) Aron C. Wall, "The Generalized Second Law implies a Quantum Singularity Theorem,"
< http://arxiv.org/abs/1010.5513v3 >.

تمدد الكون:

اكتشف (إدون هابل) في بداية القرن العشرين أنّ الكون يتمدّد، وأن سرعة ابتعاد الأجرام عن بعضها تطابق سرعة ابتعادها عن الأرض. كان هذا الكشف من أقوى الدلائل لتأكيد (نظرية الانفجار العظيم)، غير أنّ هذا التمدّد وحده حجّة أنّ الكون لا يمكن أن يكون أزليًّا بلا بداية.

وقد أبدى (هاوكنغ) كبير استغرابه من عدم الكشف عن تمدد الكون قبل القرن العشرين؛ إذ إنّه من المستحيل أن يوجد كون ثابت من الأزل تعمل فيه الجاذبية عملها الجذبي[١]. وعلّق قائلًا: «كان الكشف عن توسّع الكون إحدى أكبر الثورات الفكريّة في القرن العشرين. من السهل أن نتساءل ـ بصورة متأخرة ـ لِمَ لَمْ يفكّر أحد في ذلك من قبل. لقد كان على (نيوتن) والآخرين أن يكتشفوا أنّ الكون الثابت لا بدّ أن يبدأ عن قريب في الانكماش تحت تأثير الجاذبية»[٢].

ومن الحجج الأقوى اليوم لدلالة التوسّع على نفي أزليّة الكون، (مبرهنة بورد وغوث وفلنكن) (Borde - Guth - Vilenkin Theorem) ـ على أسماء الكوسمولوجيين الثلاثة الذين طورّوها سنة ٢٠٠٣م، وتختصر بـ (BGV theorem) ـ. وقد لقيت هذه المبرهنة قبولًا كبيرًا في أوساط الكوسمولوجيين في العالم، وهي تقرّر أنّ **كلّ كون أو أكوان تتمدّد بدرجة أعلى من الصفر، فلا ريب أنّها تعود إلى بداية ولا يمكن أن تكون أزليّة**[٣]. ولخّص الثلاثي أصحاب المبرهنة دراستهم بقولهم: «النموذج الكوسمولوجي المتضخم ـ أو حتى المتوسع بسرعة كافية ـ لا بدّ أن يكون غير تام في الاتجاهات الماضية للعدم والزمان (timelike)»[٤].

---

(١) Stephen Hawking, *A Brief History of Time,* p.6

(٢) Ibid., p.41.

(٣) A. Borde, Guth and A. Vilenkin, *Inspace-times are not past-complete,* Phys. Rev. Lett. 90 151301 (2003), pp.1-4

(٤) Ibid., p.1 .

طبيعة الحركة المتمددة للكون تحمل إذن في ذاتها دلالة فيزيائيّة على أنّ الكون لا يمكن أن يكون أزليًّا.

مفارقة أولبرز:

سُمّيت (مفارقة أولبرز) (Olbers' Paradox) على اسم الفلكي الألماني (هاينريش أوبلرز) (١٨٤٠م) وتسمى أيضًا (مفارقة السماء المظلمة)، ويشرحها (بول ديفيس) بقوله: «لو كان الكون غير متناهٍ في تمدده المكاني والزماني لكان الضوء الآتي من النجوم اللامتناهية منهمرًا على الأرض من السماوات. ويظهر الحساب البسيط أنّ السماء لا يمكن أن تكون مظلمة في مثل هذه الظروف. يمكن حلّ المفارقة بافتراض سنّ محدود للكون؛ إذ إننا في هذه الحال سنكون قادرين فقط على رؤية النجوم التي أخذ ضوؤها زمنًا للسفر عبر الفضاء إلى الأرض منذ البداية»[1].

بعبارة أكثر تبسيطًا، لو كان الزمان بلا بداية لكانت السماء كلّها مضيئة ليلًا لأنّها ستكون مغمورة كلّها بأضواء النجوم التي وصلنا ضوؤها منذ الأزل، أمّا والحال كما نعرف من سمائنا اليوم من أنّ ليلها أسود إلا من قليل من النجوم المضيئة، فذاك يعني أنه لا يصلنا من ضوء النجوم إلا ما انتهى من رحلته إلينا منذ بداية تخلّق النجوم أو بعد ذلك.

ثالثًا: تراكم الشواهد:

يهاجم بعض هواة الإلحاد في الشرق (نظرية الانفجار العظيم) باعتبارها تعيش تحت تهديد الاكتشافات الحديثة التي قد تقلّص مصداقيتها، وعلى هذه الدعوى أربع ملاحظات:

الأولى: نَقْضُ تقرير العلماء أنّ الكون قد بدأ بانفجار عظيم، ليس بالبساطة التي يتصوّرها عوام الملاحدة، فقد سئل (جاسترو) عن قول الكاتب الملحد الشهير (إسحاق أزيموف) (Isaac Azimov): إنّ العلماء وإن عجزوا

---

(١) Paul Davies, *The Mind of God,* p.46.

اليوم عن تفسير الانفجار العظيم، فسيتمكنون غدًا من فعل ذلك لأنّ العلم يتطوّر تبعًا لما يكتسبه من معلومات جديدة. وكانت إجابته: «أنا متشبّث بفكرة أنّ العلم لن يتمكّن من أن يفكّ شفرة سبب الانفجار الكوني ما دام يظهر أنّ الكون كان لامتناهي الحرارة والكثافة في لحظاته الأولى. يبدو لي هذا الاستنتاج كإحدى الحقائق الصلبة للعلم، مثل التقسيم الكمّي للشحنة، وكتلة الإلكترون، واللولب الثنائي للحمض النووي. في رأيي، بإمكان الوضع أن يتغيّر فقط إن أطيح بالانفجار العظيم من خلال الكشف عن معلومات جديدة، **ولكن في ضوء اكتشاف إشعاع الكرة النارية الأوّلي على يد (بنزياس) و(ويلسن)، يبدو هذا التطور بعيدًا**»[1].

واليوم، وقد مرّت عقود ثلاثة على التصريح السابق لـ(جاسترو)، لم يكشف البحث العلمي عن أيّة معلومة جوهرية قادرة على نقض طرح الانفجار العظيم، بل أكّد البحث على خلاف ذلك بدعمه سيناريو الحال الملتهبة لبداية الكون. ولم تقم النظريات الكوسمولوجية الأحدث على معلومات جديدة، وإنّما على محاولة إحداث قراءة أولى مختلفة بالاعتماد على نفس المعارف القديمة.

الثانية: يقوم العلماء بحلّ أهم الإشكالات التي تواجه (نظريّة الانفجار العظيم) ضمن نفس النموذج الكوني لذات الانفجار، فالعلماء يميّزون بين النموذج كفكرة كبرى، والنظريات التي تنضوي تحته. وقد نجحت نظرية (التضخم الكوني) (inflationary theory) ضمن (نموذج الانفجار العظيم) في حلّ المشكلات الثلاث الكبرى للنموذج والتي تتعارض مع التصوّر الكلاسيكي للانفجار العظيم (The standard Big Bang model)، وهي (مشكلة الأفق) (Horizon problem)، و(مشكلة التسطّح) (Flatness problem)، و(مشكلة أحادية القطب المغناطيسي) (Magnetic - monopole problem). فـ(نظرية

(١) Roy Abraham Varghese, ed. *The Intellectuals Speak out about God: A handbook for the Christian student in a secular society* (Chicago, Ill.: Regnery Gateway, 1984), p.17

الانفجار العظيم) نجحت في أن تفسّر ما نعرفه عن الكون دون أن تتخلّى عن أصولها، وأهمّها أنّ للمكان والزمان بداية.

الثالثة: الأدلّة على الانفجار العظيم الذي نشأ منه الكون تتراكم مع تتابع الاكتشافات الفلكيّة الكبرى ولا تتناقص، مثبتة قدرتها التفسيرية للظواهر الكونية المشاهدة اليوم والتي تمثّل التاريخ القديم للكون. ولعلّ أبرز طابع لصلابة (نظرية الانفجار العظيم) هو صحّة نبوءاتها العلميّة عن تاريخ الكون منذ بدايته، والناتج عن انفجار حراري هائل تمددت عناصره لتنشئ المكان المتوسّع بسرعة.

يقول (بول ديفيس): «**لو أنّ نظرية الانفجار الكبير كانت تقوم على عمل (هابل) و(أينشتاين) فقط، لما استطاعت أن تحوز هذا الدعم الواسع**. لحسن الحظ، توجد أدلة تأكيدية مقنعة... حقيقة أنّ الكوسمولوجيا الحديثة وفّرت أدلّة فيزيائية صلبة لصالح الخلق هو أمر مرض جدًّا للمفكّرين المتديّنين»(١).

وقد شهد (فكتور ستنجر) أنّ «كلّ سنة تمرّ، ومع تراكم المعلومات الكونية، تتوافق [معارفنا] بصورة أكبر مع الصورة العامة للانفجار العظيم على الأقلّ»(٢)، موافقًا ما قرّره (فردريك برنهام) (Frederick Burnham) ـ مؤرّخ العلوم ـ، بقوله: «هذه الاكتشافات المتاحة الآن، تجعل القول: إنّ الله قد خلق الكون، فرضية جديرة بالاحترام اليوم، بصورة أكبر من أي وقت مضى في المئة سنة الأخيرة»(٣). أمّا (مارتن ريس) (Martin Rees) ـ عالم الكوسمولوجيا الشهير، ورئيس (الجمعية الملكية البريطانية في لندن لتطوير المعرفة الطبيعية) لست سنوات، وهو المنصب الذي شغله سابقًا (إسحاق نيوتن) ـ فقد كتب سنة ١٩٩٩م: «كنت سابقًا، منذ سنوات قليلة، أثق بدرجة ٩٠٪ في حدوث الانفجار

---

(١) Paul Davies, *God and the New Physics* (New York: Simon and Schuster, 1983), 20-24.

(٢) Cliff Walker, 'An Interview with Particle Physicist Victor J. Stenger' (November 1999) <www.positiveatheism.org/ crt/ stenger1. htm>.

(٣) Henry F. Schaefer III, "Stephen Hawking, The Big Bang, and God," <http://globalwebpost.com/farooqm/ study_res/hawking/schaefer.html>.

العظيم. . . أمّا الآن فالنسبة أعظم بكثير، التقدّم العظيم في المشاهدات والتجارب جعلت الصورة الكونية الكبرى أدقّ أثناء **التسعينات** من القرن العشرين، **وأرغب الآن في رفع درجة يقينيي إلى ٩٩٪**»[١].

ومن التأكيدات الأخيرة لصحّة نظرية الانفجار العظيم ما أعلنه (راسل كانون) (Russell Cannon) سنة ٢٠٠٥م باعتباره عضوًا في فريق علمي أمريكي قام بمسحٍ لعدد كبير من الكواكب باعتماد أساليب أحدث وأكثر تطوّرًا: «لقد عَلِمنا منذ زمن بعيد أنّ أفضل نظريّة لتفسير الكون هي الانفجار العظيم. . . ما يمكننا الآن أن نكون واثقين فيه بصورة أكبر هو أنها الفكرة الأساسيّة الصحيحة»[٢].

لقد جعلت المعطيات الكونية المتراكمة الصحفي الأمريكي (جورج ول) (George Will) يقول مازحًا: إنّه يبدو أنّ الملاحدة سيعترضون على وكالة (ناسا) باعتبارها تقدمّ دعمًا علميًّا للمتديّنين من خلال ما يثبته (مرصد هابل الفضائي) من حقائق![٣].

ولم تكن أبحاث العلماء الأمريكيين وحدها حجّة متجددة لصالح نظرية الانفجار الكبير، وإنّما هي أبحاث علماء الكوسمولوجيا في كلّ قارات الأرض، ومن ذلك أنّ (الوكالة الأوروبية لأبحاث الفضاء) (European Space Agency) التي تُعنى بتطوير برامج التعاون الفضائي بين دول أوروبا الغربية، قد أصدرت تقارير سنة ٢٠١٣م عن تحليل نتائج ما رصده (مرصد بلانك الفضائي) الذي أنشئ لمسح توزيع (إشعاع الخلفية الميكروي الكوني) في الكون بدقة عالية، وقد جاء في أحدها: «إجمالًا، توفّر المعلومات المستقاة من الخريطة الجديدة لبلانك تأكيدًا رائعًا للنموذج القياسي للكوسمولوجيا بدقّة

---

(١) Martin Rees, *Just Six Numbers: The deep forces that shape the universe* (New York: Basic Books, 2000), p.10.

(٢) "Universe is flat with a ripple," January 12, 2005. http://www.theage.com.au/news/Science/Universe-is-flat-with-a-ripple/2005/01/12/1105423539638.html >.

(٣) George Will, "The Gospel from Science," in *Newsweek,* November 8, 1998.

غير مسبوقة»[١]. وفي تقرير عمّا رصده (مرصد بلانك) ـ صدر أثناء كتابتي هذه الكلمات ـ صرّح العلماء قائلين: «يبقى النموذج القياسي الكوسمولوجي وصفًا ممتازًا للكون»[٢].

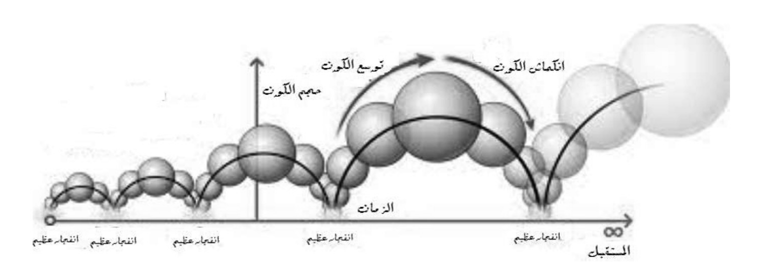
حقائق العلم وكشوفه لم تزد دعوى أزلية الكون إلا نكارة.

رابعًا: فشل البدائل المطروحة[٣]:

يحاول فلاسفة الإلحاد إيهام الأتباع والقرّاء أنّ بدائل ناجعة لـ(نظريّة الانفجار العظيم) قد أثبتت أزليّة الكون، وأنّ الانحياز إلى نظرية الانفجار دليل جهل المنحاز إليها بتطوّر حسابات الكوسمولوجيين واكتشافاتهم. ولذلك سنعرض هنا إلى أهم البدائل التي يتحمس لها جماعة من فلاسفة الإلحاد، علمًا أنّ الكثير من أعلام الإلحاد يقرّون بنظرية الانفجار العظيم لكنّهم يتأوّلون نتائجها بما لا يثبت أنّ للكون خالقًا.

النموذج المتذبذب Cyclic model:

يقترح نموذج الكون المتذبذب أنّ الكون في حال توسّع ثم انكماش دائبين منذ الأزل، دون بداية، وذلك للخروج من إشكال الخلق الأوّل.



---

(١) "Planck Reveals an Almost Perfect Universe"
<http//:www.esa.int/Our_Activities/Space_Science/Planck/Planck_reveals_an_almost_perfect_Universe>. Retrieved 1/19/2015.

(٢) "The standard model of cosmology remains an excellent description of the universe"
<http://www.sciencedaily.com/releases/2015/03/150305110346.htm>.

(٣) أفدت كثيرًا في هذا الوجه من:
William Lane Craig, *Reasonable Faith* (Wheaton, Ill.: Crossway Books, 2008), pp.125-150

يقول الفيزيائي البريطاني (جون غربن)، معبرًا عن أصوات الكثيرين: «الإشكال الأكبر في نظرية الانفجار العظيم المتعلّقة بنشأة الكون هو **فلسفي ـ وربّما حتى لاهوتي ـ**، وهو: ماذا كان قبل الانفجار؟ كان هذا الإشكال وحده كافيًا لمنح دفعة أولى لـ(نظرية الحال الثابتة)، ولكن بعد أن تبيّن ـ للأسف ـ أنّ تلك النظرية معارضة للأمور المشاهدة، كان الطريق الأفضل للالتفاف حول هذا الإشكال الأوّلي هو في تقديم نموذج يتوسّع فيه الكون من (مفردة) (singularity)، ويعود فينهار بعد ذلك، ثم يعيد دورته هذه دون نهاية»[١].

لم تكن نظرية التوسّع والانكماش الدائمين بأسعد حالًا من (نظرية الحال الثابتة)؛ فبعيدًا عن الفساد العقلي للقول بعدد لانهائي من الدورات الماضية، قدّم العلم ضربات مميتة لهذه النظرية، ومن أهمها:

١ ـ لا يوجد دليل مادي على أكثر من انفجار واحد وتمدّد واحد للكون.

٢ ـ أشار (فلنكن) إلى أنّ هذه النظرية تصادم وجود الكون إلى اليوم؛ إذ إنّها لو صحّت، فلا بدّ أن يكون الكون قد بلغ مرحلة (التوازن الترموديناميكي) (thermodynamic equilibrium) لتتوقف جميع التفاعلات الفيزيائية في الكون، وهو خلاف ما نعلمه ونشاهده من كوننا اليوم[٢].

٣ ـ يبدو أنّ الكثافة المشاهدة للكون لا تكفي في أفضل أحوالها لنصف ما يُحتاج لانكماش كوني.

٤ ـ لا توجد آلية فيزيائية معروفة ومعقولة من الممكن أن تحقق الانكماش العكسي المطلوب.

٥ ـ لمَّا حسب الفلكي (جوزيف سلك) (Joseph Silk) عدد المرات الممكنة لتاريخ تذبذب الكون انطلاقًا من المستوى الأنتروبي الحالي للكون،

---

(١) Hugh Ross, *The fingerprint of God*, p.97.

(٢) تصريح مباشر من (فلنكن) للفيزيائي (جيمس د. سنكلير) (James D. Sinclair):

William Lane Craig and J. P. Moreland, eds. *The Blackwell Companion to Natural Theology*, p.151.

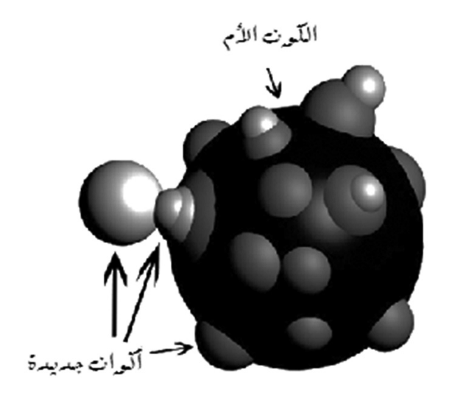
وجد أنّ الحالات الممكنة لا يمكن أن تتجاوز مئة مرّة[١].

٦ ـ يحتاج الكون لكي يمرّ بعدد لانهائي من دورات التذبذب المتتابعة أن يبدأ بمقادير مضبوطة ومتقنة من المادة والطاقة والقوانين الحاكمة لها حتى يتمكن من أن يعيش دورة التمدد قبل الانكماش، وهو ما لا تسمح به عشوائية الكون الإلحادي.

إنّ الكون المتذبذب، حتى لو صحّ تاريخيًّا، فإنه لا يمكن أن يكون أزليًّا لأنّه لا يستطيع أن يقاوم عدّة عوامل مادية وقانونية مطلوبة، ولذلك قال كل من (زلدوفيتش) (Zeldovich) و(نوفيكوف) (Novikov) في الحكم على هذا النموذج: «النموذج متعدد الدورات له مستقبل لانهائي، أمّا **ماضيه فهو متناهٍ**»[٢].

التضخم الأزلي Eternal Inflation:

اقترح عالم الفيزياء الفلكية الروسي (أندري لند) (Andrei Linde) في السبعينات من القرن الماضي نظريته في التضخم الكوني، غير أنه عاد في بداية العقد التالي ليقترح نموذجًا آخر يُعرف بـ(التضخم الجديد) (New inflation)، ثم عاد فانتبه بعد فترة قصيرة إلى عيوب نموذجه الجديد، لينشئ بعد ذلك ما يعرف بنموذج (التضخم العشوائي) (chaotic inflation) حيث تنشأ من جوانب الكون الأم أكوانٌ جديدة تتوسّع، وتنشأ من جوانبها أيضًا أكوان أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية.



(١) Joseph Silk, *The Big Bang*, (San Francisco: W. H. Freeman, 1989), pp.311-312.

(٢) I. D. Novikov and B. Zeldovich, "Physical Processes Near Cosmological Singularities," in *Annual Review of Astronomy and Astrophysics* 11 (1973): 401-402.

لم تقدّم نظريات التضخم الدقيقة في عناصرها وتاريخها حجّة مادية واحدة لإثبات صدقها، ولذلك أعرب الفيزيائي (جون برّو) (John Barrow) عن امتعاضه بقوله: «للأسف، لا يبدو أنّ كامل المخطط الكبير للتضخم الأزلي قابل للاختبار»[١]. كما قال (هاوكنغ): «في رأيي الخاص، نموذج التضخم الجديد هو ميت الآن كنظرية علمية»[٢].

ولعلّ أهمّ ردّ على أزليّة نموذج (لند) كان بنشر (أرفن بورد) و(ألكسندر فلنكن) سنة ١٩٩٤م دراسة تثبت أنّ كلّ نظريات التمدد، بما في ذلك نظرية (لِند) لا يمكنها أن تتلافى المفردة التي نشأ منها الكون. وقد انتهيا في دراستهما إلى أنّ «الزمكان المادي المعقول، والمتوسع أبدًا، لا بدّ أن يضمّ مُفردة أولى»[٣] في تاريخه، وهو ما أقرّ به (لند) في رده على هذه الدراسة[٤]. كما صدرت مؤخرًا ـ أثناء إعدادنا هذا الكتاب ـ دراسة علمية في نقد إحدى أشهر صور هذا النموذج، وانتهت إلى أنّ الكون في هذه النظرية لا يمكن أن يكون أزليًّا[٥].

نظرية الأوتار String Theory:

(نظرية الأوتار)، هي مجموعة من الأطروحات التي تنطلق من الزعم أنّ المادة ليست بناءً من الجسيمات مثل الكواركات، وإنما هي في الحقيقة مجموعة أوتار من الطاقة صغيرة الحجم، ذات بعد واحد وطبيعة اهتزازية.

ربما لا تعرف نظرية اليوم حجمًا من الإشكالات مثل (نظرية الأوتار)، فرغم أنّها إلى الآن تبحث لنفسها عن أشكال ممكنة إلّا أنّ الدعاية الإعلامية لها واسعة **لغرابتها وتطرّفها**.

---

(١) John Barrow, *The Book of Nothing: Vacuums, voids, and the latest ideas about the origins of the universe* (New York: Pantheon Books, 2000), p.256.

(٢) Stephen Hawking, *A Brief History of Time,* p. 132

(٣) Arvind Borde and Alexander Vilenkin, "Eternal Inflation and the Initial Singularity," in *Physical Review Letters* 72 (1994): 3305.

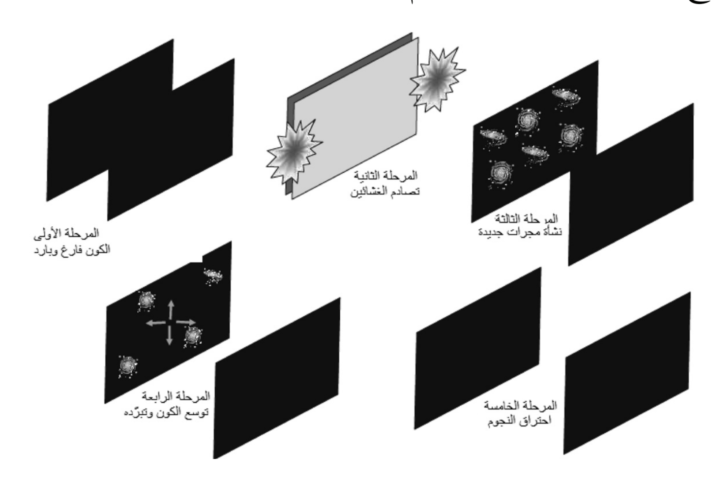
(٤) A. Linde, D. Linde, and A.Mezhlumian, "From the Big Bang Theory to the Theory of a Stationary Universe'" in *Physical Review* D 49, 1994, 1783-1826.

(٥) Ikjyot Singh Kohli and Michael C. Haslam, "Mathematical Issues in Eternal Inflation", 2015 *Class. Quantum Grav*. 32. < http://arxiv.org/pdf/1408.2249.pdf >.

تقدّم هذه النظرية صيغتين اثنتين للوجود الكوني. قدّم أولاهما الفيزيائيان (غبريال فنزيانو) (Gabriele Veneziano) و(موريزيو غسبريني) (Maurizio Gasperini)، وهي تقرّر أنّ الانفجار العظيم هو مرحلة بين انكماش سابق وتمدد لاحق. تكوّن قبل الانفجار العظيم ثقب أسود في الفراغ الأزلي المستقر، وقد أدّى انهياره إلى ظهور النسب اللاحقة من الحرارة والكثافة وغير ذلك، مما أدّى إلى التوسّع اللاحق.

بعيدًا عن غياب الدليل المادي لهذه النظرية وعدم اكتمال تأصيلها النظري، يلزم من نشوء الثقوب السوداء في الفراغ الكوني في أي رقعة منه أن تكون نشأة هذه الثقوب من الأزل، وهو ما يخالف واقع عمر كوننا الصغير سنًا نسبيًّا. كما يلزم من ذلك أيضًا أن تندمج الثقوب السوداء في بعضها منذ الأزل لتكوّن ثقبًا أسود مساويًا في امتداده للكون، وهو ما يؤول إلى أن يكون زمن ما بعد الانفجار العظيم قديمًا من الأزل. كما يلزم من كون الكون مغلقًا أن يصل إلى حال التوازن الترموديناميكي، وهو ما لم يبلغه كوننا بعد.

النظرية الثانية، وهي الأشهر، وتسمى (نموذج التحوّل الناري) (Ekpyrotic Model)، وانتصر لها (بول ستينهارت) (Paul Steinhardt)، وهي في أحدث نماذجها (Cyclic Ekpyrotic Scenario)، تفترض وجود غشائين أزليين، ينتج من تكرر تصادمهما ثم تباعدهما كون جديد.



بعيدًا عن حقيقة أنّ هذه النظرية محض خيال، وأنّ سلسلة التصادم اللامتناهية محالة عقلًا، وأنها تعاني إشكالات داخلية عميقة[١]، وأنّ الدقة العالية المطلوبة لتوازي هذين الغشائين حتى عند تباعدهما لا تفسّر بغير الصنعة الحكيمة، يحقّ لنا أن نقرّر بكلّ ثقة أنها لا تملك أن تقدم كونًا أزليًّا لأنّ كلّ نموذج تضخمي لا بدّ أن يعود إلى نقطة ابتداء كما هو مبيّن في (مبرهنة بورد وغوث وفلنكن) السابق ذكرها.

وقد صرّح (ستينهارت) أنّه **لا يلزم** من نموذجه أن تكون التذبذبات لانهائية في الماضي[٢]، بل واعترف بنفسه أنّ لنموذجه التذبذبي بداية في قوله: «القصة الأرجح هي أنّ التذبذب قد ابتدأ ببداية مفرديّة»[٣]، ولذلك ردّ ما قبل تلك البداية إلى الغيب، ليصبح هذا النموذج في ذاته قاصرًا عن إثبات أزلية الكون، بل قائلًا إنّ له بداية نشأ منها!

نماذج التذبذب الفراغي Vacuum Fluctuation Models:

تذهب معظم نظريات التضخم إلى أنّنا كلّما عدنا إلى الخلف وراء حاجز بلانك ـ أي: الثانية $١٠^{-٤٣}$ من الانفجار العظيم ـ انكمش الكون حتى يصبح مفردة. وتذهب نماذج الفراغ المتذبذب في المقابل إلى أنّ العالم قبل تضخمه لم يكن ككلٍ يتوسّع، وإنما كان فراغًا بدائيًّا في حال ثبات أزلي. وكانت تفاعلات الطاقة مستمرة في هذا المجال الفراغي، وهو ما نتج عنه تحوّل الطاقة إلى مادة، وبالتالي نشوء أكوان صغيرة، وبذلك فإنّ لكوننا بداية لا تمثّل البداية المطلقة، وإنّما هي مجرّد تغيّر في الكون الأزلي.

قدّمت هذه النماذج حلًّا مغريًا للخروج من إشكالية الكون المخلوق مع

---

(١) Gary Felder, Andret Frolov, Lev Kaufman, and Andrei Linde,"Cosmology with Negative Potentials," <http://arXiv:hep-th/0202017v2> (February 16, 2002).

(٢) تصريح مباشر من (ستينهارت) للفيزيائي (جيمس د. سنكلير) (James D. Sinclair):
William Lane Craig and J. P. Moreland, eds. *The Blackwell Companion to Natural Theology,* p.169.

(٣) P. Steinhardt, and N. Turok, The cyclic model simplified, p.5 <http://physics.princeton.edu/˜steinh/dm2004.pdf>.

الاعتراف بحقيقة ابتداء كوننا وتمدّده، لكنّها **لم تتجاوز في تاريخ حياتها العقد الثامن من القرن العشرين**، لا فقط لوجود إشكالات في آليات توليد المادة، وإنّما أيضًا لأنها تواجه إشكالات داخلية عميقة، ومنها أنّ افتراض أزلية الكون يقضي أن تنشأ من الطاقة أكوان أزليّة لا نهائية العدد، لتندمج بعد ذلك في ما بينها، وهذا ما يخالف حقيقة كوننا صغير السن نسبيًّا، فأزلية الطاقة الأولى التي يستحيل معرفة سبب تحوّلها إلى مادة، تقضي أن يكون ما ينشأ منها أزليًّا. الحلّ الوحيد للإشكال السابق هو افتراض تضخّم الفراغ الأوّل، وهو ما سيعيدنا إلى افتراض بداية مطلقة للكون، وهو ما يفرّ منه الملاحدة.

لقد فشل هذا النموذج في إقناع الراصدين، حتى قال عالم الكوسمولوجيا الكمومية الشهير (كريستوفر إشام): إنّه قد تمّ التخلّص من هذه النظرية منذ فترة بعيدة، ولم يتم إحياؤها منذ ذلك الحين[١].

نموذج هاوكنغ:

أحدث نموذج (هاوكنغ) ـ وهو نموذج مشترك مع (جيمس هارتل)، ولذلك يُسمى: (نموذج هارتل ـ هاوكنغ) ـ لنشأة الكون لبسًا في عقول القرّاء في الغرب لأنّه يثبت زمنًا قبل الانفجار العظيم، وهو ما قد يفهم منه القارئ العجِلُ أنّه ليس للكون بداية. والحقيقة أنّ الزمن الذي قبل الانفجار في نموذج (هاوكنغ) هو (زمن تخيّلي) (imaginary time)، وقد افترضه (هاوكنغ) لتصحّ معادلاته دون أن يرى له حقيقة، وكانت غايته تلافي المفردة التي نشأ منها كوننا، ولذلك اعترف بقوله: «عندما يعود المرء إلى الزمن الحقيقي الذين نعيش فيه، ستظل هناك مفردات»[٢].

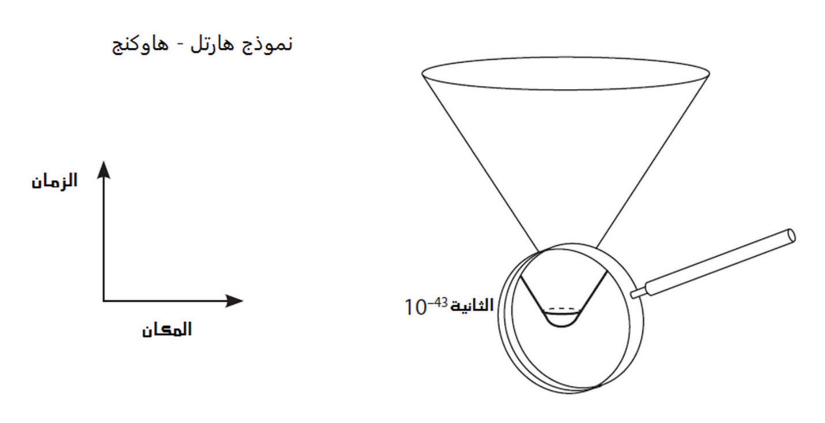
هذا المسلك المتمثّل في إضافة (زمن تخيّلي) هو ـ كما يقول الفيزيائي (جون برّو) ـ من دأب الفيزيائيين الذين يعمدون كثيرًا إلى تحويل الزمن إلى

(١) Christopher Isham, "Quantum Cosmology and the Origin of the Universe," lecture presented at the conference "Cosmos and Creation," Cambridge University, July 14, 1994

(٢) Stephen Hawking, *A Brief History of Time,* p. 139.

مكان لمعالجة بعض إشكالات ميكانيكا الكم، دون أن يتصوّروا أنّ الزمن هو في الحقيقة مثل المكان. وفي نهاية الحساب، يعودون إلى التفسيرات الاعتيادية للوجود على أنه بعد زمني واحد وثلاثة أبعاد للمكان[١]. ومن أهم من أفاد من مفهوم (الزمن التخيلي) عالم الكيمياء (ويليام هـ. ملر) (William H. Miller) سنة ١٩٦٩م عندما استعمله لفهم ديناميكية التفاعلات الكيميائية، ونال بذلك مجدًا علميًّا، دون أن يتحوّل الزمن التخيّلي عنده إلى حقيقة موضوعيّة.

ما فعله (هاوكنغ) هو أنه تخلّص من المفردة التي تمثّل فيزيائيًّا بداية المكان والزمان ليصبح تاريخ بداية الزمان كقاعدة ناعمة وليس كنقطة كما في النماذج الكلاسيكية، وبذلك لا توجد للبداية نقطة أولى! وهو تصوّر رياضي لا يمكن نقله إلى الواقع، أو بعبارة (فلنكن): مجرّد (ملاءمة حاسوبية) (computational convenience)[٢]. ولذلك قال الفيزيائي (دافيد بارك) (David Park): «من السهولة المخادعة تصوّر أحداث قبل الانفجار العظيم...، لكن لا سبيل البتّة في الفيزياء لأن يكون لهذه التصوّرات معنى»[٣].



(١) John D. Barrow, *Theories of Everything* (Oxford: Clarendon, 1991), pp.66-67.

(٢) Alexander Vilenkin, *Many Worlds in One: The Search for Other Universes* (New York: Hill and Wang, 2006), 182.

(٣) David Park, "The Beginning and End of Time in Physical Cosmology," in *The Study of Time IV*, ed. J. T. Fraser, N. Lawrence, and D. Park (Berlin: Springer Verlag, 1981), pp.112-113.

لم تتخلّص نظرية (هاوكنغ) من بداية الكون، فالأمر كما يقول (فلنكن) في تصويره لنماذج الكوسمولوجيا الكمومية ـ وهو من أنصارها ـ هو أنها تقرّر أنّ «الكون قد بدأ صغيرًا، شكلٌ هندسي ثلاثي الأبعاد، ويدخل مباشرة في نسق التضخم، مع تشكّل مناطق حراريّة جديدة بصورة دائمة. **للكون بداية في هذه الصورة** ولكن لا نهاية له»[1].

ومن المهم هنا التنبيه أنّ (هاوكنغ) يسير في ركب عامة الكوسمولوجيين، فهو القائل: «**اليوم، تقريبًا يؤمن الجميع أنّ الكون، والزمن نفسه، لهما بداية مع الانفجار العظيم**»[2]. والناظر في المقالات العلمية لـ(هاوكنغ) يرى أنه عندما يتحدث عن التصوّر الواقعي لنشأة الكون، يقرّر أنّ للكون بداية، سواء كانت هناك مفردة أم لا[3].

وعلينا أخيرًا أن نتذكّر أنّ (هاوكنغ) صريح في قوله: إنّه يلزم من وجود بداية للكون وجود خالق له؛ فهو الذي أعلن أنّه «**إذا كانت للكون بداية، فعلينا أن نفترض أنّ للكون خالقًا**، ولكن إذا كان الكون مكتفيًا بنفسه بصورة تامة، دون أن يكون له حد أو حافة، فلن تكون له بداية ولا نهاية»[4].

* * *

ماذا لو كان الكون ساكنا من الأزل؟

سبق لنا أن قلنا: إنّ الزمان هو مقدار الوجود بين حدثين، وفي غياب

---

(١) Alexander Vilenkin, "Quantum Cosmology and Eternal Inflation," p.11.

(٢) Hawking and Penrose, *Nature of Space and Time,* p.20

(٣) See Rodney D. Holder, *God, the Multiverse, and Everything: Modern cosmology and the argument from design,* (Aldershot, Hants, England; Burlington, VT: Ashgate, 2004), pp.60-61.

(٤) Stephen Hawking, *A Brief History of Time,* p.146.

وقد كرّر نفس هذا التعليق في كتابه الأحدث

Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, *A Briefer History of Time* (New York: Bantam Books, 2005), p.103.

الحركة بجميع أنواعها ينعدم الزمان، فهل ثبوت سكون الكون في الأزل حجة لإبطال الدليل الكوسمولوجي؟

دعوى سكون الكون في/من الأزل باطلة من الناحيتين العقلية والعلمية:

عقليًّا: ظهور الحركة في الكون «بعد» سكونه من الأزل إمّا أن يكون بسبب أو بغير سبب. إن قال الملحد: إنّ الحدث الأول نتج عن سبب، فقد أوقع نفسه في ما يحاذره؛ وهو افتراض ذات غير مادية متعالية على الزمان والكون الهامد أزلًا؛ إذ هي تسبقه أنطولوجيًّا. وإن قال: إنّ الكون قد انتقل إلى الحركة دون سبب، فقد زعم أنّ الشيء قد ينتقل من حال إلى آخر دون سبب، وهذا ظاهر الفساد!

علميًّا: ترفض حقائق العلم التسليم لدعوى الكون الساكن في/من الأزل لأنّ الكون الساكن هو ميّتٌ حراريًّا، ولا يمكن أن ينتقل إلى الحركة ـ إن افترضنا جدلًا إمكان وجوده دون حرارة، وهو غير ممكن أصلًا ـ حتى تُضخّ إليه الحرارة من الخارج، وهو ما يضطرّ الملحد إلى التسليم بوجود من هو خارج الكون، وهو ما يسعى لنفيه!

ربما توهّم البعض أنّ نظرية التموّج الكمومي تطابق ما نحن فيه؛ إذ ينشئ الكون الأزلي في لحظة ما البداية الأولى للكون في الفراغ الكمومي، وهو وهم لا يطابق الواقع لأنّ الفراغ الكمومي كما يقول أصحابه هو عالم من الطاقة المتحرّكة المضطربة، وهو ما يعني أنّه بعيد عن معنى السكون والجمود.

* * *

خلاصة النظر:

يُلاحظ من عملية السبر العلمي والتاريخي السابقة:

١ ـ دلالة الحقائق العلمية على حدوث الكون:

كلّ الحقائق العلمية المكتسبة بطريق شرعي والتي من الممكن البرهنة

عليها من واقعنا المادي تقطع أنّ الكون حادث وليس بأزلي. ورصيد المخالفين الوحيد هو **الإمكان** الرياضي أو الفيزيائي، وقد استطاع مخالفوهم ـ من المؤمنين بالله وعدد من أعلام اللاأدريين والملاحدة ـ نقضه علميًّا. وقد أقرّ الفيزيائي الملحد (ستيفن واينبورغ) (Steven Weinberg) ـ الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء، والقائل: إنّ «الدين هو إهانة للكرامة الإنسانية» (!) ـ بدلالة ظواهر كشوف العلم في ختام القرن العشرين على ما يخالف عقيدته: «عبر جلّ هذا القرن، كان وزن الحجّة العلميّة هو لصالح بداية [للكون]، وهو ما منح الذين يؤمنون بالخلق فوق الطبيعي شعورًا بالارتياح»[١].

٢ ـ الانتصار البرهاني للانفجار العظيم:

لا زالت نظرية الانفجار العظيم صامدة رغم الهجمة الشرسة التي شُنّت عليها لصالح القول بأزلية الكون، وهي لا تزال إلى اليوم النموذج المقرّر في أقسام الكوسمولوجيا في ظرف بلغ فيه طائفة من الكوسمولوجيين درجة التطرّف النظري والخروج عن مقتضيات الاستدلال العلمي بالشواهد الماديّة. ولم تزد الكشوف العلمية هذا النموذج إلّا صلابة وثباتًا بتأكيد مجمل نبوءاته. ومن أدلة صموده أنّ (لورنس كراوس) قد اضطرّ للزعم أنّ الكون قد خلق من عدم، بصورة متكلّفة ومتهافتة ليفرّ من الإقرار بوجود الخالق، ومع ذلك اعترف أنّ «نظرية الانفجار العظيم على حال جيّدة»[٢]؛ أي: إنها موافقة لمعارفنا العلمية، بل قال في مناظرته المشهودة مع (وليام لين كريغ) (أوغسطس ٢٠١٣م): «أنا واثق[٣] أنّ لكوننا بداية، لكنني لست على يقين من ذلك... بناء على ما أعرفه من علم الفيزياء، عليّ أن أقول إنّ بداية

(١) Steven Weinberg, *Facing up: Science and its cultural adversaries* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2001), p.54.

(٢) Lawrence Krauss, *A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing* (New York: Free Press, 2012), p.21.

(٣) حرفيًا: «أنا أراهن على». وتستعمل العبارة في اللسان الأمريكي بمعنى الوثوق في الأمر.

الكون إمكانية راجحة»[1]؛ جاعلًا سبيله لإنكار الخالق في غير إنكار هذا الانفجار.

٣ ـ حقيقة الخلاف:

النقاش الدائر **اليوم** بين المؤمنين وجل الملاحدة ليس ـ في حقيقته ـ حول نشأة كوننا من انفجار عظيم، **وإنما حول ما إذا كان الانفجار العظيم هو بداية كلّ شيء أو أنه جزء متأخر من سيناريو أزلي**.

٤ ـ الفشل العلمي لإثبات أزلية الكون:

فشلت **جميع** البدائل المطروحة اليوم والتي يحاول الملاحدة اعتمادها كبديل لنظرية الانفجار العظيم لإثبات أزلية الكون، علمًا أنه للخروج من إشكالية الخلق من عدم، ذهب الكوسمولوجيون الماديون إلى كلّ **الاحتمالات المتصوّرة عقلًا**:

أ ـ الكون نشأ من عدم، لكن هذا العدم وجود مادي، وهذا تناقض.

ب ـ كوننا هو الوجود المادي الوحيد، لكنّ هذا الوجود يجدّد نفسه كل مرة. وهي دعوى باطلة من أوجه، ومن أهمها تعارض ذلك مع القوانين الفيزيائية بما لا يسمح بردّ الكون نفسه إلى الوجود مرة أخرى أو مرات لامتناهية.

ت ـ كوننا جزء من كون أم، وهو تصوّر لا دليل مادي عليه؛ لقصور آلة معرفتنا عن تخطي حدود كوننا، وبالتالي فكلّ ما يقال هنا هو محض خيال، كما أنّ هذا النموذج عاجز عن أن يفر من التناهي الزمني لدخوله تحت (مبرهنة بورد وغوث وفلنكن) القاطعة أنّ كل كون متمدد فهو غير أزلي.

---

(١) "I'd bet our universe had a beginning, bet I am not certain of it.... based on the physics that I know, I'd say it is more likely possibility".

المناظرة مرئية هنا:

https://vimeo.com/73280102

مكتوبة هنا:

http://www.reasonablefaith.org/life-the-universe-and-nothing-has-science-buried-god

وقد درس (أُدري مثاني) (Audrey Mithani) و(ألكسندر فلنكن) في بحث بعنوان: «هل للكون بداية» (٢٠١٢م)، أهم ثلاثة مذاهب برأيهما تزعم أنّه ليس للكون بداية، وهي التضخم الأزلي، ونموذج الكون المتذبذب، ونموذج ثالث لكون طارئ كان في حال سكون أزلي في شكل البذرة قبل أن تتوسّع. وقد كانت نتيجة دراستهما هي التصريح التالي: «يبدو أنّه من الراجح الجواب في هذه المرحلة عن هذا السؤال: (هل للكون بداية؟) بالإيجاب. لقد تعرضنا هنا إلى ثلاثة سيناريوهات يبدو أنها تعرض لطريق يتفادى البداية، ووجدنا في الواقع أنّه ليس منها ما بإمكانه أن يكون بلا بداية في الماضي»[١].

٥ ـ البدائل مجرد فروض غيبية:

حجّة البدائل المطروحة تكمن في تقديم افتراضات متقدمة عن زمن ما قبل (جدار بلانك)، وهو جدار عجز العلم إلى اليوم عن تجاوزه، وبالتالي فالالتجاء إلى مساحة الجهل في هذه النظريات تعبير عن وقوف ما نعلمه من تاريخ الكون ضدها لصالح نموذج الانفجار العظيم الذي نشأ به المكان والزمان. والأمر ما قاله (لويس ج. كلافلي) (Louis J. Clavelli) ـ أستاذ الفيزياء النظرية في (جامعة ألباما) عن الانفجار العظيم ـ: «تشير أعداد ضخمة من الملاحظات الفيزيا ـ فلكيّة الآن إلى بداية لكوننا... في الحقيقة، **لا توجد حجّة** أنّ أيًّا من جسيمات المادة التي نعرفها اليوم قد وجدت قبل هذا الحدث العظيم»[٢].

وقد فضح (جاسترو) عقلية الكوسمولوجيين المادية المأسورة في قفص السبب والأثر الدائمين، قائلًا: إنّهم يؤمنون أنهم بشيء من الوقت والمال

---

(١) Audrey Mithani and Alexander Vilenkin, "Did the universe have a beginning?" < arXiv:1204.4658v1 [hep-th] 20 > Apr 2012, 5

(٢) مقال بعنوان: «A Supersymmetric Universe?» على الموقع الرسمي للجامعة.

< http://bama.ua.edu/~lclavell/pages/ssu.html > (10/5/2012)

بإمكانهم الوصول إلى حلّ علمي لبداية الكون يوافق عقليتهم المادية ويلغي كلّ تفسير خارق. ثم أردف قائلًا: إنّ (الانفجار العظيم) قد **مسح كلّ أثر من الممكن الاستدلال به على غير ما نشهده اليوم**[١].

كما أقرّ الكوسمولوجي (ألان غوث) بالعجز بعد دراسته كلّ النظريات المتاحة لوجود الكون بقوله: «رغم **كلّ الجهد الذي بذله علماء الفيزياء لبناء بديل، إلّا أنّ كلّ النماذج التي بنيناها لها بداية**: كلّها أبدية في المستقبل لكنها ليست كذلك بالنسبة للماضي»[٢].

٦ ـ غياب التاريخ والآلية:

نجاحُ أي نظرية كونية رهين إثبات صحتها تاريخيًّا (من خلال آثارها الباقية أساسًا)، والكشف عن آلية عملها. والناظر في كل النظريات المخالفة لـ(نظرية الانفجار العظيم) يكتشف أنها عاجزة عن إثبات صحتها الذاتية تاريخيا، وأنّها لم تقدّم آلية علميّة عليها دليل، وإنما هي بين نظريات بلا آلية، أو آلية معيبة أو قاصرة. ولعلّ أكثر العلماء حماسة للخروج من مأزق بداية الكون هم العاملون لنصرة رواية كمومية لتاريخ الكون، لكنّ الجميع يقرّ رغم ذلك أنّه لا توجد إلى اليوم (نظرية كمومية للجاذبية) (quantum theory of gravity) بما يكشف أنّها حماسة غير مبررة على مستوى أصول التنظير.

ومما يلفت انتباه القارئ للنماذج الكونية المقترحة لما قبل (الانفجار العظيم)، تنوعها الكبير، وتباعد دعاويها بصورة واضحة حتى إنّ بعضها لا يشارك الآخر في كثير من أصوله، وجليّ أنّ سبب ذلك هو قيام هذه النماذج التي ينتصر لها بعض أنصار الإلحاد على غير برهان، وإنّما هي محض تصوّرات حسابيّة مبتوتة الصلة بالواقع، يحكمها رجاء الوصول إلى كون قبل

---

(١) Message from Professor Robert Jastrow <http://www.leaderu.com/truth/1truth18b.html>.

(٢) Alan Guth, "Eternal Inflation," *Cosmic Questions,* April 14-16, 1999, National Museum of Natural History, Washington, D.C., p.13.

كوننا، ووجود لانهائي البدء، وذاك يخالف مبدأ الملحدين في الاقتصار على براهين الواقع، ولفظِ الغيبيات!

وقد دفع ما سبق (روبرت جاسترو) إلى أن يقول ساخرًا عند حديثه عن النظريات الباحثة عن حقيقة الكون قبل الثانية ١٠^-٤٣^ : «يبدو لي أنه من السذاجة صناعة نظريات مفصّلة تريد أن تجيب على أسئلة فلسفية ودينية وكذلك علمية على أساس التخمين حول ما وقع في زمن لم تتم ملاحظته مباشرة أو بطريق غير مباشرة»[١].

٧ ـ الكون الأزلي الموزون:

كلّ محاولة للخروج من مأزق وجود بداية أولى للكون قبل (الانفجار العظيم) تحتاج صياغة نموذج معقد جدًّا قائم على تقدير مضبوط ومُحكَم يسمح للكون بالبقاء، والتحرّك، وربّما التضخّم، ومواجهة عوامل الفناء من الأزل، وهو ما يؤدّي إلى نتيجة خطيرة غفل عنها الملاحدة (وجلّ من ردّ عليهم)؛ وهي أنّ هذه النظريات التي تنفي الإلٰه الخالق من العدم، تثبت في نفس الآن وجوب الإيمان بمن أبدع المقادير والنظام والتصميم في هذه النماذج المزعومة؛ لأنّ هذه النماذج قائمة على الذكاء والحكمة والتقدير الموزون، وهي بعيدة كلّ البعد عن عشوائية الماديّة الدهريّة وعماها؛ فالملاحدة قد فرّوا من «دليل الخلق» ليرتموا ـ بحماسة وعن غير إرادة ـ في حضن برهان (المعايرة الدقيقة) (Fine - tuning)، وفي كُلٍّ طريق إلى الله ـ سبحانه ـ!

٨ ـ حدود معارفنا المادية اليوم:

تلزمنا معرفتنا **بالكون الذي نعيش فيه** ونرصد تاريخه القديم ـ كما يقول الفيزيائي **الملحد** (روجر بنروز) ـ أن نؤمن بثلاثة أمور متزامنة حتى تكون رؤانا متوافقة مع ملاحظاتنا المادية، وهي:

---

(١) Henry Margenau and Roy Abraham Varghese, eds. *Cosmos, Bios, Theos*, p.47

• نشأة الكون، بمادته وطاقته وزمانه، من العدم.

• التوازن الدقيق بين المادة والطاقة عند نشأة الكون حتى لا يتقلص الكون إذا غلبت الجاذبية أو تتبعثر المادة إذا كانت الجاذبية أقل من المطلوب بعد الانفجار.

• يحتاج الكون في بدايته الأولى إلى توازن دقيق جدًّا بين عناصره الكثيرة دون أن يكون هناك أي ارتباط بينها ولا تواصل[1].

الحقائق الثلاث السابقة فصيحة في دعوتها العقول إلى الإقرار بأنّ كوننا صنعةُ ذاتٍ لامادية بالغة الحكمة، عظيمة القدرة، وعند هذه الحقائق تتكسّر ظنون المادية التي تزعم أنّ الكون ليس إلا مادة وطاقة أزليتين عابثتين.

٩ ـ توافق نادر للدليلين الفلسفي والعلمي:

انتهى البحث العلمي اليوم إلى تأييد الدليل الفلسفي على خلق الزمان، وهو ما يعني أنّ المؤمنين بالله يجمعون اليوم **لأوّل مرّة في التاريخ** طرفَي برهان الخلق: العقلي والعلمي.

لا توجد البتة دلائل علمية على أزلية الكون، وكلّ النماذج الكبرى المطروحة فشلت في الوصول إلى الأزلية، وكلّ أمل في إنكار الأزلية لا بدّ أن يُثبت حاجة الكون أو الأكوان إلى مصمم عظيم.

الخيارات الممكنة المطروحة:

لا يسمح لنا النظر في تاريخ الكون بأكثر من خيارين، إمّا القول بأزلية الكون، واستغنائه بنفسه عن الخالق (ولا يلزم من ذلك منطقيًّا نفي الخالق عند كثير من الفلاسفة القدماء، لكنه يصادم عقيدة الإسلام في أنّ كلّ شيء في العالم مخلوق، وأنّ الله خالقه) أو القول: إنّ الكون مخلوق، وهو ما يلزم منه الإقرار بالخالق.

---

(١) Ibid., p.82.

يقول الفيلسوف الماركسي (جورج بولتزر) (George Politzer) الموالي للنموذج الأزلي للكون، في كتابه «مبادئ أساسية للفلسفة»: «ليس الكون شيئًا مخلوقًا، ولو كان كذلك فيلزم أن يكون مخلوقًا بصورة فورية من الله، ووُجد من لاشيء»[1]. إنّها حقيقة بدهية في التفكير الفلسفي السليم، وعلى المرء أن يستسلم لما يقود إليه الدليل!

قد يختار الملحد أن يفرّ إلى المجهول بالقول: إنّ معارف الإنسان قد تتطوّر لتكشف أنّ الكون أزلي، وما العلم إلّا قول يعقبه تصحيح وتطوير إلى ما لا نهاية. والردّ عليه من أوجه:

١ ـ دعوى الملحد السالفة ضد المنطق العلمي الذي يكثر فلاسفة الإلحاد من الدندنة حوله، فالملاحدة ـ مثلًا ـ تطوّريون بالضرورةِ في فهمهم لتاريخ عالم الأحياء؛ لأنّ إنكار التطوّر ـ باعتراف (داوكنز) وغيره ـ يعني: الإقرار بدعوى التصميم الإلٰهي، لكنّ رؤوس الملاحدة ينكرون كلّ إمكان لفشل نظرياتهم التطوّرية، ويرون دعواهم العلميّة من الحق الذي لا يمكن نقضه، الآن وغدًا. والملاحدة بذلك انتقائيون في فهم تطوّر العلم، وقطعيّة أدلّته!

٢ ـ ليست الكشوف العلمية سواء، فمنها ما يحتمل إعادة النظر، ومنها ما لا يحتمل النقض، ومن ذلك القانون الثاني للديناميكا الحرارية الذي يقدّم حقائق كونية قاطعة، خاصة في تفسيره التحوّل من النظام إلى الفوضى والعشوائية.

٣ ـ إذا اختار الملحد إسلام أمره إلى كشوف غيبية قد تأتي وقد لا تأتي، مستسلمًا «لعلم الفجوات»، فعليه عندها أن يتحوّل من الإلحاد إلى اللاأدرية، فإنّ الإلحاد لا بد أن يكون عن سبب إيجابي، فهو عنوان رفض لا وجوم.

---

(١) George Politzer, *Principes Fondamentaux de Philosophie* (Paris: Editions Sociales, 1954), p. 84.

٤ ـ يبقى **الدليل العقلي** على خلق الكون قائمًا، وهو قاطع، ومستغن عن تطورات العلم.

إشكالات حول السؤال

﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [الزُّخرُف: ٢٢]

يطرح سؤال الملاحدة: «... فمن خلق الله؟» مجموعةً من الإشكالات المضمرة أو الاعتراضات التي تنشأ مع مُضيّ الفريقين ـ الملاحدة والمؤلّهة ـ في إنشاء نقاش طويل تتفرّع عنه إشكالات مبدئية أو مسائل جانبية يظهرها الحفر النقدي. ولذلك علينا أن نكشف هذه المضمرات ونناقشها هنا حتى لا يزعم المخالف أنّ نقاشنا السابق لمشكلة أسبقيّة الخالق على الزمان قد أهملها عمدًا لأنّها تنقض تقريراتنا الكبرى، كما أنّ من هذه الإشكالات ما يمسّ الفساد الذاتي لشبهة الملحد بما يقتضي استحضارها أمام ناظرَيه. ولعلّ أهم الأسئلة التي تستدعي النظر هي:

- هل وقع الملحد في «أغلوطة الفئة؟».
- هل تورّطنا نحن ـ حقًّا ـ في «أغلوطة التركيب؟».
- هل يعجز العقل عن تصديق وجود من لا بدايةَ زمنية له؟
- بماذا يَفْضُل جواب أوّليّة الله ـ سبحانه ـ دعوى أوّليّة المادة؟
- هل يدلّ البرهان العلمي بذاته على وجود الله؟
- كيف يخلق الله قبل ميلاد الزمن؟!
- ماذا كان الله ـ سبحانه ـ يفعل قبل خلق العالم؟
- ماذا لو فشل الدليل الكوسمولوجي عن الإجابة على السؤال؟

أغلوطة الفئة:

يقع السؤال عن خالق الخالق ضمن الأغلوطات المنطقية، وتحديدًا ما يعرف بـ(أغلوطة الفئة) (The category fallacy)، وهي تتمثّل في خلط الفئات، بربط الشيء بغير فئته التي هو منها، كالسؤال عن لون الروائح (لون رائحة البنفسج!)، أو طعوم الألوان (طعم اللون البنيّ!).

مظهر المغالطة هنا هو السؤال عن الخالق الذي هو في تعريفٍ مجمل يفيدنا في هذا المقام: «القائم بنفسه، الذي لا سبب لوجوده خارج ذاته». إنّه سؤال عن سبب وجود مسبّب الوجود، وواجب الوجود، الذي وجوده حتم عقلًا. هو سؤال عمّن أوجد المكان والتاريخ، فكيف يكون له تاريخ؟! إنّ السؤال عن سبب السبب الأوّل متناقض في ذاته لأنّه يفترض إمكان مناقضة الشيء نفسه.

لسنا نثبت باعتراضنا على الملحد وقوعَه في (أغلوطة الفئة) **أنّ الله موجود**؛ فخطأ الملحد في فهم معنى (الألوهية الخالقة) لا يثبت بذاته وجود الله، ولا أنّ الخالق بلا بداية، وإنّما نحن نقرّر أنه إن وُجد الله فلا بد أن يكون بلا بداية. ونحن بذلك لا نفترض وجوده بدءًا، وإنّما ننكر على المنكر إنكاره حقيقة تعريف (الألوهية الخالقة) بفك التلازم بين الألوهية والأزليّة.

إنّ إنكارنا على الملاحدة هنا صياغتهم للاعتراض هو لبيان أنّهم لم يفهموا معنى «الإلٰه» الذي ننتصر لوجوده، فإنّنا لا نخالف الملاحدة حاجة الإلٰه إلى من يخلقه لو كنا نتبنى مذهب «الإلٰه المخلوق» كما هي عقيدة بعض الأديان القديمة، وإنّما نحن نؤمن بخالق واجب الوجود، يلزم من عدمهِ الزَمني تناقض عقلي.

بعبارة أخرى، تعريفنا للإله أنه واجب الوجود وأنّ إرادته علّة لكلّ الموجودات، ليس اعتباطيًّا؛ إذ صفة الواجبيّة هي التي تفسّر وجود الوجود ضمن سلسلة عليّة متناهية لها بداية؛ فالملاحدة لم يحسنوا فهم الدليل الكوسمولوجي، ولذلك اعترضوا عليه بأمر ليس هو من حقيقته، كمن

يعترض على اللون الأحمر طعمَه، أو مفهوم الشكّ لونَه!

ثمّ إنّ الملاحدة يذهبون إلى أن المؤمنين بالله ينطلقون لإثبات وجود الخالق من دعوى أنه لا بد لكل شيء من خالق، وما دام الكون شيئًا فهو مخلوق، فهو محتاج إلى خالق، وهم بذلك (المؤمنون) يقعون في التناقض؛ إذ إنهم قد قرروا في ابتداء استدلالهم أنه لا بد لكل **شيء** من سبب، لكنّهم استثنوا الإلٰه رغم أنه **شيء** أيضًا.

العرض الإلحادي للدليل الكوسمولوجي فيه تحريف واضح لاستدلال الألوهيين على وجود الله، إذ لا يزعم الألوهيون أن **كلّ شيء** لا بدّ له من محدث، وإنما هم يقولون: إنّ **كل شيء حادث** لا بد له من محدِث، أو بعبارة أخرى: لكلّ أثر سبب. وبين دليل الألوهيين كما يجري على ألسنتهم، وصورته التي ينقلها عنهم كثير من الملاحدة فرق شاسع، إذ الألوهيون يقولون إنّ الحادث لا بد له من محدث؛ أي: إنّ الأثر لا بد له من سبب، ولا يزعمون البتة أنّ كل شيء ـ لمجرد أنه شيء ـ يحتاج إلى محدث، فلكلّ سبب أثر، ولكلّ أثر سبب، ولكن ليس لكلّ سبب سبب، فالشيء قد يكون سببًا من جهة وأثرًا من جهة أخرى، كما قد يكون سببًا دون أن يكون أثرًا من جانب آخر (وقد يكون أثرًا دون أن ينتج عنه أثر). والظنّ أنّه لا بد لكل شيء (السبب والأثر على السواء) من سبب يعني أنّنا نعيش في كون غير عقلاني. وفي كون لاعقلاني لا يمكن أن نتعلّم شيئًا؛ لأنّ عقلانية الواقع شرط للتعلّم![1].

وقد انتقد الفيلسوف (إدوارد فزر) الصيغة الإلحادية للدليل الكوسمولوجي في شكلها المحرّف بقوله: «في الحقيقة، لم يقدم البتة أحد من المدافعين المشهورين عن الدليل الكوسمولوجي في تاريخ الفلسفةِ الحجّةَ الغبيّة: «لا بدّ لكلّ شيء من سبب» ـ لا (أفلاطون)، ولا (أرسطو)، ولا (الغزالي)، ولا (ابن ميمون)، ولا (توما الأكويني)، ولا (يوحنا دانز سكوتس)، ولا (ج. و.

(١) R. C. Sproul, *Not a Chance: The myth of chance in modern science and cosmology*. pp.170-171.

ليبنتس)، ولا (صموئيل كلارك)، ولا (رجينال غريغو ـ لاغرنج)، ولا (مرتمر أدلر)، ولا (ويليام لين كريغ)، ولا (ريتشارد سونبرن)، ولا أحد غيرهم في حدود علمي»[1]. وقد أصاب (فزر) الحقّ في تقريره؛ إذ إنّ علماء اليونان واليهود والنصارى والمسلمين الذين اعتمدوا الدليل الكوسمولوجي على اتّفاقٍ أنّ الغاية من ورائه هي إثبات وجود استثناء لقاعدة السببية أو قاعدة الإمكان.

وقد يسأل معترض:

لماذا نحن في حاجة أصلًا للبحث عن الكائن الأزلي أو المتعالي على الزمان؟

أليس في ذلك استدعاء عمدي غير موضوعي ولا علمي للإله؟

أليس في ذلك تحايل للوصول إلى المطلوب؟!

لماذا لا تطرحون مبدأ السببية إلّا للوصول إلى تقرير عقيدتكم، دون اطّراد؟ وهي التهمة التي استظهرها الفيلسوف (شوبنهاور) ضدّ خصومه من المدافعين عن الدليل الكوسمولوجي؛ إذ يرى أنهم يتعاملون مع مبدأ السببية «مثل استدعاء سيارة تاكسي؛ إذ إننا نهملها عندما نصل إلى مقصدنا»[2].

والجواب على الاعتراض السابق هو بالقول:

١ ـ «مِن لا شيء، لا ينشأ شيء»؛ أي: إنّ علمنا بوجود الكون يقتضي القول: إنّه يحتاج إلى سبب لوجود أفراده، الآن، وكلّما سرنا القهقرى في حركة التاريخ نحو الماضي.

٢ ـ لا يمكن لشيء أن يوجد في الكون، إذا سُبق الكون بالعدم المحض.

٣ ـ لا يمكن لسلسلة العلل إلّا أن تتناهى في الماضي؛ إذ يقطع العقل

---

(١) Edward Feser, 'The New Philistinism' in the *American magazine* <http://www.american.com/archive/2010/march/the-new-philistinism>.

(٢) Arthur Schopenhauer, *On the Fourfold Root of the Principle of Sufficient Reason and on the Will in Nature*, trans. Karl Hillebrand (London: G. Bell, 1889), pp. 42-43.

أن لهذه العلل بداية؛ لأنه إن لم تكن لها بداية لم يكن لها وجود.

ـ الكائن الذي يفرض العقل علينا أن نسلّم أنه واجب الوجود، لا بدّ أن يكون بالضرورة العقلية متعاليًا على العلل المتناهية في الماضي.

وقد يكون الاعتراض الإلحادي متوجهًا فقط الى الدليل العلمي على خلق الزمان. والملحد هنا يقول: إنكم تعتمدون الدليل العلمي المادي للقول بخلق العالم، لكنكم تتنكرون للدليل المادي بعد ذلك لإثبات وجود الله!

يكمن فساد الاعتراض الأخير في ثلاثة أوجه:

١ ـ افتراض الملحد أنّ استعمال التعليل المادي في مسألة ما يقتضي أن يطّرد في جميع المسائل ليس بمسلّم لأنّه لا بدّ أن تتوافق طبيعة الدليل مع طبيعة الموضوع، فقد أوصلَنا البرهان المادي إلى أنّ للمادة بداية، ولذلك علينا أن نتعامل مع نشوء المادة من عدم خارج قوانين المادة لأنّه لم تكن مادةٌ أصلًا حتى يكون لقانونها وجود.

٢ ـ يفترض الملحد أنّ الدليل العلمي هو الدليل الوحيد المقبول، وهي دعوى لا تسلّم له لأنّ الدليل العقلي له محلّ في هذا النقاش، بل له اليد العليا. واستدلالنا لوجود الله قائم على البرهان العقلي ثم تأكيده بالدليل العلمي من باب التثبيت لا الإنشاء.

٣ ـ ينكر الملحد ـ ضمنًا ـ أن يكون فوق القوانين خالق خلقها، وذاك ظاهر من افتراضه أزليّتها، وهذا المبدأ ليس بمسلّم، بل هو محلّ نظر ومحاججة، فمن المسلّم به أنّ هذه القوانين ممكنة الوجود وليست واجبة الوجود، كما أنّ إثبات خلق الزمكان حجة لأنها حادثة، ثمّ إنّ طبيعة عملها كاشفة أنّ وراءها خالقًا مبدعًا.

وبإمكاننا التعبير عن مذهبنا بصيغة أخرى، بالقول: إنّ هناك تفسيرًا لوجود كل موجود، ونحن هنا نميّز بين الممكنات التي تفسير وجودها هو في سبب خارج عنها، وواجب الوجود الذي تفسير وجوده في ذاته؛ لأنّ وجوده متعيّن عقلًا، وافتراض عدم وجوده مُوقع في التناقض.

هل نحن نرتكب «أغلوطة التركيب؟»:

(أغلوطة التركيب) (The fallacy of composition) هي أغلوطة تقوم على افتراض أنّ الشيء لا بدّ أن يوصف بصفة أفراده. وقد أشار عدد من الفلاسفة الذين يعترضون على الدليل الكوسمولوجي إلى أنّ هذا الدليل يقوم على مغالطة التركيب لأنّه يبني على القول: أنّ كلّ شيء في الكون حادث أنّ الكون بأكمله مخلوق أي:

كلّ شيء في الكون له بداية = الكون بأكمله له بداية.

أيسر طريق للردّ على هذه الدعوى هو أن نسأل: هل يمثّل كلّ استدلال يقوم على نسبة صفات الأفراد للكلّ مغالطة منطقية؟ والجواب من خمسة أوجه:

الوجه الأول: صحيح أنّ الاستدلال بصفات الأجزاء على أنّ الكلّ يحمل نفس الصفة قد يخطئ أحيانًا، ومثال ذلك الاستدلال التالي:

١ ـ كلّ الطوب صغير.

٢ ـ الجدار مبني من الطوب.

٣ ـ إذن فالجدار صغير.

لكن الاستدلال بصفات الأفراد هو في عامة الأحوال صحيح، ومثال ذلك:

١ ـ كلّ الطوب أحمر.

٢ ـ الجدار مبني من الطوب

٣ ـ إذن فالجدار أحمر.

للتفريق بين الأمرين، نقول: إنّ الأصل في الكلّ أن يحمل صفات الأجزاء لأنّه ليس أكثر من مجموعها، وعلى المخالف أن يثبت صحّة الاستثناء لوجود قرينة على ذلك، كأن يؤول جَمع الأجزاء إلى اختفاء صفاتها الأولى (كالصغر أو الشفافية إذا وُضعت متقابلة...) لأنّ طبيعة الجمع حسابيًّا أو فيزيائيًّا... تؤول إلى فقدان الكلّ صفات الأجزاء، وفي غياب هذه القرينة

التي يحمل المخالف عبء إثباتها يبقى الأصل أنّ الكلّ يحمل صفات أعضائه. ولا قرينة على أنّ أجزاء الكلّ المخلوقة تجعل المجموع واجب الوجود أو أزليًّا.

الوجه الثاني: ليس في الكون غير عناصر ممكنة الوجود، وليس منها شيء يُلزم العقل أنه واجب الوجود؛ أي: يترتّب على عدمه محال؛ أي: تناقض، وهو ما يؤكّد أنّ العالم المادي من جنس مثال الطوب الأحمر؛ إذ لا يؤدي اجتماع ممكنات إلى جعلها واجبة الوجود، فالممكن لا يتحوّل منطقيًّا إلى أمر محال عدمه باجتماعه مع بعض.

ومما يُثبت ما نقول أنّ توقّف وجود كلّ العناصر ممكنة الوجود في الكون عن الوجود مرّة واحدة سيؤول مباشرة إلى اختفاء الكون، وليس واجب الوجود كذلك؛ إذ إنّ وجوب الشيء عقلًا لا يتأثّر باختفاء بعضه، بل هو لا يتجزّأ أصلًا.

يقول الفيلسوف (بروس ريكنباك): «إنّ مجموع (الكائنات الممكنة) (contingent beings) ليس إلّا مجموع أفراد الكائنات الممكنة؛ إنّه ليس شيئًا أكبر أو أقلّ من هذه الكائنات. كلّ واحد منها إذا وُجد من الممكن تصوّر عدم وجوده. ولكن ما الذي يمكن أن يقع إذا توقّفت كلّ هذه الكائنات عن الوجود في اللحظة التالية، وهي إمكانية قائمة إذ إنّ كلّ منها ممكن؟ بداهة، إذا وقع هذا الأمر فإنّ المجموع نفسه سيتوقّف عن الوجود؛ إذ إنه إذا كان المجموع هو حصيلة مجموع كلّ أجزائه، ولم تكن هناك أجزاء، فإنّه يلزم من ذلك استحالة أن يوجد المجموع، ولكن إذا كان هذا هو الحال فإنّه من اللائق جدًّا تصوّر أنّه ليس بإمكان المجموع أن يوجد. وإذا كان بالإمكان تصوّر عدم وجود المجموع، لزم من ذلك أيضًا أنّ المجموع ممكن أيضًا، وبالتالي إذا كانت كلّ أجزاء الشيء ممكنة، لزم أن يكون المجموع كذلك ممكنًا، وأمكن تصوّر عدم وجوده»[1].

---

(١) Bruce R. Reichenbach, *The Cosmological Argument: A Reassessment,* p.102.

الوجه الثالث: الحكم على الشيء أنه ضروري الوجود نابع من حقيقة جوهره التي تمنع الحكم عليه أنّه مستحيل العدم، وليس في الكون شيء مما يدلّ على ذلك.

الوجه الرابع: الكون في حقيقته هو مجموع أسباب وآثار، ولما كان مجموع هذه الأسباب والآثار متناهيًا له حد في الزمن، لاستحالة أن تكون الأسباب والآثار لامتناهية، لزم عندها أن تحمل هذه السلسلة صفات أفرادها المتناهية، فتكون بذلك متناهية، وبالتالي مخلوقة، تعود إلى سبب أوّل خارج عنها.

الوجه الخامس: الكون مركّب من أجزاء، وكلّ مركّب ممكن الوجود؛ إذ إن تصوّر انفكاك تركيبه ممكن عقلًا، ووجوده مركبًا لا يفسّر نفسه، وبالتالي فوجوده غير ضروري.

مشكلة الأوّل الذي ليس قبله شيء:

كتب (سام هاريس) (Sam Harris) ـ وهو أحد أعمدة (الإلحاد الجديد)، وإن كان جدله الأكبر في فائدة الدين كمكون قِيَمي وسياسي للمجتمع، مع عدوانية طافحة ضد الإسلام ـ في الاعتراض على الدليل الكوسمولوجي: «يطرح مفهوم الخالق بصورة مباشرة مشكلة التقهقر اللانهائي (infinite regress). إذا كان الكون قد خلقه الله، فمن خلق الله؟ القول: إنّ الله بالضرورة (by definition) غير مخلوق، هو افتراضٌ غير مبرّر لصحّة ما يُطلب إثباته»[1].

هل قولنا: إنّ الله هو ضرورة الأوّل الذي لم يسبقه شيء مصادرة على المطلوب؟

يتّفق المسلمون وعامة الملحدين وبقيّة العقلاء على أنّه: «لا ينشأ شيء من لاشيء». وبالنظر في الكون اليوم، علمنا أنّ الكون لا يمكن أن يكون

(١) Sam Harris, *Letter to a Christian Nation* (New York: Knopf, 2006), p.73.

أزليًّا لأنه لا يحمل شروط الكائن الأزلي. ولو افترضنا أنه سُبق بكون آخر كان وانتهى، فسيكون ذاك الكون متناهيًا في النهاية، وبالتالي متناهيًا في البداية، ومن الممكن أن نستمر في تصوّر أكوان سابقة، ولكنها ستكون كلّها مخلوقة ضرورة لأنّ لها نهاية، وما كانت له نهاية فله بداية. ولا حلّ لهذا التسلسل إلّا بأن نفترض كائنًا أوّل لا بداية له؛ أي: متعال على الزمان، إذ الزمان نفسه مخلوق، ومِن إرادة هذا الأوّل نشأ العالم. وهو الذي نسمّيه نحن: «الله» ـ سبحانه ـ.

قولنا إذن: إنّ الله ضرورة لا أوّل له ليس مصادرة على المطلوب وإنّما هو إذعان للمطلوب عقلًا بتقرير أنّه إذا كان لا ينشأ شيء عن العدم المحض، كان علينا المسير إلى القول بوجود كائن لا أوّل له. للملحد أن يقول: إنّ المادة هي هذا الأوّل، وللمسلم أن يخالفه بالقول: إنّ الأوّل هو الله، ولكن على كلٍّ منهما أن يستظهر بيّنته. ولذلك يقول الفيلسوف (أوستن فرار) (Austin Farrer) في تحديد محلّ النزاع: «ليس الإشكال بين الملحد والمؤمن حول شرعية التساؤل عن الحقيقة النهائية، وإنّما حول سؤال: «ما هي الحقيقة التي تعتبر نهائية؟». الحقيقة النهائية للملحد هي الكون، والحقيقة النهائية للمؤلّه هي الله»[١].

الضرورة العقليّة قائمة على وجوب الاعتقاد في وجود من/ما لا زمن قبله، والفيصل في الخيارات المطروحة لا ينفي وجود الأوّل غير المسبوق بعدم وإنما يحدّد هويته. فلا مفرّ إذن من القول بمن لا سبب لوجوده، ومن لا زمن يسبقه.

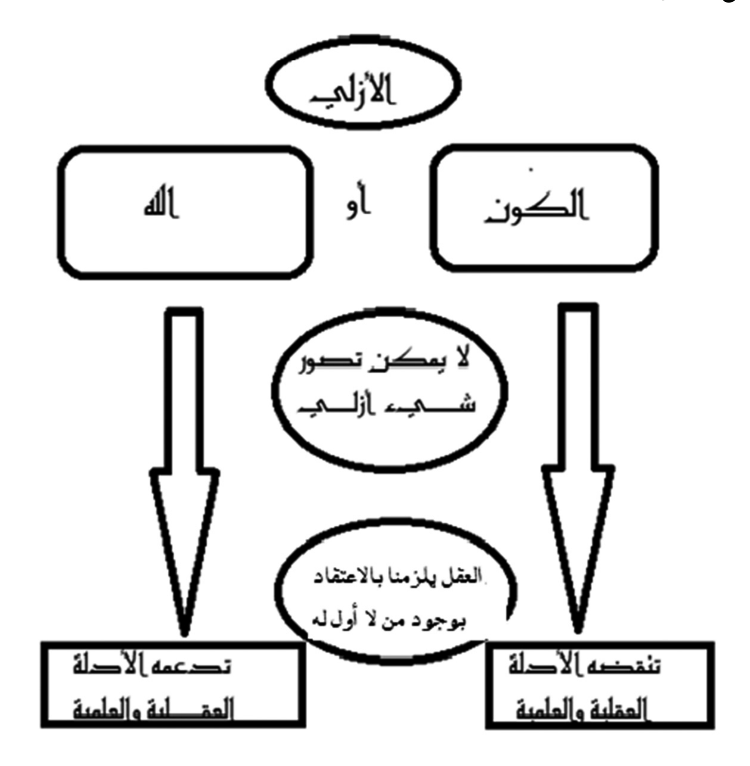
لا ريب أنّ العقل البشري لا يستطيع أن «يتصوّر» كائنًا لا أوّل له، لكن علينا هنا أن نميّز بين «التصوّر» و«التعقّل»؛ فالتصوّر هو أن تنشئ للشيء صورة في الذهن، في حين أنّ التعقّل هو أن تقبل أنّ هذا الشيء موافق للعقل أو لا يخالف ضرورات العقل.

---

(١) Austin Farrer, *A Science of God* (London, Geoffrey Bles: 1966), pp. 33-34.

العقل البشري إذن لا يتصوّر وجود كائن لا أوّل له؛ وذلك لأنّ تصوّره محدود بالزمن؛ فهو كلّما تصوّر كائنًا تصوّر له بداية. ويقابل هذا العجزَ تصوّرٌ آخر للعقل، وهو أنّ كلّ لحظة مسبوقة بلحظة سابقة، في سلسلة ممتدة إلى ما لانهاية، ولذلك يَكلّ العقل عن تصوّر لحظة غير مسبوقة.

النتيجة: العقل يحمل تصوّرين متعارضين. الأوّل ينفي الثاني والثاني ينفي الأوّل. وهي حقيقة تؤكّد عجز «التصوّر» العقلي عن معالجة مشكلة الزمن؛ لأنّ العقل محدود بالزمن؛ فهو يفكّر ضمن آليات الواقع البشري المعيش: «الآن»، و«القَبْل» و«البعد». وهو ما اعترف به الفيلسوف الملحد (برتراند راسل) في قوله: «فكرة أنّه لا بدّ أن تكون للأشياء بداية تعود في الحقيقة إلى فقر خيالنا (imagination)»[1]، رغم أنه من أهم المحتجين بشبهة «. . . فمن خلق الله؟».



(١) Bertrand Russell, *Why I Am Not a Christian*, p.7.

كيف نتجاوز هذا الإشكال؟

لا بدّ أن نرجع إلى «تعقّل» العقل لا «تصوّر» العقل؛ لأنّ التصوّر محدود بالبيئة والمألوف، في حين أنّ التعقّل قائم على مجموع قواعد مجرّدة. فالقضية إذن ليست عدم التصوّر الشخصي (subjective inconceivability)، وإنما هي عدم المعقولية الموضوعية (objective irrationality)؛ أي: عدم تناسق المفهوم منطقيًّا. وفي هذا يقول (أبو حامد الغزالي): «. . . وهذا كله لعجز الوهم عن فهم وجود مبتدأ إلا مع تقدير «قبل» له، وذلك «القبل» الذي لا ينفك الوهم عنه، نظن أنه شيء محقق موجود هو الزمان، وهو كعجز الوهم عن أن يقدر تناهي الأجسام فيما يلي الرأس إلا على سطح له فوق، فيتوهم أنّ وراء العالم مكانًا، إما ملاء وإما خلاء. وإذا قيل: ليس فوق سطح العالم فوق ولا بعد أبعد منه، كاع الوهم عن الإذعان لقبوله، كما إذا قيل: ليس قبل وجود العالم «قبل» هو وجود محقق، نفر الوهم أيضًا عن قبوله»[١].

ونبّه (بول ديفيس) على قصور التصوّر الذهني، وجنايته على العقل عند طرق باب التصوّرات الكونيّة الكبرى، قائلًا: «فشل الخيال البشري في فهم بعض الميزات الهامة للواقع، هو تنبيه لنا أنّه لا يمكن أن نتوقّع تأسيس الحقائق الدينية الكبرى على تصوّرات ساذجة عن المكان والزمان والمادة مستمدة من التجربة اليومية»[٢].

إنّ من مبادئ التعقّل أنّه لا يستقيم أن يوجد الشيء دون موجد له، فإنّ هذا الموجد إما أن يكون:

١ ـ خارج الشيء.

٢ ـ أو الشيء ذاته.

---

(١) أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق: سليمان دنيا، القاهرة: دار المعارف، د.ت.، ط٨، ص١١ ـ ١١٢.

(٢) Paul Davies, *God and the New Physics,* pp.18 - 19.

٣ ـ أو لا وجود لموجِد.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥].

الاحتمال الثاني مرفوض بداهة لأنّه يقتضي أن يوجد الشيء قبل ذاته ليوجِد ذاته، فلو افترضنا أنّ (أ) خلق نفسه على الساعة السادسة، فإنّ ذلك يعني أنّ (أ) قد وُجد قبل الساعة السادسة ليوجد نفسه عند الساعة السادسة. وهذا من المحالات العقليّة. والاحتمال الثالث أوضح منه بطلانًا؛ إذ إنّ خروج الشيء من العدم إلى الوجود دون سبب يناقض بداهة قانون السببيّة.

النتيجة: لا بدّ من أن يكون هناك شيء موجود بلا بداية. ويبقى الجدل عندها محصورًا في معرفة هذا «الأوّل». ولا نجد غير احتمالين: الله ـ سبحانه ـ أو المادة؟

- يقول الملاحدة: إنّ المادة هي هذا الأوّل.
- ويقول المسلمون: إنّ الأوّل هو الله ـ سبحانه ـ.

النتيجة: اتّفق المسلمون والملاحدة على وجود من لا أوّل له.

سؤال: هل من الممكن أن يتصوّر عقل الملحد هذه المادة التي لا أوّل لها؟

الجواب: لا يستطيع عقل الملحد تصوّر المادة الأزليّة، مثلما أنّه عاجز عن تصوّر الإلٰه الأزلي.

النتيجة الكبرى: سقط سبب استنكار الملحد رفض أزليّة الإله؛ لأنّه لا حلّ له غير القول بأزليّة المادة؛ ولما كان سبب إنكار أزليّة الله (العجز عن التصوّر) قائمًا عند تصوّر أزليّة المادة؛ سقط الاعتراض؛ لأنّ الاعتراض على تصوّر أزليّة الإلٰه هو نفسه قائم عند محاولة تصوّر أزليّة المادة.

هذا الوجه من الرد كاف في دحض الشبهة، مع إضافة أنّ هذا العجز عن التصوّر بالنسبة للمؤلهة لم يعد مشكلة اليوم في ظل تطور علوم الفيزياء الكونية التي قدّمت تصورًا نموذجيًّا لزمان ومكان مخلوقين.

الأوّل.. الله أم المادة؟

كتب (دافيد هيوم) مستنكرًا: «لماذا لا يكون الكون المادي هو الكائن واجب الوجود، طبقًا لهذا التفسير المدّعى للوجوب»[١].

صحيح أنّه لا يلزم من القول بوجود الله أنّ المادة ليست أزلية، وهذا مذهب عامة الفلاسفة اليونان وكثير من الأديان الشائعة قديمًا، إلا أن القول: إنّ المادة حادثة وإنّ الكون غير أزلي يلزم منه الإيمان بخالق تسبب في وجودها. والسبب في أنّ حدوث الكون يلزم منه وجود إلٰه هو أن إخراج الكون من العدم وتنظيمه بهذه الصورة الهائلة والبديعة والتي تأخذ بالأنفاس لا بد له من سبب يملك الصفات التي ينسبها إليه الإسلام، والمسمى «الله».

ومن بواقع (الإلحاد الجديد) تسليم أحد مفوّهي فرسانه ـ (دانيال دانيت) (Daniel Dennett) ـ في مناظرة مع (دسّوزا) (D'Souza) ـ سنة ٢٠٠٧م ـ تحت عنوان: «هل «الله» اختراع بشري؟» أنّ الكون مخلوق له بداية، غير أنّه قال: إنّ الكون قد أوجد نفسه بنفسه، ولا إشكال في ذلك لأننا إن سلمنا أنّ الله هو خالق الكون، فعلينا أيضًا أن نعتقد أنه قد خلق نفسه بنفسه[٢]. وهذا ضرب فاضح من التخليط؛ إذ إنّ الشيء لا يمكن أن يوجد نفسه وهو معدوم؛ ولذلك لا يملك الكون ملكة خلق ذاته لامتناع وجود هذه الملكة عقلًا، كما أنّ الإلٰه لا يملك هو أيضًا خلق نفسه لامتناع ذلك عقلًا، غير أنّنا نحن ـ أهل الإسلام ـ لا نؤمن بإله مخلوق يحتاج إلى من يُبدئه، وإنما نقول: إنّ الوجود ـ مهما كان نوعه ـ يقتضي أن يكون قد بدأ بموجود، فوجود الكون أو أيّ شيء لا يمكن أن يكون قد بدأ بقصة ينصّ فصلها الأوّل أنّ العدم كان في البدء، وأنّ الوجود قد أوجد نفسه في الفصل الثاني، وإنّما لا بدّ من الإقرار أنّ وجودًا

(١) David Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, (Indianapolis: Bobbs - Merrill. 1947), p. 190.

(٢) رابط المناظرة:
< https://www.youtube.com/watch?v=T6BvpDmj-ZQ >.

مستغنيًا عن الحاجة إلى موجِدٍ قد كان في البدء؛ إذ إنّ العدم لا ينشئ شيئًا كما أنّ الشيء لا يخلق ذاته.

لقد أقرّ عامة رؤوس الملاحدة أنّ نفي أزليّة المادة وثبوت حدوثها يؤول مباشرة إلى وجوب القول بوجود خالق أخرج هذه المادة من العدم إلى حيّز الوجود، ولذلك قاوموا بشراسة كلّ استدلال للمسير إلى الاعتراف أنّ الكون ـ بمادته وطاقته وزمانه ـ له لحظة ميلاد.

لم يتوقع الملاحدة أن بداية القرن العشرين تحمل لهم «بشارة» غير سارة تجعل إقرارهم بأنّ «لاأزليّة الكون حجّة لوجود الله»، حقيقة قائمة، لا مجرّد افتراض جدليّ لملاججة المؤمنين. وقد اجتمعت بذلك البراهين من أكثر من صوب لتؤكّد حاجة الكون إلى صانع حكيم. يقول فيلسوف العلماء (بروس غوردن) (Bruce Gordon): «عندما يثبت تعاضد كلّ من الضرورة المنطقيّة والميتافزيقية لسبب فعّال، والغياب المثبت لسبب مادي، وقيام الدليل على وجود بداية مطلقة لأي كون أو أكوان، مع حقيقة أنّ كوننا موجود وأنه دقيق الضبط (في أشيائه وقوانينه) بصورة غير متناهية فوق طاقة أيّة عمليّة غير عاقلة، عندها يشير البرهان العلمي بصورة حاسمة نحو كائن متعال ذكيّ كأرجح تفسير، إن لم يكن هو التفسير الوحيد المعقول»[١].

إنّ المادة التي يحكم العقل الإلحادي لها بالأزليّة تمتلك في ذهن الملحد أربع خصائص أساسيّة، وهي القدرة على أن توجد نفسها من عدم، والقدرة على أن تنظم نفسها بطريقة ذكية، والقدرة عل التآلف مع بقية أجزاء العالم، وأخيرًا معرفة النهايات الذكية لنفسها.

يمتنع على العقل المذعن للبداهة أن يقرّ في المقابل للمادة الحادثة العمياء بالقدرة على أن تصنع المعجزات بأن تخرج من العدم بنفسها، وأن

---

(١) Bruce Gordon, Inflationary Cosmology and the String Multiverse in *New Proofs for the Existence of God: Contributions of Contemporary Physics and Philosophy,* Robert J. Spitzer, (Grand Rapids: Eerdmans Publishing, 2010). p.103

تجتهد وتنجح في تصميم نفسها على صورة معقولة مثيرة للإعجاب، بل ولا حتى مفهومة.

ناقشنا سابقًا دعوى المادة التي تخلق نفسها من عدم، وأنها فاسدة منطقيًّا، وأن القول بهذه الدعوى يقود إلى إشكالات أكبر من مشكلة خلق العالم من عدم. ونحتاج أن ننظر الآن في دعوى المادة الذكية.

الحديث عن المادة الذكية يلزم منه قبلًا أن نعرّف الذكاء. وللذكاء تعريفات عديدة تبعًا للتخصّص العلمي للمعرّفين ولمجال اهتمام الباحث في شأن مجموع الذكاء بآلياته وأسبابه وآثاره، ولذلك سنختار تعريفًا واحدًا يقودنا إلى قلب مفهوم الذكاء. يقول عالم النفس الأمريكي الشهير (دافيد واكزلر) (David Wechsler): «تشير كلّ تعريفات الذكاء أساسًا إلى القدرة على التعلّم والتكيّف مع الظروف الجديدة... فهو القدرة على اكتساب المعرفة والقدرة على التعامل مع التجربة بطريق ناجحة»[1]. أين المادة من هذا الذكاء؟! أين هي من التعلّم؟! والتكيّف القصدي الغائي؟! إنها كيان أعمى وأصمّ! لا حلّ لهذه الاستحالة الذاتية إلّا بافتراض عامل خارجي يتمتّع بالحكمة، أو ما يسمّيه الفلاسفة وعلماء الطبيعة «الذكاء»، ولا حلّ إذن إلّا من خارج عالم المادة؛ لأنّ المادة في أفرادها ومجموعها عاجزة عن أن تفسّر ذكاءها، وهنا ننتهي إلى من نسمّيه نحن المؤلّهة «بالله»، **الحكيم**، غير المادي، الذي ليس كمثله شيء!

إنّ هذه الحكمة بادية منذ اللحظة الأولى لنشأة الكون. وقد عرض عالم الرياضيات والفيزياء (روجر بنروز) نظرة علمية لاحتمال وجود الكون على صيغته **الأولى**: «ما التقدير العشوائي لاحتمالية أن يكون الكون قد اتخذ في بداياته شكل المفردة، حتى وإن كانت احتمالية ضعيفة كما هي الحال بالفعل؟ تُقدّر هذه الاحتمالية بأقل من جزء واحد من $(١٠^{١٠})^{١٢٣}$. كيف أمكن التوصل لهذا التقدير؟ من خلال صيغة رياضية وضعها (جاكوب بكنشتاين) و(ستيفن هاوكنغ) تتعلق بالقصور الحراري للثقب الأسود. إذا طبقنا هذه الصيغة

---

(١) Israel S. Wechsler, *A Textbook of Clinical Neurology* (Philadelphia: W. B. Saunders Co., 1927), p.105.

الرياضية على هذا السياق، فإننا سنحصل على الإجابة الهائلة التي تقول: إن الأمر برمته يعتمد على حجم الكون. وإذا وضعنا حال الكون الذي أفضله شخصيًّا في الاعتبار، فإنّ التقدير الرقمي للاحتمالية، في الواقع، **سيبلغ ما لانهاية.**

ماذا يوضّح ذلك عن الدقة المتضمنة في عملية (الانفجار العظيم) دون أدنى شك؟ **إنها دقة متناهية للغاية... وإذا كان من المستطاع وضع صفر واحد بجانب كل جسيم أولي في الكون، فسأظل لا أستطيع كتابة العدد بالكامل، إذ إنّه عدد مذهل»**[(١)].

باختصار، المنطق الرياضي قاض أنّ احتمال نشوء الكون على صورته المعروفة، يعادل الصفر الرياضي؛ إذ إنّ عدد الأصفار المتراكمة يمين الرقم ١ في هذه النسبة الاحتمالية لنشأة الكون على صيغته المنظمة الأولى أكبرُ من عدد ذرات الكون كلّه، بل أكبر من عدد مكونَي الذرة: البروتونات والنيوترونات. وحديثي هنا هو عن الأصفار الموجودة في النسبة الاحتمالية المكتوبة وليس عن حجم الرقم نفسه، فتدبّر!

وإذا وَرَدْنا عالَم الأحياء، فالأمر أيضًا لا تتحمّله البداهة البشرية؛ فقد درس الدارويني (روبرت شبيرو) (Robert Shapiro) ـ أستاذ الكيمياء والمتخصص في الحمض النووي (DNA) في جامعة نيويورك ـ احتمال نشوء بكتيريا واحدة بسيطة (جسم الإنسان يضم مئتي ألف نوع بكتيريا) بالصدفة. النسبة الاحتمالية كانت ($١٠^{٤٠٠٠٠}$)؛ أي رقم واحد وعلى يمينه أربعين ألف صفرًا، وهو أمر لا نظير له في الكون![(٢)]، وقد علّق (شندرا وكراماسنغ) (Chandra Wickramasinghe) ـ عالم الرياضيات التطبيقية والفلك ـ على هذه النسبة الاحتمالية المفاجئة بقوله: إنّ هذا الرقم «هائل بصورة كافية ليدفن

(١) روجر بنروز، فيزياء العقل البشري والعالم من منظورين، تعريب: عنان الشهاوي، أبو ظبي: كلمة، ٢٠١١م، ط٢، ص٦٦ ـ ٦٧

(٢) Robert Shapiro, *Origins: A Sceptic's Guide to the Creation of Life on Earth* (New York, Summit Books, 1986), p.127

(دارون) وكامل نظرية التطوّر. . . إذا لم تكن بدايات الحياة عشوائيةً فإنّ ذلك يدلّ لزومًا أنّها نتيجة ذكاء هادف»[١].

وقد أحسن (كارل شترن) (Karl Stern) ـ المحلل النفسي المشهور الذي ترك الإلحاد ـ القول في التصوّر الإلحادي لنشأة الحياة على الكون من تفاعلات مادية صمّاء على مدى أطوار متعاقبة: «الإيمان أنّ عالمنا المدهش من الممكن أن يكون قد تطوّر بالصدفة العمياء هو جنون. وأنا لا أقصد البتّة الجنون بالمعنى الشتائمي، وإنما بالمعنى العلمي للاضطراب العقلي. حقيقة، في مثل هذه الرؤية تشابهٌ كبير مع بعض خصائص التفكير الشيزوفريني (الفصامي)»[٢].

عندما تفشل المادة في إثبات أزليّتها وحكمتها، لا يبقى للملحد مفرّ من الله ــ سبحانه ــ إلّا إليه.

العلم والغيب:

قد يصرّ المعترض على القول: إنّ فشل المادة في امتحان الأزليّة وثبوت أنّها مخلوقة يجب ألا يؤولا إلى الإقرار أنّ الله ـ سبحانه ـ هو الخالق؛ لأنّ إثبات وجود الذات الإلهية لم يثبت، ولا يثبت، ولن يثبت بالدليل العلمي المباشر.

هذا الاعتراض فاسد من وجوه، ومنها:

- قائل هذا الكلام ينتسب إلى مذهب (العلموية) (scientism) الذي يرى العلم الطريق الوحيد لإثبات الحقائق أو يكاد، وهو مذهب فاسد في أصل مبدئه لأنّه يقرّر مبدأ لا يمكنه أن يُدلّل عليه من خلال آلياته؛ أيّ: إنّه يقرّر أنّ العلم المادي هو الطريق الوحيد للمعرفة، في حين أنّه لم يقدّم دليلًا علميًّا واحدًا على صحّة هذه الدعوى، بل إنّ هذه الدعوى لا يمكن إثباتها بالدليل

---

(١) Fred Hoyle and Chandra Wickramasinghe, *Evolution from Space* (New York: Simon & Schuster, 1984), p.148

(٢) K. Stern, *The Flight from Woman* (New York: Straus and Giroux, 1965), p. 290

العلمي. والعلم نفسه مدين للمقررات العقلية البدهية التي توفّر له أساسيات العلم النظري والعمل التجريبي، وهذه المقررات تسبق العلم المادي ولا تعقبه، ومن ذلك الرياضيات[1].

• قد أثبت الدليل العقلي وجود الأوّل بالغ القدرة والحكمة، ولا دليل من العلم على نقض هذا التقرير.

• نحن نوافق المخالف في أنّ الدليل العلمي لا يثبت وجود الله، ولكن لسبب غير ما يظنّه؛ إذ إننا نقول: إنّ العلم لا يثبت وجود غير المادة والطاقة وقوانينهما؛ فهو في عمله المباشر لا يتعامل إلا مع المادة والطاقة؛ أي: القياس والوزن والحس... والله سبحانه غير ذلك، وفوق ذلك، وبالتالي فمن غير الصواب القول: إنّ العلم المادي بإمكانه أن يثبت أو ينفي وجود الله، وإنّما الصواب هو أنّ العلم بإمكانه أن يمنحنا مقدمات جيّدة في بناء استنباط عقلي دال على وجود الله، مثل:

أ ـ لا ينشأ شيء من لا شيء.

ب ـ الكون نشأ بعد ألم يكن = الشهادة العلمية.

ت ـ الكون نشأ من شيء غير مادي لأنّ الكون هو كلّ المادة.

ث ـ خالق الكون هو ذات قديرة أنشأت الكون من العدم، وبديعة أحسنت تنظيمه وترتيبه.

ج ـ الله هو خالق الكون لأنه من تنطبق عليه جميع أوصاف خالق الكون.

العلم المادي لا يدلّ بنفسه على وجود الله، وإنما يستدلّ العقل بحقائقه في برهان فلسفي على وجود الله.

---

(١) انظر في نقد العلموية:

Keith Ward, *The Big Questions in Science and Religion* (West Conshohocken, Pa.: Templeton Foundation Press, 2008), pp.134ff.

كيف يخلق الله قبل الزمن؟!

طرح بعض الملاحدة إشكالًا على خلق الله للكون، ومفاده أنّ هذا القول غير معقول لأنّ الزمن قد بدأ مع خلق الكون، فكيف يخلق الله الكون في الزمن رغم أنّ الزمن لم يوجد بعد؛ إذ لا يوجد «قبل» الخلق قبلٌ؟

لا يرى علماء أصول الدين في هذا الاعتراض حجّة للملحد لأنّهم لا يقولون بالتقدّم الزمني للسبب عن أثره، فهم يؤمنون بـ(السببية المتزامنة) (simultaneous causation)؛ أي: إنّ فعل الخلق متزامن مع وجود المخلوق، فقد خلق الله الزمن والكون مع لحظة وجودهما، دون تقدّم فعل الخلق عليهما، ولا يلزم من (السببية المتقدمةِ) (causal priority) (الزمنية المتقدمة) (temporal priority)؛ أي: إنّ وجوب وجود السبب قبل أثره لا يلزم منه نفي تزامن الفعل وأثره. فـ(الانفجار العظيم) ـ أو أي نموذج آخر لبداية الخلق ـ قد خلقه الله **عند** إخراجه من الليس إلى الأيس، وليس قبل ذلك.

وقد قال الفيلسوف (عمانويل كانط) (Immanuel Kant) في الطبيعة الزمنية للأسباب: «الجزء الأكبر من الأسباب الفاعلة في الطبيعة متزامن مع آثاره، وليس تتالي السبب والأثر إلّا من باب أنّ السبب لا يعطي كلّ أثره في لحظة واحدة، ولكن عندما يبدأ الأثر في النشوء، يكون دائمًا معاصرًا لسببيّة سببه؛ إذ إنه لو توقّف هذا السبب عن الوجود للحظة قبلًا، لما وُجد الأثر ذاته»[1].

لقد خُلِق العالم بالتزامن مع أمر الله له بالوجود، وهو من مألوف علاقة السبب بمسببه في حياتنا اليومية، وهي علاقة التزامن اللحظي، دون حاجة لأن يسبق السبب أثره زمنًا.

---

(١) Immanuel Kant, *Critique de la Raison Pure*, tr. Jules Barni (Paris: Germer - bailliere, 1869), 1/262.

ماذا كان الله يفعل قبل خلق العالم؟

من الأسئلة المألوفة الاعتراض بالقول: «إذا كان الكون مخلوقًا له بداية، فماذا كان الله يفعل قبل خلقه؟». ويزيد الملاحدة على ذلك اعتراضًا آخر، وهو: «إذا كان الله أزليًّا، وكان الكون مخلوقًا، فلِمَ اختار الله زمانًا دون غيره للخلق؟ ألا تستوي الأزمنة كلّها في الزمن الأزلي؟».

جواب الاعتراضين السابقين قد عرضناه في حديثنا السابق عن أنّ الله ـ سبحانه ـ ليس موجودًا في زمان، وإنّما هو ـ سبحانه ـ متعال على الزمان؛ إذ هو مُزَمِّنه، فقد خلق الكون المادي، وخلق بخلقه الزمان، فالمادة والزمان متساوقان وجودًا وعدمًا؛ إذ الزمان لا وجود له في ذاته وإنما هو عَرَض للكون المادي المتغيّر. وإذا كان الزمان مخلوقًا، والزمان هو الذي يقبل «القبل» و«البعد»، فلا معنى للحديث عن فعل الله «قبل» الزمان؛ لأنه لا «قبل» قبل «البدء»، فالله متقدّم على الزمكان بالذات لا بالزمان. وهذا الكلام يصدق على القول: إنّ عالمنا هو أوّل العوالم أو أنّه مسبوق بعالم زمني آخر[1] أو أكثر من عالم متناه العدد؛ فالزمن أو الأزمنة كلّها لا بد أن تنتهي إلى بداية أولى ليس قبلها زمان[2].

---

(١) جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال: «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض**». (رواه البخاري). ومعنى الخلق في اللغة يدلّ على الإيجاد من عدم، أو تهيئة الصورة من مادة سابقة، فعلى القول بمعنى التصوير، لا يلزم من الحديث وجود كون قبل كوننا، وإنّما حصل الخلق أي التصوير بعد وجود مادة الكون، وعلى القول بالإيجاد من عدم، يثبت (إذا ضُمّ إلى هذا الحديث حديث القلم: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**» (رواه مسلم)) وجود كون واحد فقط قبل كوننا، فيه عرش الرحمٰن على الماء، والعرش والماء والقلم وجدوا بعد عدم. وقد نقل الإمام (ابن حزم) الإجماع على مخلوقية كلّ شيء، فقد قال في كتابه «مراتب الإجماع» (ص١٦٧): «اتفقوا أن الله وحده لا شريك له، خالق كل شيء غيره، وأنه تعالى لم يزل وحده، ولا شيء غيرُه معه، ثم خلق الأشياء كلَّها كما شاء، وأن النفس مخلوقة، والعرش مخلوق، والعالم كله مخلوق». وقد كان الإمام (ابن حزم) المتوفى سنة ٤٥٦هـ، واسع المعرفة بالإجماعات، كما أنّه كان شديد الاهتمام بمسألة خلق العالم، وله في ذلك مناظرات مع الملاحدة والفلاسفة في الأندلس، بما يجعل نسبة الوهم إليه في نقل الإجماع في هذه المسألة العظيمة مما يُردّ بيقين لا يخالطه ريب.

(٢) يذهب بعض النصارى ـ ومنهم (ويليام لين كريغ) ـ إلى تفوّق (التوحيد) النصراني على التوحيد =

الاعتراض الإلحادي الذي لا ينهي النقاش:

يعتقد الكثير من الملاحدة أنّه إذا فشل الدليل الكوسمولوجي في إثبات أنّ الزمان غير أزلي، فذاك يعني أنّه لا يمكن الإجابة عن سؤال: «... فمن خلق الله؟»، وبالتالي يصبح الإيمان بلا مبرّر. وهي الدعوى التي قام عليها كتاب «وهم الإله» لـ(ريتشارد داوكنز).

والجواب على هذه الدعوى من أوجه:

أولًا: للدليل الكوسمولوجي أكثر من صيغة، ومن صيغه ما يُعرف بدليل الإمكان، وهي صيغة لا تقوم على دعوى إثبات حدوث الكون بزمانه، بل ولا تتعارض حتى مع أزلية الزمان، وهي مع ذلك طريق لإثبات وجود الله من خلال إثبات أنّ وجوده واجب عقلًا.

الثاني: الدليل الكوسمولوجي هو أحد أدلّة وجود الله، فحتى لو عجز المؤلّهة أن يجيبوا عن سؤال: «... فمن خلق الله؟»، فإنّ غاية الأمر أن تسقط حجتهم لوجود الله من خلال الدليل الكوسمولوجي في صيغته المسماة «دليل الحدوث». ولهم مع ذلك أدلّة أخرى كثيرة تثبت وجود الله، كدليل

= الإسلامي في تفسير حال الله ـ سبحانه ـ «قبل» الخلق، فقد كان (الربّ) ـ بزعمهم ـ يعيش في جو أسري ماتع مع ثالوثه (الآب والابن والروح القدس)، على خلاف (الربّ) الأحد المستوحش في الإسلام! وذاك من تأرجحات النصارى إذا حدثونا عن (توحيدهم) العجيب، فإنّهم يخبروننا عن واحدية الخالق لدلالة العقل على لزوم القول بالتوحيد، ولهم في ذلك براهين فلسفية يشاركهم فيها المسلمون، غير أنّهم يسفرون عن شركهم إذا وجدوا إلى ذلك سبيلًا، كما هو الحال عند الحديث عن ما «قبل» القبل.

وبعيدًا عن تعدد الآلهة الواضح في الحديث عن حال الاهتياج العاطفي بين الآب وابنه وروحه «قبل الخلق»، يبدو معنى هذه العلاقة الرومانسية الأزلية محض توهّم وظن بلا برهان، بل الانتصار لهذا الوهم قائم على أنسنة هذا الإله الذي يخشى عليه (كريغ) من الملل والضجر قبل خلق الزمان، فلو خلا الوجود إلا منه، فستتكدّر ساعاته ويضيق صدره من الوحشة، ولذلك وجد في تشتت نفسه إلى ثالوث، ما يملأ وقته بتفكّر بعضه في بعضه، وغرام بعضه ببعضه، وبذلك لا يملّ بعضه من بعضه! ولست أرى في تصوّر (كريغ) للإله الحقّ شيئًا يفارق تصوّر الوثنيين لإلههم، إذ ملؤوا صدره بمشاعر الحدة والكدر والعجز، فهم يخترعون له وظائف تملأ أوقاته الباردة، فحياته قبل خلق البشر صراعٌ مع الآلهة، وبعد خلق البشر صراع مع البشر! وصدق سبحانه إذ قال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [الحج: ٧٤].

تصميم الكون للحياة، وتصميم الكائنات الحيّة، وهداية الكائنات ـ والمعروف بالغريزة ـ، والدليل الأخلاقي، ودليل الوعي، ودليل معقولية الكون، ودليل الجمال، ودليل القرآن ومعجزات الرسول ﷺ.

الثالث: افتراض غياب كلّ دليل لوجود الله ليس حجة لنفي وجود الله؛ فإنّ غياب الدليل ليس حجّة لغياب المدلول، وقد آمن كثير من الفلاسفة في القرون الأخيرة بالله، مع تقريرهم غياب برهان على ذلك (وإن كنّا نعتقد فساد إنكارهم للأدلة الإيجابية على وجود الله).

«هو الله!».. الجواب المعقد؟!

هل هناك أشدّ صممًا وعمى من ذاك الذي اختار بإرادته ألّا يسمع أو يرى؟

مثل إنجليزي

كان قول المؤمنين: إنّ وجود الكون يقتضي وجود خالق له يواجَه مباشرة من طرف الملاحدة بسؤال معاكس: «... فمن خلق الخالق؟!» وقد أجاب المؤلّهة مرارًا وتكرارًا عن هذا السؤال، ولذلك طمح (ريتشارد داوكنز) أن يستنقذ التحدّي الإلحادي من الفشل، فأضاف إلى إلزام المؤلّهة بالتسلسل في الخلق، استبعاد أن يكون الله هو الخالق لطبيعة ذاته كما سيأتي.

اعتراض: «الجواب معقدٌ!»:

كلما وُجه (ريتشارد داوكنز) بالقول: إن كل التقريرات والاحتمالات تميل إلى كفّة القول: إن هذا الكون مخلوق لذات إلهية، وإنّ كل التفسيرات الأخرى قاصرة أن تشفي غليل من يبحث عن جواب يستوعب ضخامة أمر خلق العالم بإيجاده من العدم المحض وإحكام بنائه وإخضاعه لمنظومات من القوانين الطبيعية المتقنة والمعقدة، ردّ بأن هذا الجواب غير مقنع أو مرجوح لأنّ الإلٰه «كيان أشد تعقيدًا من الكون»، وأنه من غير الصواب أن يُفسَّر المعقَّدُ بجواب أشدّ تعقيدًا منه[1].

(١) Richard Dawkins, *The God Delusion*, p.176

يعلن (داوكنز) أنّ حجّته غير قائمة على محض الذوق الشخصي وإنّما هي قائمة على (دليل اللااحتمالية) (argument from improbability)، وأنّها تنقلنا بصورة حادة من إشكالية الترجيح غير الحاسم إلى درجة عالية من الثقة في النتيجة المدركة![1].

مارس (داوكنز) أسلوبه الساخر في الاستخفاف بمخالفيه، على طريقة «ضحكة الحصان» «horse laugh» ـ كما تسمّى في الأدبيات الغربية ـ، والتي لا تعدو أن تكون تحقيرًا لدعوى المخالف بافتعال الضحك الهستيري، متهمًا المؤمنين بالله بالكسل العقلي إذ إنهم قالوا: إنّ الخالق هو الله، ثم توقّفوا عن السؤال، وبالإمكان ـ كما يقول (داوكنز) ـ أن يقول مخالفهم: إنّ الحل هو الحمض النووي ثم يتوقّف عن أصل البحث، أو يقول هي الحياة ثم ينتهي عن النظر إلى ما وراءها[2].

الاعتراض على الدليل الكوسمولوجي بدعوى تعقيد السبب الأول، والذي يعتبر مركزيًا في الحجة الإلحادية لـ(داوكنز)، هو اعتراض فلسفي من غير فيلسوف، ولم يكد يتجرأ على صياغته بهذه الصورة في ما أعرف فيلسوف **معروف**، رغم كثرة الفلاسفة الملاحدة الذين اعترضوا على الدليل الكوسمولوجي[3]. وهو اعتراض لا يدل على مقدرة ابتكارية (creativity)

---

(١) Ibid., 109.

(٢) Richard Dawkins, *The Blind Watchmaker: Why the evidence of evolution reveals a universe without design*, (New York: Norton, 1996), p.141.

(٣) لا يعني ذلك أن (داوكنز) يحمل براءة اختراع هذه الدعوى، فقد سبقه إليها الكاتب (جورج سميث) (George Smith) في كتابه الإلحادي المعروف: «*Atheism: The Case Against God*» والصادر قبل قريب من ثلاثة عقود من كتاب «وهم الإله». ولا يمكن تصنيف (سميث) في طبقة «الفلاسفة»، وإن كانت له عناية بالفلسفة. وقد كتب (سميث) في كتابه قائلًا: «من صمّم الله؟ من المؤكّد أنّه لا يوجد شيء في مثل تعقيد الذكاء فوق الطبيعي من الممكن أن يكون نتيجة لمجرّد «صدفة». ولذلك لا بدّ أن يكون هناك مصمم خارق صمّم الله، ولكنّ المصمم الخارق لا بدّ أن يحتاج إلى مصمّم خارق ـ خارق، هكذ إلى ما لانهاية. ولذلك، ومن خلال فرضيات الدليل الغائي أُوصلنا إلى سلسلة لانهائية من المصممين المتعالين (transcendental)».

George H. Smith, *Atheism: The case against God* (Buffalo, N.Y.: Prometheus Books, 1979), p.259.

لـ(داوكنز)، وإنما يكشف ضعفه الفلسفي من جهة، وقيام منهجه الدفاعي على غير الدفع بلامنطقية الإجابة، وإنما بالإيهام أن إجابة مخالفيه تحتاج إلى إجابة.

وقد علق الفيلسوف الأمريكي الشهير (ألفن بلنتنجا) (Alvin Plantinga) على القيمة الفلسفية لما كتبه (داوكنز) في مراجعته النقدية لكتاب «وهم الإلٰه»، بقوله: «رغم حقيقة أنّ هذا الكتاب فلسفي بالأساس إلّا أنّ داوكنز ليس فيلسوفًا (فهو بيولوجي). بل حتى لو أخذنا هذا بعين الاعتبار، فإنّه يبقى أنّ الكثير من الفلسفة التي يقدّمها هي في أفضل الأحوال ضحلة. بإمكانك أن تقول: إنّ بعض تهجّماته على الفلسفة هي في أفضلها غير ناضجة، وإن كان في هذا الوصف ظلم لعدم النضج؛ إذ الحقيقة هي أنّ العديد من حججه تستحق علامة فشل مدرسية في حصّة فلسفة غير ناضجة. إذا جمعنا ذلك إلى لغة الكتاب المغرورة والمتعالية فسيكون الأمر مزعجًا»(١).

بالإمكان ترتيب اعتراض (داوكنز) على الصورة التالية:

١ ـ يجب أن تكون تفسيرات الظواهر الطبيعية أقلّ تعقيدًا من هذه الظواهر نفسها.

٢ ـ إلٰه المسلمين والنصارى واليهود هو كائن معقّد، أكثر تعقيدًا من الكون.

٣ ـ من المستبعد جدًّا أن يكون هذا الإلٰه هو الجواب عن وجود هذا الكون.

لتَبيّن صحة حجّة (داوكنز) علينا أن ندرس المقدمتين الأوليين لحجته؛ أي: وجوب أن تكون الظاهرة الطبيعية أشدّ تعقيدًا من سببها، وأنّ إلٰه المسلمين (وهو الذي يعنينا نحن) كائن معقّد، ولكننا سنبيّن فساد مقدماته بدءًا، لننتهي بعظيم تناقضاته.

(١) Alvin Plantinga, The Dawkins Confusion: Naturalism "Ad Absurdum", A Review of Richard Dawkins's *The God Delusion*, in *God Is Great, God Is Good: Why Believing in God Is Reasonable and Responsible*, William Lane Craig and Chad Meister, eds. (Downers Grove, Ill.: IVP Books, 2009), p.248.

الإشكال المعرفي في الاعتراض:

كلّ قراءة منصفة لما كتبه (داوكنز) ستنتهي إلى أنّ زعيم (الإلحاد الجديد) لا ينطلق في منهج استدلاله من منطقة محايدة أو مبدأ لا خلاف حوله بينه وبين مخالفيه، وإنما يستبطن مبدأ يقرر أنّ التفسير الوحيد المسموح به لكلّ شيء في الكون هو التفسير الطبيعي، ولذلك فإنّه لا ينصف خصومه عند النزاع؛ إذ هو يلغي إمكانية التفسير فوق الطبيعي من قائمة الحلول الممكنة، وهو بذلك يفترض النتيجة في مقدماته المضمرة.

ويظهر هذا النزوع بشكل فاحش في مناقشاته لـ(برهان المعايرة الدقيقة للكون) (Fine - tuning of the universe)؛ إذ إنه لما أفلت هذا الإتقان الكوني من آليات الداروينية التي تقتصر على تفسير إتقان الصنع في الكائنات الحيّة على الأرض، اتّجه (داوكنز) إلى «الغيب المادي» يبحث فيه عن خلاصه، فقد أقرّ أنّه لا يوجد تفسير طبيعي للنِسَب الكونية الدقيقة والمذهلة التي تحكم العالم، غير أنّه دعا مع ذلك إخوانه الملاحدة إلى «ألّا يفقدوا الأمل»[١] في حلّ هذا اللغز المحيّر، ليضع مكان «أساطير المؤمنين» أحلام الملحدين.

وقد انكشف هذا الاضطراب أيضًا في ثنائه على كتاب زميله في الإلحاد (لورنس كراوس): «كون من لا شيء: لماذا هنالك شيء بدلًا من لا شيء»، والذي أُلحق بنهاية الكتاب، فقد وصفه (داوكنز) بأنه إنجاز علمي هائل في حجم «أصل الأنواع» لـ(داروين)، وهو وصف تبرّأ منه (كراوس) نفسه رغم عجرفته وغروره المعروفين[٢]. وقد حاول (داوكنز) أن يفرّ إلى أي تفسير مادي لنشأة العالم ولو كان أضعف مما يتصوّره صاحبه، كلّ ذلك ليمنع إشراقة التفسير الإلهي من أن تلامس عقول الناس!

---

(١) Richard Dawkins, *The God Delusion*, p.158.

(٢) Ross Andersen, "Has Physics Made Philosophy and Religion Obsolete?".
< http://www.theatlantic.com/technology/archive/2012/04/has-physics-made-philosophy-and-religion-obsolete/256203/ >.

هل علينا أن نختار دائمًا الجواب الأقل تعقيدًا؟

يحرص (داوكنز) في كتبه، ومحاضراته، ومناظراته، ولقاءاته الصحفية على تأكيد أنّ العلم قد حسم أمره في أنّ الجواب الأبسط هو الجواب العلمي الصحيح، وبنى على ذلك قوله: إنّ القول: إنّ الله ـ سبحانه ـ هو خالق الكون، باطل لأنّ الذات الإلهية أشدّ تعقيدًا من العالم. وعلى هذا التأصيل العلمي اعتراضات، ومنها الآتي:

الجواب القاطع، لا الراجح:

يُبحث وجود الله **أساسًا** بالدليل القاطع لا الدليل الاحتمالي، إذ هو ـ سبحانه ـ «واجب الوجوب» عند من يرون وجوده من عقلاء المؤمنين؛ فوجوده ضروري ليستقيم فهم العالم. ويمتنع على العقل إنكار وجوده، فلا يُقال: إنّ وجوده «ممكن» حتى يستبيح العقل القول بترجيح وجوده على عدمه.

دليل الاحتمال، ومعرفة المحتَملات:

إقحام قانون الاحتمال والترجيح عند الحديث عن وجود الله لا معنى له؛ إذ إنّ من ضروريات الترجيح امتلاك معلومات بيانية (data) واضحة عن المرجّح بينهما، على أن تكون هذه المعلومات البيانية مفيدة في المقارنة، وتحديد النِسَب، وليس في صنيع (داوكنز) ما يفيد امتلاكه لهذه المعلومات عن الإله، وقد اكتفى بالإشارة إلى أنّ عظيم قدرة الله وعلمه يكفيان لمعرفة أنّ وجوده هو الأقلّ احتمالًا، وهذا غير دقيق؛ لأنّ الماورائي لا يمكن تحويل حقيقته إلى لغة الأرقام الإحصائية، فإنّ ما يحصى ويوزن هو ما كان من صميم عالمنا، وهو ما أدركه عدد من المؤلّهة الذين يرون نجاعة الدليل الترجيحي، فقارنوا لذلك بين الصدفة، أو العشوائية أو التطوّر العفوي من جهة، والإبداع الموّجه من جهة أخرى، أو ما يُعرف بـ(الخلق الذكي)، وليس بين الصدفة وأشباهها من جهة والذات الإلهية من جهة أخرى. وقد أدّت إحصائياتهم إلى سقوط عقائد (داوكنز) ومدرسته في امتحان الرياضيات[1].

(١) يَحسن بالقارئ أن يراجع في هذا الشأن مؤلفات عالم الرياضيات والفيلسوف الأمريكي (ويليام =

اشتراط تفسير للتفسير:

يتّفق المتخصصون في فلسفة العلوم أنّ الجواب الصحيح الذي يفسّر ظاهرة ما، هو الذي يُقنع في بيان واقع الظاهرة أو نشوئها، ولا يُشترط أن يكتشف العلماء تفسير طبيعة التفسير لأنّ ذلك سيقود إلى سلسلة لامتناهية من التفسيرات بما يجعل العلم بالشيء قائمًا على محال لا يتحقّق، لاشتراطه تفسير كلّ تفسير إلى غير أوّل! فعِلمنا ـ مثلًا ـ باكتشاف آلة دقيقة الصنع موجودة على القمر يقتضي بلا خلاف أنّ من صنعها هو كائن يتمتّع بصفة الذكاء، ولا يلزم لتفسيرِ ذلك تفسيرُ وجود هذا الكائن؛ فإنّ التفسير العلمي المرضي يقف عند الجواب الأوّلي المقنع دون التزام البحث عن تفسير للتفسير، وكذلك وجود الله، فالعلم بأنه لا يمكن لهذا الكون إلا أن يكون صنعة كائن غير مادي ولامتناهي الحكمة، حجّة لا تنقضها دعوى وجوب تفسير وجود هذه الذات.

وممن اعترض على شرط (داوكنز) التفسيري، فيلسوف العلوم الملحد (بيتر لبتون) (Peter Lipton) الذي كتب قائلًا: «سؤال «لماذا» المستمر، هو سمة من سمات منطق التفسير الذي اكتشفه الكثير منّا كصغار، على حساب راحة آبائنا. أتذكّر بوضوح لحظة اتّضح لي أنه مهما كانت إجابة أمّي عن آخر «لماذا» أقولها، بإمكاني ببساطة أن أردّ بأن أسأل «لماذا؟» عن الجواب نفسه حتى تنفد أجوبة أمّي أو ينفد صبرها. . . ليس من الواجب أن تكون التفسيرات نفسها مفهومة؛ إذ بإمكان الجفاف أن يفسّر ضعف المحصول حتى لو لم نفهم لِم كَان الجفاف، وبإمكاني أن أفهم لِمَ لم تأتِ أنت إلى الحفلة إذا قلت إنّك كنت تعاني صداعًا شديدًا حتى لو لم تكن لديّ أدنى فكرة لِمَ أصابك صداعٌ، ويفسّر (الانفجار العظيم) (إشعاع الخلفية الكونية الميكروي) حتى لو كان (الانفجار العظيم) نفسه غير قابل للتفسير، إلخ. . . إنّ سؤال «لمَ؟» يُظهر حقيقتين هامتين، وهما أنّ التفاسير قد تترابط، وأنّ ما يُفسِّر غيره لا يحتاج هو نفسه إلى أن يُفهم»[1].

= دمبسكي) (William Dembski)، ومن أهمها كتابه: «*The Design Inference*» (١٩٩٨).

(١) Peter Lipton, *Inference to the Best Explanation* (London; New York: Taylor & Francis, 2004), pp.21 - 22.

منطقية الشرط:

ما هو الداعي منطقيًّا أو منهجيًّا للقول: إنّ الجواب يجب أن يكون أقلّ تعقيدًا من المشكلة؟ لم يخبرنا (داوكنز) بمصدر هذا الإلزام المنطقي، ولا نجد في كتب المناطقة مثل هذا التقرير في كشف خلل التفكير العقلي السليم، كما أنّ البحث العلمي لا يفترض حجّة منهجية تقرّر فساد كلّ بحث معملي يكشف عن سبب علمي أعقد من نتيجته.

الجواب الذي يفرض نفسه:

الإشكال الأبرز في دعوى (داوكنز) هو أنّه قد حوّل شرط «الحل الأبسط» الذي يفضّله البحث العلمي لتفسير الظواهر الطبيعية، من باب «الأفضليّة» إلى «الوجوب».

إنّ البحث العلمي يبدأ من مبدأ يقرّر: «كن مع الدليل إلى حيث يقودك!»، ولذلك علينا ألّا نضيّق النتائج الممكنة بتوهماتنا أو أذواقنا، فإذا كان من طبيعة مبدأ العالم أن يكون معقدًا، لزمنا أن نقبل النتيجة، خاصة إذا كانت طبيعة الموضوع مختلفة عن عامة مسائل السببية من حيث الحجم.

شروط الجواب الصحيح:

بيان السبب الحقيقي وراء وجود العالم ليس متعلقًا على الحقيقة بتعقيد الجواب، فليس التعقيد الأدنى هو الأكثر معقولية، وإنما لا بد من توفّر عدد من الشروط في الجواب حتى يكون جوابًا مرضيًّا، فإنشاء العالم من العدم يحتاج إلى خالق غير مادي لأن المادة نشأت بفعله، ولأن من طبيعة المادة أن تكون مخلوقة. وهذا الخالق لا بد أن يكون صاحب «ذكاء»[1] خارق؛ لأن

(١) نكرّر مرة أخرى أنّنا لا نصف الله ـ سبحانه ـ شرعًا «بالذكاء»، وإنّما نصفه بالعلم والحكمة، واستعمالنا للفظ الذكاء هو من باب المناظرة والتنزّل مع المخالف في استعمال العبارات التي تؤدّي الغرض في سياقه.

تنظيم العالم يحتاج ذكاءً خارقًا.. إلخ. وفي حال فقدان الجواب قدرته التفسيرية فإنه سيكون عاجزًا عن إرضاء المتسائل عن أصل الكون، سواء كانت الأجوبة المقترحة بسيطة أم لا.

إنّ مطلب البحث العقلي والعلمي هو إدراك جواب السؤال بما يسفر عن السبب المطلوب معرفته وليس فكّ ألغاز سلسلة الأسباب إلى أوّلها، ولذلك اعترض الفيلسوف **الملحد** (غريغوري داوز) (Gregory Dawes) بشدّة على اعتراض (داوكنز) قائلًا: «يبدو أنّ (داوكنز) يفترض أنّ كلّ تفسير ناجح لا بدّ عليه أيضًا أن يفسِّر تفسيره، ولكنّ ذلك **مطلب غير معقول**؛ إذ إنّ العديد من تفسيراتنا الأنجح تثير ألغازًا جديدة وتقدّم لنا أسئلة جديدة تحتاج أجوبة»[١].

بساطة الجواب وتعقيد لوازمه:

يعترض الفيزيائي (جون بولكنغهورن) على دعوى (داوكنز) بقوله: إنّ الممارسة العلمية مخبرة أنّ الكثير من الظواهر الطبيعية تُفسَّر بمعادلات بسيطة، كمعادلة (أنشتاين) التي من الممكن كتابتها على طابع بريد واحد، لكنّ لوازم هذه المعادلة معقدة جدًّا يتيه العقل في فهمها وحصرها، وكذلك الأمر مع معادلة (ديراك). «وطبق «حجّة» (داوكنز)، علينا أن ننبذ معادلة (أنشتاين)، وقرينتها معادلة (ديراك)... لأنّ أي شيء يقدم مثل ذاك التفسير يجب أن يكون معقدًا للغاية وغير محتمل!»[٢].

الإشكال في تحرير لفظ: «بسيط»:

مصطلح «بسيط» نفسه مشكل؛ إذ إن ما هو بسيط في تصوّر الفيلسوف قد يكون معقدًا في نظر الفيزيائي، وما هو بسيط في نظر البيولوجي أو الفيزيائي اليوم، هو معقد جدًّا وأحيانًا أسطوري في نظر من عاشوا قرونًا ماضية،

---

(١) Gregory W. Dawes, *Theism and Explanation* (London; New York: Taylor & Francis, 2009), p.16.

(٢) J. C. Polkinghorne and Nicholas Beale, *Questions of Truth: Fifty-one Responses to Questions About God, Science, and Belief* (Louisville: Westminster John Knox Press, 2009), p.48.

ولذلك على المخالف أن يجعل للتعقيد معيارًا موضوعيًّا لازمنيًّا، وهو ما لم يفعله (داوكنز) على نحو دقيق.

جناية الحل الأبسط:

المنهج التبسيطي في اختيار الجواب الأقل تعقيدًا بإطلاق هو الذي كان سائدًا في القرون القديمة، وهو الذي جعل الكثير من الفلاسفة والفلكيين يعتقدون أن الأفلاك العلوية تتحرك بقدراتها الذاتية لأنّ لها أرواحًا تؤثّر فيها وحتى في مصائر الناس، والتفسير الأبسط بإطلاق هو الذي أخّر اكتشاف قانون الجاذبية، وهو الذي جعل الأمراض تُفسّر بأثر الأرواح الشريرة. إن ترقّي معرفة البشر العلمية مشعر بالحاجة أحيانًا إلى اختيار الحل الأكثر تعقيدًا، وذلك بعد اكتشاف الترابط العظيم والمعقد لأجزاء الكون.

عندما يكون السبب أعقد من الأثر:

لا وجود لأي إشكال منطقي أو علمي في أن يكون السبب أشد تعقيدًا من النتيجة، فتأليف كتاب أو صناعة بيت هما بدون شك أقل تعقيدًا من سببهما الذي هو الإنسان الذكي الذي عجز العلم إلى اليوم عن تفسير وعيه من ناحية بيولوجية.

إنّ كل أعمال الإنسان هي أقل تعقيدًا من الإنسان الذي يقوم بها، وكل أعمال الذكاء الإنساني ناتجة في أغلبها عن العقل الذي يعتمد على الدماغ[١]، والدماغ في جل وظائفه اليوم لا يزال غامضًا لخفائه وتعقيده.

الجواب الأعقد للأثر الأبسط:

الكيان المعقد قد يكون سببًا لا فقط لتفسير الكيانات الأقل تعقيدًا، وإنّما حتى الأمور التافهة الغبية، إذ لا يلزم من التعقيد أن ينتج شيئًا ذكيًّا أو معقدًا، والفعل البسيط أو العشوائي للحيوان المعقّد دليل على ذلك.

---

(١) العقل هو عملية التفكير، وليس هو الدماغ المادي.

عدم التلازم بين التعقيد والخطأ:

حتّى لو قبلنا ـ جدلًا ـ أنّ الله كائن «شديد التعقيد»، فإنّ ذلك لا ينفي أن يكون وجوده ـ سبحانه ـ التفسير الوحيد المعقول لوجود هذا العالم المدهش؛ لأنّ الجواب الأفضل هو ـ كما ينسب لـ(أنشتانين) ـ: أن يكون أبسط ما أمكن لا أن يكون الأبسط[١]. فالعالم الذي تبدو جميع جزئيات صنعه كمعجزات وخوارق، من الذرة المنظَمة بإدهاش، والمتحركة بإتقان، والمنتظمة بإبداع، إلى المجرة المتناغمة بإمتاع، المتآلفة بإغراب، يحتاج إلى تفسير يتجاوز المألوف، ويفوق العادة، ويخرق سُنّة الأجوبة الماديّة التقليديّة. وهو أمر يفهم منه (داوكنز) معنى «التعقيد»، ونفهم منه نحن معنى «الكمال» و«الجلال».

هل «الله» كائن معقّد؟

أخطر في ما دعاوى (داوكنز) تضميناته التي لا يفصح عنها والتي يقيم عليها اعتراضاته، وهذا منبئ ـ كما أكّد ذلك كثير من الفلاسفة ـ عن بساطة تكوينه المعرفي وأسلوبه في المحاجّة، وإن كان صاحب أسلوب شائق في الكتابة، ومعدودًا بين علماء البيولوجيا (المتقاعدين). ومن هذه التضمينات:

مفهوم التعقيد:

قد يتفاجأ القارئ إذا علم أنّ «الله» في تعريف (داوكنز) نفسه ليس «كائنًا معقدًا»، فقد قال (داوكنز) في كتابه: «صانع الساعات الأعمى»: إنّ الشيء يكون معقدًا إذا كانت له أجزاء «مُرتبة بطريقة يبعدُ أن تنشأ فقط عن الصدفة»[٢]، فكيف يكون الله في ظلّ هذا التعريف «كائنًا معقدًا؟!» إنّ الله ليس ماديًّا، ولا مركبًا، ولا محتاجًا إلى بعضه أو غيره؟!

---

(١) "Everything should be made as simple as possible, but not simpler."

(٢) Richard Dawkins, *The Blind Watchmaker*, p.7.

الله ليس ذاتًا معقّدة:

حجّة (داوكنز) على تعقيد الذات الإلٰهية هي أنّ الله قادر على مراقبة كلّ شيء في هذا الكون الفسيح جدًّا والتحكّم فيه، وأنه قادر على معرفة كلّ ما يجري في الكون ـ ولو كان في نفس اللحظة ـ من مشاعر وصلوات يقدّمها العباد.

يفترض (داوكنز) بذلك أنّ إلٰه المسلمين (والنصارى واليهود) كائن شديد التعقيد؛ إذ إنّ كمال صفاته وعلمه بجميع خلقه واستجابته لدعائهم مع تفنّن حاجاتهم لا يمكن أن يكون إلا إذا كان القائم بذلك قد بلغ الغاية في التعقيد[1].

لا ندري من أين استلزم (داوكنز) أن يكون كمال الربّ سببًا للقول بتعقيده إلّا أن يكون تصوّره للإله شديد المادية، فهذا الإلٰه يحتاج إلى آلات للتفكير وإيجاد الحلول وتنفيذها. و(داوكنز) بهذا التصوّر ينسب إلى المسلمين وعامة المؤلّهة اليوم الإيمان بإنسان كبير، له دماغ ضخم، خلق العالم بعد جهد وتخطيط، وهو يراقب العالم بأكثر من عين وأذن!

ما يقوله المسلمون بعيد تمامًا عن زعم (داوكنز)، فهم يقرّرون أنّ الله ـ سبحانه ـ ليس كالبشر، وفوق تصوّرهم، فلا قياس هنا ولا تمثيل، وينكرون أن يكون الله معقدًا أو مركبًا لأنّ التعقيد والتركيب من علامات المخلوقين، وليس واجب الوجود كذلك.

الله الخالق ـ في المعتقد الإسلامي ـ ليس ذاتًا مادية؛ لتصريح القرآن أنّ الله ـ سبحانه ـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولذلك قرر علماء الإسلام قاعدة في تصوّر **كيفيّة** الذات الإلهية، وهي قولهم: «كلّ ما خطر في بالك، فالله بخلاف ذلك»[2]. بل صرّحوا أنّ القول بالتركيب كفرٌ ومروق عن

(١) Richard Dawkins, *The God Delusion,* p.149.

(٢) قال الإمام (ابن قدامة): «ولا نشبهه بصفات المخلوقين، ولا بسمات المحدثين، ونعلم أن الله ـ سبحانه ـ وتعالى لا شبيه له ولا نظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وكل ما تخيل في الذهن أو خطر بالبال فإن الله تعالى بخلافه». =

دين الإسلام، قال (ابن تيمية): «من زعم أن الرب مركّب مؤلف؛ بمعنى أنه يقبل التفريق والانقسام والتجزئة، فهذا من أكفر الناس وأجهلهم، وقوله شر من قول الذين يقولون: إن لله ولدًا»[١].

ثمّ إنّ تصوّر أنّ الرب هو الذي خلق المكان والزمان يلزم منه ألا يكون متصفًا بالمكانية[٢] والزمانية؛ أي: إنه ليس داخل المكان وليس مبدوءًا بزمان، ولذلك فإنّ تصوّر أن يكون الإلٰه أشدّ تعقيدًا من الكون المادي هو تصوّر مادي لذات مركّبة، وليس الأمر كذلك لتعالي الله ـ سبحانه ـ عن الماديّة والجسمانية.

التعقيد بالمعنى اللاهوتي إذن لا معنى له في لغتنا البشرية المحصورة ضمن نماذج الواقع المادي المتزمّن، ولم يأت (داوكنز) لاصطلاحه بشرح ضمن التصّور الديني للإسلام أو حتّى لليهودية والنصرانية[٣].

إنّ (داوكنز) يرى أنه لا يمكن أن توجد الحكمة المطلقة دون آلة للتفكير، ويرى في آلة التفكير تعقيدًا بالغًا، ونحن حتى لو سلّمنا جدلًا أنّ التفكير يستلزم عقلًا، إلّا أننا لا نردف ذلك بدعوى أنّ العقل في ذاته شيءٌ معقّد، بل العقل (ولا أقصد الدماغ؛ إذ الدماغ غير العقل) شيء بسيط، ومن أهم أدلّة ذلك أننا كبشر عقلاء نعيش وعينا كشيء واحد بسيط، لا كمجموعة تفاعلات متداخلة، فالوعي البشري يمثّل حقيقةً معيشية بعيدة عن كلّ معاني التركيب لأنه يعكس حقيقة الذات وتفاعلها مع الواقع في شكلٍ مجتمعٍ مع نفسه دون تفكّك[٤].

= لمعة الاعتقاد، المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، ص١٢.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٥/ ٣٢١.

(٢) لا يتعارض ذلك مع صفة العلو إذ لا يلزم منها الانحصار في مكان.

(٣) إلٰه النصرانية «معقّد» لا من جهة قدرته على الإحاطة بحال الخلق وتلبية حاجاتهم، وإنّما من جهة تشكّل واحديّته من ثالوث؛ فهو واحد مثلّث، لا يستغني بعضه عن كلّه، رغم أنّه كُلٌّ بلا أبعاض! فهذا الإله معقّد، مركّب، غير معقول!

(٤) Robin Collins, "Hume, fine-tuning and the "who designed God?" objection," in James F. Sennett and =

الدلالة الكبرى لهذا العالم المعقد هي أنّه صنعة إلٰه عليم قدير، ولا يمكن أن ننكر هذه القدرة العظيمة (الواعية) بدعوى استلزامها لقدرة صانع آخر أوجد القدرة الأولى، وإنّما علينا أن نقرّر الحقيقة الكبرى للخالق الكامل في قدرته وعلمه، ثم ننظر في طبيعة الخالق كموضوع منفصل؛ فإنّ الحقائق لا تتعارض، وإنّما وظيفة العقل البشري أن يجمع بينها على نسق منطقي، كما عليه أن يتّهم نفسه بالعجز عن إدراك الصورة الكبرى الكليّة إذا كان اجتهاده الثاني قد خالف الحقيقة الواضحة التي أدركها في نظره الأوّل.

ورغم غرابة تصوّر (داوكنز) للذات الإلهية، إلّا أنّ من أَلِف كتاباته وتصريحاته يعرف أنّ معرفته بالكتب المقدسة والدراسات اللاهوتية لا تتجاوز بعض «الإكليشيهات» البائسة ذات الجرس العالي، والتي يهتزّ لها المتشنّجون من الموافقين والمخالفين. ويكفي الرجل بؤسًا أنّه القائل في «تغريدة» له: «لقد قلت في كثير من المرات: إنّ الإسلام هو قوّة الشرّ الكبرى في العالم اليوم»[1]، رغم أنّه لولا جهود العلماء المسلمين ـ بتحضيض من قرآنهم الذي يأمرهم بالسعي في العلم وإعمار الأرض ـ لما استطاع أن يكتب تغريدته على كمبيوتر ساهمت الحضارة الإسلامية في التمهيد له منذ قرون في علوم الرياضيات والجبر. وإذا كان اللاهوتيون النصارى قد كلّوا من اتهامه بالجهل بالنصرانية، فماذا نقول نحن عن جهله بالإسلام وعقائده ـ إلّا ما تعرضه له قنوات الإسلاموفوبيا ـ!

الاستبطان المبدئي للرفض:

الإشكال في طرح (داوكنز) هو الإيمان الأعمى بمادية العالم. وفي ظلّ هذه المادية لا مكان لحلّ يتجاوز ما هو مكون من مادة أو طاقة أو كليهما. وفي ظلّ هذا التصوّر لا يمكن للإله أن يكون حلًّا لسؤال: «. . . فمن خلق العالم؟».

= Douglas R. Groothuis, eds. *In Defense of Natural Theology: a post-Humean assessment* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2005), p.196.

(١) "I have often said that Islam is the greatest force for evil in the world today."

القضية التي كان على (داوكنز) أن يناقشها في ظل قانون الاحتمال والترجيح ـ إن جاز مبدأ الترجيح أصلًا ـ هو أن يرجّح بين القول: إن الله غير المادي هو الخالق، والقول: إنّ الكون أزلي. وإذا ثبت له أنّ الكون ليس أزليًّا، فعليه عندها أن ينتقل إلى نقاش ترجيح السبب المادي أو السبب غير المادي لنشأة العالم، لكنّ (داوكنز) اختار أن يحسم القول دون مناقشة أزلية العالم، ولا الانتقال بعد ذلك إلى نسبة وجوده إلى نفسه أو إلى سبب مادي أو غير مادي. باختصار، لم يعمل (داوكنز) في الحقيقة قانون الاحتمال أو الترجيح وإنّما اختار أن يحسم القول قبل أن يطرح كلّ الأسئلة الواجب طرحها، وقبل أن يعرض مؤيّدات كلّ فريق. ليس ما ادّعاه (داوكنز) ترجيحًا علميًّا، وإنما هو في حقيقته اختيار عاطفي زاده اللهفة الحامية إلى مهرب.

القول بتعقيد الذات الإلٰهية كفر.

داوكنز، بين غموض معقول، وغموض متناقض:

سُئل (داوكنز) في لقاء مع التلفزيون الأسترالي القومي سنة ٢٠١٢م: «هل يمكن لشيء ضخم كالأكوان أن يوجد من عدم؟»، فأجاب بأنّ نشأة الكون من عدم تخالف **البداهة**، ولذلك فهي شائقة. مضيفًا أنّ سَبَبَ وجود العالم **يجب** أنْ يكون شائقًا حتى يخلقه. كما أكّد على أنّ على هذا السبب أن يكون (غامضًا) (mysterious) ليتسبّب في نشأة الكون[1]. وبذلك يستعيض (داوكنز) بآلة الماديين «الغامضة» عن إلٰه الميتافيزيقيين الذي يراه «غامضًا»، غير أنّ الإلٰه الذي يرى (داوكنز) غموضه، تعضده دلائل العقل التي تقطع بوجوده، في حين أنّ غموض السبب المادي لنشأة العالم، والذي يبدو أنه التموج الكمومي الأوّل ـ لانتصار (داوكنز) لكتاب (كراوس)[2] ـ، ليس

(١) "Of course it’s counterintuitive that you can get something from nothing. Of course common sense doesn’t allow you to get something from nothing. That’s why it’s interesting. It’s got to be interesting in order to give rise to the universe at all. Something pretty mysterious had to give rise to the origin of the universe" ("Q&A)".

(٢) هذا مجرّد اقتراح، وربما كان (داوكنز) بلا خيار كوسمولوجي محدد، وإنما يقبل أيّ نموذج كوني يراه =

غامضًا، بل هو فاسدٌ، لما تقدم من قول في لاشيئية التموّج الكمومي الخالِق.

ولفضوليٍّ يريد أن يقترب من صفات سبب نشأة الكون كما هي في ذهن (داوكنز) أن يسأل: وما صفات هذا السبب؟

يأتينا الجواب بقلم الفيزيائي (جيرالد شرويدر) (Gerald Schroeder): «إنّ مفهومنا عن الزمن يبدأ مع خلق الكون، ولذلك فإنّه إذا كانت قوانين الطبيعة قد خلقت الكون، فإنّه يلزم من ذلك أن تكون هذه القوانين قد وجدت قبل الزمان؛ أي: إنّ قوانين الطبيعة موجودة خارج الزمان. ما لدينا هاهنا هو إذن مجموعة قوانين **غير فيزيائية تمامًا، خارج الزمان، خلقت الكون**. قد يبدو هذا الوصف الآن مألوفًا. وهو قريب جدًّا من المفهوم الكتابي لله: ليس بجسم، خارج الزمان، قادر على خلق الكون!»[(١)].

وقد وقع (هاوكنغ) في مثل ما وقع فيه (داوكنز)؛ إذ زعم أنه يرى أنّ (نظرية أَم) (M - theory) قادرة على تفسير كلّ شيء في الكون. وذاك وهم، فبالإضافة إلى أنّ هذه النظرية المزعومة التي يتوحّد فيها مفهوم الكون ليست سوى أمنية علمية لم تستطع أن تجمع قوانين الكون كلّها في منظومة واحدة موحّدة[(٢)]، تمثّل هذه النظريّة هروبًا شكليًّا من الإيمان بالله ـ سبحانه ـ، ولذلك كتب أحد الصحفيين البريطانيين المتخصصين في العلوم تعليقًا على كتاب «التصميم العظيم» (لهاوكنغ): «تمثّل قوانين الكم والفيزياء النسبيّة في هذا التأريخ المختصر جدًّا للفيزياء الكوسمولوجية المعاصرة أشياء تحتاج إلى نظر ولكنّها مع ذلك مقبولة، وهي بذلك مثل المعجزات المذكورة في التوراة والإنجيل. تستدعي (النظرية أَم) شيئًا مغايرًا: محرّكًا أوّلَ، موجدًا، قوّة خلاقة... ليس بالإمكان التعرّف على هذه القوة باستعمال آلات أو بتوقع رياضي مفهوم، وهي مع ذلك تتضمّن كلّ الاحتمالات. هي تملك **الحضور**

= قادرًا على نفي الحاجة إلى خالق!

(١) Gerald Schroeder, "The Big Bang Creation: God or the Laws of Nature".
<http://www.geraldschroeder.com/BigBang.aspx> (8/28/2014)

(٢) انظر: Hannah Delvin, *The Times,* 4 september 2010

الكلّي، والعلم الكلّي، والقدرة الكليّة، وهي سرّ عظيم. ألا يذكّركم ذلك بأحد؟!»[(١)].

ما إلٰه (داوكنز) في صورته الكبرى إلّا إلٰه المسلمين وأهل الكتاب، غير أنّ (داوكنز) لا يملك من الصبر ـ وربما الشجاعة ـ ليسير مع فكرته عن السبب الأول إلى آخر الطريق!

لا شكّ ـ مع ذلك ـ أنّ (داوكنز)، ومن سايروه أو شايعوه، يرون أنّ السبب الأوّل لا بدّ أن يكون ماديًّا، مخالفين حقيقة أنّ القانون الذي يزعمون أنه أنشأ الكون ليس ماديًّا، وهم بذلك على القول إنّ الكون قد خلق نفسه، وهو ما يكشف أنهم لم يفارقوا دائرة التخبّط المعرفي في فهم حقيقة الخلق والمخلوقية. يقول الفيزيائي الأمريكي (جورج إيرل ديفيس) (George Earl Davis): «إذا كان بإمكان الكون أن يخلق نفسه، فإنه يلزم من ذلك أنه يحمل في ذاته قدرات الخالق، الإله، وعلينا عندها أن نستنتج أنّ الكون نفسه هو الله، وبذلك لا بدّ من التسليم بوجود إله، ولكن على صورة خاصة للإله، بأن يكون فوق طبيعي (supernatural) ومادي. وأنا أفضّل الإيمان بإله خلق كونًا ماديًّا متميّزًا عنه ولكنّه خاضع له»[(٢)].

لقد عادت الوثنية جذعة على يد (داوكنز)؛ إذ جعل (داوكنز) المادة (وقوانينها) آلهةَ القدرةِ والخلق والإبداع! قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل: ١٧ ـ ٢٢].

---

(١) Tim Radford, *The Guardian,* 18 September 2010.
<http://www.theguardian.com/books/2010/sep/18/questions-life-cosmology-stephen-hawking>.

(٢) George Earl Davis, "Scientific revelations point to God", in *The Evidence of God in an Expanding Universe: Forty Famous Scientists Declare Their Affirmative Views of God,* John Clover Monsma, ed. (New York: Putnam, 1958), p.71.

الهروب من المعلوم إلى المجهول!

هل أجاب (داوكنز) عن سؤال: «. . . فمن خلق العالم؟» عندما قال بامتناع أن يكون الخالق هو الله لأن ذلك يقتضي أن يكون الخالق مخلوقًا هو أيضًا؟

من الواضح أنّ (داوكنز) قد أقام حجته الأولى ضد وجود الله على سؤال: «. . . فمن خلق الله؟»، لكنه للأسف قدّم اعتراضًا مبتورًا، إذ إنه كان عليه أن يرتّب على عجز المؤمن عن الجواب، فكرة تفيد في معرفة إن كان الكون مخلوقًا أم لا، لكنه لم يفعل ذلك، ولا ندري ما السبب! إنّ (داوكنز) غير معذور بالوقوف عند السؤال، وإنّما عليه أن يثبت أزلية المادة، كما أنّ عليه أن يبين بإطناب كيف استطاعت المادة أن تنشئ هذا الكون ذا التقادير المضبوطة، دون ذكاء؛ إذ لا تملك المادة العمياء ذكاءً ولا استشرافًا للمستقبل.

إن الاعتراض على الدليل الكوسمولوجي لوجود الله انطلاقًا من القول: إنه يلزم من ذلك أن يكون الخالق مخلوقًا، لا يجيب بذاته على سؤال: «. . . فمن خلق الله؟»، وإنما يجعل سلسلة الخالقين غير متناهية، وهذا أولًا، لا ينفي وجود إلٰه مخلوق، وثانيًا، يحتاج إلى دعم فلسفي للقول: إنه يمكن لسلسلة العلل أن تكون لانهائية.

وهكذا يفرّ (داوكنز) من حقائق الكون العقليّة والعلميّة كلّما ألزمه الواقع بغير ما يحبّ، وهذا هو دأب ملاحدة العصر، خاصة فرسان (الإلحاد الجديد) ومريديهم، فإنهم يتملّصون من إلزامات الحقائق المشهودة ويروغون عن قواطع الحقائق المعلومة، ويتوسّعون في تمجيد ظنونهم الحامية.

فللهروب من قانون الاحتمالات والترجيح الذي جعله عمدته لرفض الإيمان بالله، اختار (داوكنز) أن ينتصر لفرضية (الأكوان المتعددة) (multiverse hypothesis) وذلك حتى لا تكون النسب الدقيقة للمادة والطاقة وقوانينها الحاكمة للكون والتي تؤهّل أرضنا أن تكون صالحة للحياة، دليلًا على وجود مصمم حكيم؛ فوجود أكوان لانهائية أو فاحشة الكثرة ستجعل

وجود هذه المعادلات الدقيقة ممكنة باعتبارها من الصدف السعيدة!

لقد أدرك (داوكنز) أنّه واقع في التناقض لا محالة إن أنكر وجود الله على أساس قانون الاحتمال والترجيح، وآمن في المقابل بالأكوان المتعددة التي لا يدلّ عليها دليل علمي واحد، فالتجأ إلى القول: إنّ الأكوان المتعددة مهما بلغ عددها لا تزيد على أن تكون مجموعة هائلة لشيء بسيط، وهو الكون، في حين أنّ الله معقد بالضرورة، فالكون بسيط؛ لأنه ليس أكثر من مجموعة قوانين تحكم مادة وطاقة، في حين أنّ الله لا بدّ أن يكون على الأقل على نفس درجة تعقيد الكون الذي يعتبر وجوده مفسرًا له، كما أنّ (الذكاء) (intelligence) معقّد بطبعه![1].

وفي قول (داوكنز) تناقضات ومماحكات واضحة، أظهرها أنه يرى انتظام مادةٍ وطاقةٍ بلا مبدأ ولا إرادة ولا هدف في كون منظم بديع، أمرًا يوافق التفكير العلمي الصارم، وينكر في ذات الآن كلّ الدلائل الفلسفية والعلمية لحدوث المادة، دون تعقيب، وهو نفسه الذي يرى العلم مفتاح فهمنا للعالم، والترجيح الاحتمالي حجّةً لحسم الأسئلة الوجودية الكبرى! فكيف هداه الترجيح لإنكار المعلوم المشاهد من خلق الكون وبديع تصميمه ليؤمن بنظريّة غيبيّة تمامًا زادها الأماني الحارة في عالم بلا إلٰه؟! لماذا يهرب نبي الإلحاد إلى العشوائية عند مناقشة نشأة الكون وتصميمه، وإلى الزمن وطوله إذا عورض بأنّ التطوّر الدارويني هو حصيلة تجميع أخطاء جينية صدفوية؟! أمن العقل أن ينكر العقلُ الإلٰهَ الحكيم، ليقدّس إلٰه الصدفة، أو الصُّدَف؟! وكيف يخرج المعنى من رحم العشوائية؟ وينبت الذكاء في أرض العفوية؟!

وهل مجموع البسيط، بسيط ضرورة؟ هنا نرى (أغلوطة التركيب) التي تحدّثنا عنها سابقًا ماثلة أمام أعيننا، فالقول: إنّ مجموع (الكون) البسيط بسيط، تنقضه معرفتنا بالكون، وأشيائه؛ فالكون من جهة ليس مجرّد تراكم لأشياء، وإنّما هو تراكم مادة وطاقة تحكمهما قوانين دقيقة، وتشابك القوانين

---

(١) Ibid., pp.146-147.

لتعمل بانتظام هو مَصْدَرٌ لظهور التعقيد، وتعاظمه، وهو ما يعلمه كلّ من يعمل في حقل الإلكترونيات ودمج البرامج في بعضها وتطويرها، ومن جهة أخرى، فالمادة والطاقة لا تظهران إلا في أشكال، وهذه الأشكال تحتمل أعدادًا تكاد تكون لامتناهية، ولذلك فتجمّع المادة والطاقة لتشكيل شيء مفهوم، أو ناجع، أو جميل، هو انتقال من البساطة الأولى لعناصر الكون إلى تعقيد شكلها النهائي، فالإنسان مثلًا مكوّن من ذرات ـ لنفترض من أجل المحاجّة أنها بسيطة! ـ، وهذه الذرات تكوّن خلايا بشريّة مذهلة في تعقيدها، وتجمُّع هذه الخلايا على صورة مخصوصة يشكّل الإنسان الذي بلغ درجة من التعقيد لا تزال تستعصي على العلم في فهم جلّ جوانبها. فبساطة العناصر الأولى قد لا تؤول إلى بساطة الكلّ؛ لأنّ الكلّ ليس مجرّد **تجميع بسيط** للأفراد.

ثمّ إنّ نشأة الأكوان المتعددة الخاضعة للقوانين لا تستغني عن آليةٍ ذكية توفّر للوجود القدرة على البقاء ومقاومة العدم الحراري والاضطرب والتشويش والانقطاع، وتسمح لهذه الأكوان بالتكاثر والانتظام... وكلّ ذلك لا يستغني عن ذاتٍ قديرة حكيمة قائمة خارج المادة!

لم تظهر نظرية الأكوان المتعددة على الساحة العلمية ـ كما يقول الفيزيائي اللاأدري (بول ديفيس) ـ إلّا لتحلّ مكان مظاهر التصميم بردّ الأمر إلى الصدفة[١]، ولا يُخفي تشبّث (داوكنز) بها، حقيقة أنّها محض إيمانٍ معدوم الحجّة مردّه الظن المحض، أو في أفضل الأحوال مجرّد الإمكان دون حجّة مادية واحدة، ولذلك انتهى (ديفيس) إلى أنّ «**نظريّة تقوم على عناصر هي بالأساس غير قابلة للملاحظة لا يمكن أن توصف بأنّها علميّة**»[٢].

إنّه إيمان كافر بالملاحظة والتجربة، ولذلك قال عالم الكوسمولوجيا (جورج ف. ر. إليس): «الإشكال الأساسي لعالم الكوسمولوجيا مع نظريات تعدّد العوالم هو وجود أفقٍ للكون المرئي. والأفق هو حدّ المجال الذي

---

(١) Davies, *The Goldilocks Enigma* (Boston: Houghton Mifflin, 2006), p.197.

(٢) Ibid., pp.172-173

يمكننا رؤيته؛ إذ إنّ العلامات المسافرة نحونا بسرعة الضوء (والذي هو متناهٍ) لم تأخذ وقتًا منذ نشأة الكون لتصلنا من مكان أبعد. كلّ الأكوان المتوازية تقع خارج أفقنا وتبقى خارج قدرتنا على الرؤية، **الآن وأبدًا، مهما تطوّرت التكنولوجيا**»[١]. وهي المعضلة التي تحرج رؤوس الإلحاد في الغرب، ولذلك اعترف عالم الكوسمولوجيا (مارتن ريس) ـ أحد أبرز أنصار الأكوان المتعددة ـ أنّ هذه النظريّة «تخمينيّة جدًّا» «highly speculative»، وأنّ رأيه «ليس أكثر من حدس**!**»[٢]، وكما قال الفيزيائي (جون بولكنغهورن) فإنّ التخمينات التي صنعت نظرية الأكوان المتعددة «ليست فيزياء، وإنما **هي بدقة حرفية ميتافيزيقا. لا يوجد داع علمي مجرّد للإيمان بمجموعة من الأكوان**»[٣].

إنّ هذه النظريّة التي تعلّق بها (داوكنز) لا تزن شيئًا في ميزان حجّة اللااحتمالية، فلا رصيد لها من الدليل الواقعي ولا العلمي النظري، وهي لا تحمل شيئًا مما يشترطه العلماء في النظرية العلمية الصحيحة أو الراجحة، فلا هي قابلة للتجربة، ولا هي تقدّم نبوءات من الممكن اختبارها، ولا تهبنا رؤية، ولا تطوّرًا تكنولوجيا. إنّها محض إيمان عجائزي، أو كما وصفتها (أمندا بيت) (Amanda Peet) ـ واحدة من أكبر أنصارها من علماء الفيزياء ـ بقولها عن نظرية الأوتار التي هي أهم نموذج للأكوان المتعددة بأنها «مبادرة قائمة على الإيمان» «faith - based initiative»[٤].

وهنا لنا أن نتساءل: آلله الذي أتقن كلّ شيء أم الأكوان المتعددة؟

يجيبنا الفيلسوف البريطاني (ريتشارد سونبرن) (Richard Swinburne) بأنه يجب علينا أن ننحاز إلى الجهة المقابلة لـ(داوكنز)، رغم أنه يوافق (داوكنز) على مرجوحيّة الجواب الأكثر تعقيدًا. فقد كتب: «من الجنون افتراض ترليونات الأكوان لتفسير خصائص كون واحد، **رغم أنّ افتراض كائن**

(١) George F. R. Ellis, "Does the Multiverse Really Exist?" in *Scientific American* 305 (August 2011), pp.40-41

(٢) Martin Rees, *Our Cosmic Habitat* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001), p.164

(٣) John Polkinghorne, *One World: The Interaction of Science and Theology,* (London: SPCK, 1986), p.80.

(٤) <http://discovermagazine.com/2005/dec/reviews>.

واحد (الله) من الممكن ان يؤدّي المهمة بنجاح»[١].

إنّ الهروب إلى الأكوان المتعددة على يد (داوكنز) وبقية العلمويين الذين يرون العلم المادي كأساس وحيد لتفسير العالم، مخالف لقاعدة من أهم القواعد التي أفادت في تطوّر المعارف العلمية، وهي ما يُعرف بـ(موسى أوكام) (Occam's razor) ـ على اسم الفيلسوف المدرسي (ويليام الأوكامي) توفي (١٣٤٧م) ـ، والتي تقرّر وجوب الامتناع عن تقديم افتراضات أكثر لغيرِ ضرورة (pluralitas non est ponenda sine neccesitate)، فلا يفترض العالِم عناصر أكثر لمعادلته إلا إذا عجز عن حلّ المشكلة بعناصر أقلّ. وتقع نظرية الأكوان المتعددة ضمن منطقة المحظور هنا؛ إذ هي قائمة على افتراض عدد خرافي أو حتى غير متناه من الأكوان، لمجرّد تفسير المعادلات الكونيّة الدقيقة لكوننا دون ضرورة علميّة، وإنّما لمجرّد التخلّص من فرضيّة وجود إلٰه كامل العلم والقدرة.

ومن الطريف أنّ (هاوكنغ) قد قرّر ـ لنفي الحاجة إلى استدعاء وجود الله ـ وجوب «استعمال المبدأ المسمّى بموسى أوكام، وإلغاء كلّ ميزات النظرية التي ليس بالإمكان ملاحظتها»[٢]، لكنّ فريق الملاحدة يفرّ من نفس القاعدة إذا آلت إلى نفي اعتراضهم بالأكوان المتعددة على وجود الله!

إنّ هذه النظرية لا تحلّ مشكلة أصل قوانين كوننا المتقنة لأنّ الملحد إن قال: إنّ قوانين كوننا تعود إلى قانون كليّ يحكم الأكوان بأجمعها، كما هو افتراض (مارتن ريس)[٣]، فهو بذلك يرجع بالسؤال خطوة واحدة إلى الوراء، لا غير، وبدل أن نسأل: «من أنشأ هذه القوانين في كوننا؟»، سنسأل: «من أنشأ هذه القوانين في مجموع الأكوان المتوازية؟»، إذ القانون لم ينشأ إلّا عن قصد؟![٤].

(١) Richard Swinburne, "Design Defended," in *Think* (Spring 2004): 17.

(٢) Stephen Hawking, *A Brief History of Time,* p.57.

(٣) Rees, "Numerical Coincidences and 'Tuning' in Cosmology," 386.

(٤) Paul Davies, "Universes Galore: Where Will It All End?"
<http://aca mq.edu.au/PaulDavies/publications/chapters/Universesgalore.pdf>.

لا تجيب نظرية العوالم في ذاتها على سؤال: «ولماذا وُجدت الحياة؟!»، ولا على سؤال: «لمَ يوجد الإتقان البالغ في الكون، والذي يفوق الحاجة الأساسية في الحياة نفسها؟!». إنّ وجود الحياة وبراعة الصنعة كما نراهما في كوننا دليل على وجود غاية، وليس في مجرّد وجود الأكوان المتعددة ما يحقق «الغاية» أو ما يحقّق ظواهرها.

تقف هذه النظريّة في مخاصمة مع أصول التفكير العلمي، وشروطه، وليست في حقيقتها إلا «تفكيرًا أُمنويًّا» لا يصمد أمام أدنى اختبار، وذاك ما جعل عالم الفيزياء النظرية (أندري لند) (Andrei Linde) يقول بعد دفاع حار عنها: «بإمكان الواحد بسهولة أن ينسف كلّ شيء قلتُه الآن باعتباره تخمينات شاطحة (wild speculation)»[١]. إننا نعيش عصر انهيار الحواجز بين العلم الصحيح والخيال العلمي السادر!

إنّ ما نشهده في «عصر العلم» هو هروب متتال إلى عالم الغيب والفروض غير المجربة ولا المدركة، فرارًا من جواب واحد بسيط مُدلَّل عليه بالعقل، وهو وجود الإله الواحد الكامل:

لقد افترض الملاحدة أنّ هناك أكثر من كون فرارًا من دقّة موازين كوننا التي تصل إلى درجة الإدهاش بما لا يمكن أن يُعزى لغير «الذكاء» والقصد، ليكون بالإمكان وجود هذه النسب في عالم الأكوان المتعددة.

وأنكروا بشدّة فكرة الخلق الإلهي أو (الخلق الذكي) لأنّ «الحقيقة العلمية» لا بدّ أن تكون قابلة للدحض (falsifiable)؛ وليس مفهوم الخلق كذلك، لكنّهم عادوا فضجّوا من معيار (قابلية الدحض)، وعدّوه جناية على العلم وفلسفته عندما أرادوا الانتصار لدعوى الأكوان المتعددة؛ إذ إنّ دعواهم غير قابلة للدحض لعدم إمكان اختبارها.

---

(١) Andrei Linde, Why Is Our World Comprehensible?
<http://edge.org/responses/what-is-your-favorite-deep-elegant-or-beautiful-explanation>.

وضاقت أنفسهم من غائية كلّ ما يحيط بهم من المادة وقوانينها، فقالوا: إنّ الكون بأشيائه يسير من عبث إلى عبث، غير أنّهم لم ينقضوا غائية الكون بدليل مادي، وإنّما بنوا قولهم على غيبيات من الأزل.

وقالوا: إنّ «الفلسفة قد ماتت» لما علموا أنّ التفكير العقلي الفلسفي ينقض شطحاتهم، زاعمين أن الحل هو في العلم المادي وحده! غير أنّ (هاوكنغ) نفسه صاحب العبارة السابقة أسّس مذهبه على فلسفة سمّاها (model - dependent realism)، وخلاصتها أنّه لا معنى للحديث عن نموذج علمي واقعي (أي: مطابق للواقع) وإنما العبرة بموافقة النموذج للملاحظ من الكون![1]، فالعالِم هنا قد تخلّص من الرغبة في كشف الواقع، وإنما هو فقط طامح إلى أن توافق حساباته ظواهر الأشياء. ورغم هذا التواضع المعرفي العجيب إلا أنّ نظرية (هاوكنغ) عن نشأة الكون لا تطابق المشاهد من الكون بل هي قائمة على «زمن تخيلي» للهروب من المفردة التي يواجهها في كل حساباته الواقعية!

وقالوا: إنّ الكون لا يشفّ عن غاية وراءه، مفترضين أنّ الكون أصمّ لا يَسمع، وأبكم لا يُسمع، وما هو إلا نثائر مادة وطاقة، غير أنّهم يجهدون أنفسهم للوصول إلى نظرية فيزيائية لكلّ شيء (Theory of Everything) بما يفترض أنّ الكون معقول، **متناغم**، وأنه مظهر رسالة كبرى لمعنى ممتع وشائق![2].

وافترضوا وجود زمان ومكان قبل (الانفجار العظيم)، وربما انفجارات أخرى، للهروب من أن يكون كوننا غير مسبوق بغيره، مما يلزم عنه أن يكون مخلوقًا لخالق غير مادي، رغم أنّ العلم لا يستطيع أن يرجع بأدواته إلى ما قبل (جدار بلانك) (Planck Wall)؛ أي: الزمن $١٠^{-٤٣}$ من الثانية الأولى من نشأة الكون.

---

(١) Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, *The Grand Design*, p.46.

(٢) انظر هذا التناقض مثلًا في كتاب لأحد كبار الفيزيائيين اليوم:

Steven Weinberg, *Dreams of a Final Theory* (New York: Pantheon Books, 1992)

ولما كذّبتهم الحفريات في محاولة إثباتهم أنّ كلّ الكائنات الحيّة تعود إلى (أصل مشترك) (Common descent) تطوّر عنه جذع، تفرّعت أغصانه إلى نطاقات، فممالك، فشعب، فصفوف، فرتب، ففصائل، فأجناس، فأنواع، بما هدّد صدق نظرية التطوّر، اخترع اثنان من علماء الأحياء القديمة، وهما (ستيفن ج. غولد) (Stephen J. Gould) و(نيلز إلدردج) (Niles Eldredge) نظرية (التوازن المتقطع) (Punctuated Equilibrium)[1] لتفسير أهم خصّيصتين لتاريخ الكائنات الحية كما تكشفها الأحافير، وهما (الاستقرار) (Stasis)، و(الظهور المفاجئ) (sudden appearance). فرغم أنّ هاتين الخصيصتين توافقان بدقّة مذهلة التصوّر الخلقي لا التطوّري، إلا أنّ فريقًا من الملاحدة[2] الصادقين مع أنفسهم في فهم حقيقة التراث الأحفوري لتفسير الظهور المفاجئ لأنواع الأحافير دون سلف وسيط، قد ارتأوا اختلاق نظرية تطورية بلا آلية ولا برهان تفسيري مقنع[3]، للخروج من تصوّر الإبداع الإلهي المباشر في الكون.

وقد استدلّ الملاحدة بالاختلاف بين الكائنات الحية للقول: إنها قد تطورت عبر الزمن عن سلف واحد، ولما كشفت الحفريات عن كائنات حية لم تتطور على مدى عمرها الطويل جدًّا، ومنها بكتيريا عمرها يقارب البليوني سنة، قالوا: إنّ عدم تطوّرها حجّة أيضًا للداروينية لأنّه لا تطوّر إذا لم تتغيّر البيئة، دون دليل على أنّ البيئة لم تتغيّر أو أنّه يمكن للتطوّر أن يتجمّد مرة واحدة على هذا المدى الطويل[4]، رغم أنّ الكائنات الحيّة الأخرى عندهم مطواعة جدًّا لحاجات البيئة إلى درجة أن يفارق الكائن الحيّ نوعه إلى نوع آخر في بضع ملايين من السنين أو دون ذلك.

---

(١) Niles Eldredge and S. J. Gould, "Punctuated equilibria: an alternative to phyletic gradualism", in T.J.M. Schopf, ed., *Models in Paleobiology* (San Francisco: Freeman Cooper, 1972), pp. 82-115.

(٢) (غولد) من أشدّ خصوم فكرة الخلق لجاجة وإن كان لاأدريًا.

(٣) Duane Gish, *Evolution: The fossils still say No!* (CA: Institute for Creation Research, 1995), pp.353-356.

(٤) D. Netburn, "By not evolving, deep sea microbes may prove Darwin right," in *Los Angeles Times*. latimes.com February 3, 2015.

والملاحدة قد وافقوا داروين قوله في «أصل الأنواع»: إنّه لو ثبت ظهور وجود (أنواع) (species) من الكائنات الحيّة تنتمي إلى نفس (الأجناس) (genera) مرة واحدة دون سلف، فسيكون ذلك قاتلًا (fatal) لنظريتهم[١]، غير أنهم لما فوجئوا أنّ (الانفجار الكمبري) (Cambrian explosion) الذي جرى منذ قرابة ٥٤٠ مليون سنة لا يخبرنا بظهور أنواع بصورة مفاجئة، بل يخبرنا بظهور (شعب) (phyla) ـ تمثّل أعمّ تقسيم للكائنات الحيّة بعد (الممالك) ـ مرّة واحدة، دون سلف، وهو ما قلب شجرة الحياة لـ(داروين) رأسًا على عقب، خرجوا علينا بدعاوى تبريرية تطعن في «أمانة» طبقات الأرض، رغم أنهم يقيمون دعاويهم على نفس الطبقات، ورغم أنّ كشوفات طبقة (ما قبل الكمبري) في الصين أثبتت «أمانة» طبقات الأرض[٢].

ولما اكتشف الملاحدة أنّ الخليّة الحيّة والحمض النووي على درجة هائلة ومذهلة من التعقيد، وأنّ التفسير الذي كان معروفًا في القرن التاسع عشر ساذج جدًّا، حاول بعضهم الهروب إلى خارج الأرض بالقول: إنّ الحياة قد جاءت من كوكب آخر على يد كائنات أخرى متطورة، وعلى رأس هذا الفريق، البيولوجي الملحد العنيد (فرنسيس كريك) (Francis Crick) مكتشف الحمض النووي[٣].

---

(١) Charles Darwin, *The Origin of Species* (New York: Collier & Son, 1909), p.355.

(٢) انظر الكتاب القيم:

Stephen C. Meyer, *Darwin's Doubt: The Explosive Origin of Animal Life and the Case for Intelligent Design,* (New York, NY: HarperOne, 2013).

كما كشف العلماء مؤخرًا عن حفظ طبقة الكمبري لأدمغة مفصليات الأرجل (Arthropod) القديمة؛ فإذا هي أعقد من الجهاز العصبي لعدد من المفصليات اللاحقة، حتى قال هؤلاء العلماء بتقهقر الجهاز العصبي لـ (Brine shrimp) مثلًا، وهو ما يخالف (عقيدة التطوّر) التي تفسّر نشأة التعقيد في الكائنات الحيّة بالتطوّر من أدنى إلى أعلى لا العكس

Edgecombe, G. D., et al. (2015). Unlocking the early fossil record of the arthropod central nervous system. Phil. Trans. R. Soc. B.

< http://rstb.royalsocietypublishing.org/content/370/1684/20150038 >.

(٣) F. H. Crick, and L. E. Orgel, "Directed Panspermia" in Icarus (1973), 19 (3): 341-348.

وهم الذين إذا قيل لهم: إنّ الكثير من مظاهر الكون لا يمكن أن تفسّر إلّا بوجود ذات متعالية على المادة، بالغة القدرة والحكمة، قالوا: إنّ ذاك ركون إلى الجهل لإثبات وجود الخالق وكسل ذهني يمنع العقل من المسير الجاد بحثًا عن الحق في مملكة المجهول، مقررين أنّ العلم سيكشف يقينًا في المستقبل عن تفسير مادي لها، غير أنهم هُم هُمُ أنفسهم من يستدلون بدعوى وجود (جينات كاذبة) (pseudogenes) عاطلة لا تعمل لإثبات أنها من بقايا التاريخ التطوري، دون أن يمنحوا العلم حقّ الكشف عن وظائف لها في قابل الأيام![1].

إنّ العلم في كنيسة (الإلحاد الجديد) لا يُستدعى في النزاع مع عقيدة الإيمان بخالق مبدع، إلا ليكون شاهد زور، وزينة مجلس خامل.

هي إذن آفة الإلحاد الذي لا يصمد على مبدأ واحد في النظر، فهو تارة مادي ـ شديد المادية ـ إذا تعلّقت نفسه بالأسباب دون ما وراءها، وغيبي ـ مغرق في الغيبية ـ إذا كانت الصور المادية نفسها تشهد ضدّه ظاهرًا وباطنًا!

وقد يزيد الإلحاد في إسفاره عن سيولة قيمه، بأن يستعمل الحجّة لإثبات جوهر دعواه، غير أنّه يفرّ من نفس الحجّة، أو يخفيها، إذا كانت تهدم مبناه؛ ومن ذلك قول (داروين)[2]: إنّه لا يُوثق في مقررات العقل الإنساني لإثبات وجود الله لأنّ المخ الإنساني ليس إلا حصيلة ترق مادي للكائنات الدنيا[3]، دون أن يسترسل (داروين) في الاستدلال بنفس هذه الدعوى بالقول إنّه لا يوثق في برهان العقل على صحة النظرية التطوّرية لأنّ آلة العملية العقليّة (الدماغ) من نتاج تطوّر مادي أعمى!

---

(١) وقد ألزمت كشوفُ العلوم الملاحدةَ الاعتراف بحقيقة وظيفية هذه الجينات، انظر:

Yan-Zi Wen, Ling-Ling Zheng, Liang-Hu Qu, Francisco J. Ayala and Zhao-Rong Lun, "Pseudogenes are not pseudo any more," in *RNA Biology,* Vol. 9(1):27-32 January, 2012.

(٢) وهو لاأدري، وقد استعمل الملاحدة نفس منطقه هذا.

(٣) Letter to William Graham, July 3, 1881, in *The Life and Letters of Charles Darwin Including an Autobiographical Chapter,* ed. Francis Darwin (London: John Murray, Albermarle Street, 1887), I:315-316.

إنّه الكيل بمكيال الهوى والمنى. والحق ما قاله عالم بيولوجيا الأعصاب (كنان مالك) (Kenan Malik) بأنّ الاعتقاد أنّ ملكاتنا الإدراكية هي مجرّد حصيلة للتطّور يجعلنا في عجز عن معرفة صواب هذه الملكات من خطئها، وهو ما «يقوّض الثقة في المنهج العلمي [بأكمله]»[١]. وبعبارة الفيلسوف الملحد الشهير (توماس ناجل) (Thomas Nagel) في نفس هذا السياق: «قيام الفرضية التطوّرية نفسها على العقل، يجعلها تقوّض نفسها بنفسها!!»[٢].

يبدأ الإلحاد بشبهة، ثم ينتهي بشهوة، ولذلك فهو يبتدئ بالبحث عن الدليل لينتهي إلى معاندة الحقائق وتكلّف البديل.

داوكنز في مواجهة داوكنز:

أبرز معلم من معالم خطاب (الإلحاد الجديد)، لغته التحقيرية وعباراته التسفيهية للمؤمنين بالله، ونِسبة كُلّ من يؤمن بخالق إلى السذاجة أو الحماقة، فالدهرية عند هذا الفريق هي من القطعيات (وإن عبّروا عنها أحيانًا بلغة الترجيح)، غير أنّ الحوار المباشر معهم، والاسترسال في نقض دعاويهم المتهافتة كثيرًا ما يلزمهم بالإقرار أنّ الإيمان بالخالق ليس عقيدة مخاصمة للعقل. وهذا ما كان مع (داوكنز) نفسه.

فقد كتب عالم الرياضيات البريطاني (جون لنوكس)، صاحب أشهر المناظرات المشهودة مع (داوكنز): «في ضوء الوزن الكبير الذي أعطاه (داوكنز) «لتعقيد حجّة الله»، فوجئتُ بصورة بالغة ـ كما فوجئ آخرون ـ بإقراره العلني في مناظرة معي في (متحف التاريخ الطبيعي) لأكسفورد في أكتوبر ٢٠٠٨م أنّه بالإمكان إقامة الحجّة على وجود (إله ربوبي) (deistic god)[٣].

---

(١) Kenan Malik, "In Defense of Human Agency," in *Consciousness, Genetics, and Society* (Stockholm: Ax:son Johnson Foundation, 2002).

(٢) Thomas Nagel, *The Last Word* (Oxford: Oxford University Press, 1997), pp.135-136.

(٣) أي خالق غير مهتم بأمور العالم.

ورغم أنّه قد أشار إلى أنّه لم يقبل هذا الخيار، إلّا أنّ من المفاجئ أنّه قد ذكره أصلًا؛ إذ إنّه لا شيء بإمكانه أن يهدم حجّته أكثر من وجود إلٰه ربوبي؛ فالإله الربوبي هو بالضبط كائن معقّد افتُرِض كتفسير نهائي لكونٍ أبسط منه»[١].

وهنا نقف لنسأل: كيف يعترف إمام الملاحدة بإمكان إقامة برهان عقلي على وجود خالق، ثم هو يقود حملة عالمية للتخلّص من «خرافة» الإيمان بوجود خالق؟! إذا لم يكن هذا من صريح التناقض، فما هو التناقض؟!

هل ماتت الفلسفة، أم نُحِرَت؟

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩].

يقف (الإلحاد الجديد) على الضفّة المقابلة لدعوة القرآن الإنسانَ ـ كلّ إنسان ـ إلى أن ينظر في الكون ويتّخذ من ذلك وسيلة للوصول إلى أعماق الحقائق الكونية، في دعوة لتجاهل المعلوم، أملًا في أن يكون الغيب حجّة على المشهود، فبإنكار مقررات العلم، والطمع في كون قبل الكون، وزمن قبل الزمن، وتطوّر سريع غير محفوظ للكائنات، بإمكان الملحد «العلمي» أن يقفز فوق أسوار معارف العصر ليصل إلى جحد الخالق، والستار التجميلي دائمًا هو: «العلم!».

حاول (داوكنز) أن يفرّ من ضلال النصرانية ودعاويها المنافية للعقل والمجافية للبداهة غير أنّه وقع في جنس ما استنكره، فقد نقل قول (مارتن لوثر): إنّ العقل هو العدو الأكبر للدين، وإنّه في صراع دائم مع كلمة الله الموحى بها، وقوله: «كلّ من يريد أن يكون نصرانيًّا، فعليه أن يقلع عيني

(١) John C. Lennox, *God's Undertaker: Has Science Buried God?* (Oxford: Lion, 2009), p.182

عقله»[١]، ثم وقع هو نفسه في ذات الجرم إذ رفع راية محاربة البرهان الفلسفي. وما الفلسفة بالمعنى الاصطلاحي في هذا المقام إلّا البرهان العقلي (في مقابل البرهان العلمي)، فشارك بذلك (لوثر) دعوته إلى قلع «عيني عقله» حتى يحقق إيمانًا بريئًا من شائبة الشكّ!

إنّ النصرانية لم تتفرّد بمخاصمة العقل، إذ يشاركها أنصار (الإلحاد الجديد) الأمر، فقد قرّر ـ (هاوكنغ) ـ أنّ «الفلسفة قد ماتت»[٢]، والمقصود بالفلسفة ليس نسقًا ضيّقًا من التفكير العقلي المنهجي، وإنّما هي الفلسفة في تعريفها الأوسع؛ أي: «دراسة الإشكالات القصوى والمجردة والعامة جدًّا، والتي تتعلّق بطبيعة وجود الإنسان، ومعرفته، وأخلاقه، ووعيه، وهدفه»[٣]، أو بعبارة مختصرة: التفكير العقلي في الإنسان، كحقيقة وغاية. وهذا المذهب فيه مصارمة للتفكير العقلي المجرّد، ومآله تحدّي مسلّمات عقلية تحت دعوى إمكانها علميًّا، ولذلك كثرت الشطحات المتدثّرة برداء العلم في هذه الطائفة[٤]، حتى آل الأمر ببعضهم إلى نسبة وعينا بالعالم المادي المحسوس إلى الوهم (illusion) المحض، والقول: إن الزمن من الممكن أن يسير إلى الوراء. وفي شطحات أنصار نظرية الأوتار، وخاصة (ميتشيو كاكو) (Michio Kaku)، تعبير عن سفول العقل البشري عندما يُسلم فهمه معانيَ الوجود إلى خيالات علماء المادة، ولذلك لم يجد (مارتن ريس) حرجًا في القول ـ في مخالفة لدبلوماسية طبقته من كبار العلماء، والذوق الاجتماعي البريطاني العالي، وموقعه هو نفسه كملحد ـ تعليقًا على قول (هاوكنغ): إنّه لا حاجة لاستحضار الله لتفسير الخلق: «أنا أعرف (ستيفن هاوكنغ) جيدًا إلى درجة تسمح لي أن أكون على معرفة بأنّه قد **قرأ القليل جدًّا من الفلسفة، وأقلّ من**

(١) Richard Dawkins, *The God Delusion,* p.190

(٢) Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, *The Grand Design* (New York: Bantam Books, 2010), p.5.

(٣) Jenny Teichman and Katherine C. Evans, *Philosophy: A Beginner's Guide* (Oxford: Blackwell, 1999), p.1.

(٤) انظر في الاستغلال الشاطح غير العلمي للعلم المعاصر:

Alan D Sokal; J Bricmont, *Fashionable Nonsense: Postmodern intellectuals, abuse of science* (New York: Picador USA, 1998).

ذلك في اللاهوت؛ ولذلك فلا أعتقد أنّه علينا أن نعطي أي وزن لآرائه حول هذا الموضوع!»[١].

لقد وجد كتاب «وهم الإلٰه» حظوة لدى عوام الملاحدة الذين يبحثون عن قائد ملهم، وإمام معصوم يحمل راية العلم الطبيعي في مواجهة الخرافة، رغم أنّ رصيده الحقيقي لا يتجاوز اللغة الساخرة والعناد الظريف. وقد استشعر فريق من الملاحدة، أو قل من كبار الملاحدة، حرجًا شديدًا من انتشار هذا الكتاب، لقيامه على الإلحاح الطفولي في تكرار سؤال: «. . . فمن خلق الله؟» دون إحاطة أو إقرار بردود الإلٰهيين التي ألحقت هذه الشبهة بوساوس المراهقين قبل أن يشبّوا عن طوق تقليد الآباء والمدرّسين.

ومن هؤلاء الذين أفلت منهم زمام الغضب، الفيلسوف (مايكل روس) (Michael Ruse)، والمعروف بتخصصه في فلسفة العلوم ودفاعه المستميت عن الداروينية في كلّ محفل، وخاصة في مناظراته المكتوبة والمباشرة مع أنصار «الخلق الذكي»، وهو بلا شكّ أثقل وزنًا من (داوكنز) في الانتصار للآلية الطبيعية لنشأة العالم، وإن كان (داوكنز) أكثر منه ضجيجًا.

كتب (روس) في صحيفة (الغاردين): «لقد كتبتُ أنّ كتاب «وهم الإله» قد جعلني أشعر بالخجل كملحد، وقد قصدتُ ذلك. في محاولة لفهم كيف من الممكن أن يستغني الله عن سبب، يدّعي المسيحيون أنّ الله موجود بالضرورة (exists necessarily). لقد بذلت جهدي لأحاول فهم معنى ذلك. (داوكنز) وجماعته يجهلون مثل تلك الادّعاءات ويستهزئون بمن يسعون لفهمها، فضلًا عن الإيمان بها. وبالتالي، ومثل طالب جامعي في سنته الأولى، بإمكانه أن يسير بفخر بين الناس سائلًا غيره بصوت عال: «ما سبب وجود الله؟» وكأنّه حقّق كشفًا فلسفيًّا عظيمًا»[٢].

---

(١) <http://www.independent.co.uk/news/people/profiles/martin-rees-we-shouldnt-attach-any-weight-to-what-hawking-says-about-god-2090421.html#>.

(٢) Michael Ruse, "Dawkins et al bring us into disrepute", 2 November 2009.
<http://www.theguardian.com/commentisfree/belief/2009/nov/02/atheism-dawkins-ruse>.

هكذا هو (الإلحاد الجديد)، لا يصخي السمع إلا لصوته، ويسدّ الأذن عن حجج خصومه دون أن يتكلّف عرضها بأمانة. وهو ما فعله (داوكنز) بعرضه لأدلة الإيمان التوماويّة الخمسة[1] التي أُلّفت في الانتصار لها مصنّفات ضخمة، ولا تزال دور النشر تضخ المزيد منها، لكنّ (داوكنز) يصرّ على أنّ من أسباب النصر أن تصنع خصمًا من قش، ثم تُرديه صريع الموت بضحكة ساخرة شامتة.

---

(١) Richard Dawkins, *The God Delusion*, pp.77-79.

من هو مبدئ العالم؟

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾
[الرعد: ١٦]

لم ييأس الملاحدة من محاولة إفساد الدليل الكوسمولوجي بعد فشل اعتراضاتهم الفلسفية والعلمية، فعمدوا إلى التشكيك في دلالاته بعد أن شكّكوا في صوابه، فقالوا: إنّه لا يجدي في إثبات وجود الله، ولذلك فهو لا يجيب على سؤال: «... فمن خلق الله؟!».

إلٰه الدليل الكوسمولوجي، إلٰه الفجوات؟

قد انتهينا إلى أنّه لا بدّ لهذا العالم من «سبب أوّل» أخرجه من كتم العدم إلى فسحة الوجود، لكن يواجهنا (داوكنز) وغيره من خصوم الدليل الكوسمولوجي بأنّ الانتقال من «السبب الأول» إلى «الله» ليس إلّا قفزة إيمانية (a leap of faith)؛ إذ إنّه ليس في الاستدلال التجريدي حجّة على أنّ «السبب الأوّل» هو إلٰه القرآن!

لا شكّ أنّنا نتفق مع (داوكنز) أنّ الدليل الكوسمولوجي لا يتضمن في ذاته القول: إنّ «الله» ـ سبحانه ـ هو خالق الكون، لكننا ننكر أن يكون قولنا محض رغبة إيمانيّة، وإنما نحن نقول: إنّ الدليل الكوسمولوجي هو مقدمة منطقية للإيمان بالله ﷻ. فنحن لانؤمن بـ(إله الفجوات) (God of the gaps)،

ولا نتوسّل بالمجهول (argumentum ad ignorantiam)، وإنّما نستدلّ بالمعلوم من الحقائق والمعارف لإثبات وجود الله. إنّنا لا نقول: «الكون مخلوق، فالله خالقه!»، ضربة لازب، وإنّما كان إقصاء فرضية أن يكون الكون أزليًّا مقدمة للبحث عن هذا الخالق، وبالنظر في مآلات القول بأن الكون مخلوق لغيره تتضح لنا كثير من الحقائق عن الذات الإلٰهية.

لا يقفز المؤلّه فوق فجوة الجهل ليعلن وجود الإله، وإنّما مذهب الملاحدة هو الذي بني على الفجوات حيث يُلزم المذهب المادي أهله أن يؤمنوا بأنّ المادة تفسّر كلّ شيء، وإن لم تفسّره اليوم، فلعلّها تفسّره غدًا، ولذلك علّقت أمورًا كثيرة جدًّا في العلم والفلسفة إلى أجل قريب أو بعيد حتى يكشف العلم عنها. فالملحد مؤمن كلّ الإيمان بقاعدة غيبية تقول: «لا يمكن أن نسمح لما هو فوق طبيعي أن يوجد، فالحلّ المادي هو الملجأ دائمًا، حتى لو كان العلم اليوم لا يقدّم جوابًا مقنعًا، أو حتى إن كان لا يعد بجواب مقنع في المستقبل». والإلحاد بذلك يصنع من الفراغ الذي يتركه الحل فوق الطبيعي المقصيّ مساحة لأمل في العثور على جواب مادي لأسئلة الإنسان الكبرى، وهذا هو عين ما نسمّيه: «إلحاد الفجوات».

ما هي صفات من يسمّيه الفلاسفة الإلهيون «بالسبب الأول؟»:

الدليل الكوسمولوجي دال على أنّ هناك من أخرج الكون من العدم إلى الوجود، وهو يفيد في أنّ فاعل ذلك هو من يُسمّى بالخالق، وتتّضح صفات هذا الخالق بصورة أكبر إذا أضفنا إليها صفاته البادية من تصميمه للكون. ولعلّ أهم هذه الصفات أنّه:

• **ذات وليس شيئًا مجرّدًا**: خالق الكون من عدم، متعال على الزمان والمكان، وواجب الوجود، وهو بذلك واحد من اثنين: إمّا ذات (personal being) أو شيء مجرّد (abstract object) ـ كالأعداد مثلًا ـ. الاحتمال الثاني باطل يقينًا لأسباب عدّة، أهمها أنّ الأشياء المجرّدة لا تملك مشيئة، ولا إرادة، ولا قدرة على الخلق، ففعل الخلق لا بدّ له من

ذات عالمة، واعية، مريدة للفعل، ترجّح جانب وجود الكون على عدمه.

• **متعال على الزمن**: إذا كان الزمن هو أثرٌ لجريان حوادث المكان، فإنّه بذلك لم يكن هناك زمن قبل المكان، وبالتالي فإنّ هذا الخالق لا بدّ أن يكون متعاليًا على الزمن، فهو مزمّنه.

• **متعال على الماديّة**: إذا كان هذا الخالق هو الذي أوجد المادة، وكان «قبلها»؛ فهو بذلك متعال عليها، بائن عن خلقه، وليس محلًّا للحوادث، فقد كان ولم يكن قبله شيء، فلا يوصف لذلك بأوصاف المادة على حقيقة المادة التي نعرفها.

• **عظيم القدرة**: خلقُ العالم من العدم، وإتقان صنع الأحياء والجمادات، وبثّ القوانين المتقنة في هذا العالم بما أذهل العلماء الذين جعلوا همهم فكّ مغلقاتها وكشف أسرارها، كاشف أنّ هذا الخالق تتجاوز قدرته في عظمتها عقول البشر.

• **عظيم العلم**: تنظيم العالم على هذا الشكل البديع، وهيمنة النظام والتكامل على بنائه، حجّة للاعتقاد أنّ علم هذا الخالق أعظم من أن نتصوّر جلاله.

• **عظيم الرحمة**: خلقُ الإنسان في هذه الأرض وتوفير ما يحتاجه فيها من طعام وشراب ومتعة للحسّ والروح، حجّة للاعتقاد أنّ هذا الخالق رحيم بخلقه، يجود عليهم بما لا يستحقون.

• **واحد**: افتراض أكثر من إلٰه باطلٌ من أوجه، من أهمها أنّ العقل يجوّز اختلافهما (إذا قلنا بأقل عدد الكثرة)، وهنا لا يكون إلا حال من ثلاث:

أ ـ يحصل مراد أحدهما، فتنتفي عن الآخر صفة الألوهية لعجزه.

ب ـ يحصل مرادهما، وهذا باطل لأنّ الشيء لا يمكن أن يكون ولا يكون في نفس الآن.

ت ـ لا يحصل مراد أيّ منهما، وهذا مبطل لألوهيتهما، لعجزهما.

فتبيّن بذلك أنّ القول بالتعدد محال عقلًا.

لماذا لا يكون هذا الخالق مَلكًا أو أي كائن روحي، وليس الله؟

إذا اتّفقنا أنّ هذا الخالق أحدٌ، كامل الصفات، فخلافنا عندها سيكون حول الاسم لا حقيقة الذات، فسواء سمّاه المرء ملكًا أو جنيًّا أو غير ذلك، فهو بذلك لم يغيّر من ذات الخالق شيئًا غير الاسم، ونحن المسلمون نقطع أنّ الاسم هو «الله»؛ لدلالة الوحي عليه.

وبعبارة أخرى نقول: إذا كان المخالف يقول: لِم لا نسمّي «السبب الأوّل»، اسم كذا أو كذا مما نعرف أو لا نعرف من الأسماء؟! فسنرّد: الدلائل الفلسفية والعلمية لا تهتم بالعناوين وإنّما هي تقترن فقط بحقائق الأشياء. وإذا صحّ أنّ الخالق هو الأوّل الذي لا ندّ له ولا قريع ولا شبيه، كان سؤالنا عندها للملاحدة: إنّ المطلوب منّا هو أن نعبد الخالق، فلِمَ لا نسمّي هذه الذات: «الله»، إذا كان الإلٰه في المتفق عليه بيننا وبينكم هو الخالق الأزلي الذي يمنع العقل عدمه؟!

ما الدليل على أنّ هذا الإلٰه هو من يسمّيه القرآن «الله؟»:

لنا على القول: إنّ الخالق الحقّ هو الله ـ سبحانه ـ أدلّة، منها:

أولًا: صفات الخالق السابق ذكرها تنطبق بدقّة على الذات العليّة «الله» كما جاء خبرها في القرآن. فالله ـ سبحانه ـ في القرآن:

ذات: تكررت في القرآن نسبة المشيئة والإرادة والقصد لله ـ سبحانه ـ، وأنّه يفعل في المكان والزمان، وهو الذي أرسل الرسل، وأنزل الشرائع، ونظّم حياة الناس، وحدّد آجالهم، وهو الذي يعطي ويمنع، ويعفو ويرحم. ولا يفعل ما سبق شيءٌ مجرّد ليست له صفة الذاتية، كالمعاني والأفكار.

متعال على الزمان: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، فأوّليته دالة أنّه فوق الزمان؛ إذ لم يسبق وجوده زمن.

متعال على المادية: قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ومن دلالات ألّا مثيل له أنّه ـ سبحانه ـ ليس ماديًّا.

عظيم القدرة: قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، فقدرة الله لا يعجزها شيء، ومنها الخلق من العدم، والإبداع على غير مثال سابق، وحسن التصوير والترتيب.

عظيم العلم: قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، فالله ـ سبحانه ـ قد رتّب الكون على صورة من يصنع ما يريد لغاية ما يريد، ولذلك يَظهر الكون متآلفًا متناغمًا، وذاك هو العلم الذي لا يحدّه حاجز من زمن.

عظيم الرحمة: قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٦، ٧]. فكمال الموجود وجماله وتسخيره لتنعّم الإنسان برهان الرحمة في الدنيا.

أحد: القرآن من أوّله إلى آخره دعوة إلى التوحيد، وهو الكتاب الذي قرّر أنّ دعوة الأنبياء جميعًا كانت إلى إفراد الخالق بتوحيد الألوهية المتضمّن توحيد الخالقية. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ثانيًا: في مقابل غياب ما يمكن أن يُحتج به على خطأ القرآن، لا ينسب القرآن إلى الخالق صفات تخالف ما يمكن أن يهتدي إليه العقل من خبره، كما أنّ القرآن لا يقدّم الإله على أنّه ذات متحيّزة في مكان ولا أنه فرد من أسرة أو جماعة كما هو حال آلهة (جبل الأوليمبوس) اليونانية، أو التاسوع المقدس للمصريين، أو ثالوث النصارى. هو ببساطة الإله الواحد الذي لا نظير له ولا شبيه ولا قريع، هو الذي أخبر القرآن نبيّ الإسلام لما سُئل أن يَنسبه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

ثالثًا: كلّ الآلهة التي نعرفها في جميع الأديان التي وصلنا خبرها إمّا

أنّها جماعة من آلهة[1]، وهذا الأغلب، أو هي آلهة لجماعة ضيّقة من الناس، ولا نعرف استثناءً لهذا الأمر إلّا ما جاء في خبر القرآن.

رابعًا: الدلائل العقلية والتاريخية والعلمية والنفسية وغيرها... قائمة على أنّ القرآن كلام معجز[2]، وصادق، وثبوت أصله السماوي حجّة للقول إنّ خبره عن الذات الإلهية صادق.

الدليل الكوسمولوجي مقدمة معقولة للوصول إلى معرفة الذات الإلهية التي أشرقت حقيقتها في القرآن الكريم.

---

(١) لا اعتبار لما يقوله بعض أهل هذه الديانات من أن دينهم في جوهره توحيد؛ إذ إنّ التوحيد يثلمه أي قول بنسبة صفة من صفات الله إلى غيره من «الآلهة» أو البشر.

(٢) من أفضل ما كُتب في هذا الباب، كتاب محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، الكويت: دار القلم، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

ملحق

البرهان الفلسفي والعلمي لخلق المادة والزمان بين القرآن الكريم والتوراة والإنجيل (ردًّا على ويليام لين كريغ)

لا يكاد يخلو كتاب خطّه مؤلّف نصراني يردّ على الإلحاد في المكتبة الإنجلوسكسونية من الاستدلال بالبرهان العلمي لخلق العالم لإثبات أنّ كوننا مخلوق، وضرورة وجود خالق حتى يوجد هذا الكيان المادي الحادث بعد عدم. ويقابل ذلك خفوت الصوت الإسلامي في دفع الإلحاد **في المكتبة نفسها**[١]. وإذا ذكر البرهان العلمي عند أهلنا، كان ذلك على استحياء، وفي قالب باهت وعبارات عامة لا تبعث في النفس حرارة الابتهاج به، حتى لكأنّ هذا البرهان دخيل على التصوّر الكوني للمسلم!

والملاحظ في الجدل الإيماني ـ الإلحادي في الغرب، تسليم الملاحدة عمومًا لموافقة برهان الحدوث لأصول النصرانية العقدية والكتابيّة، فلا تجد

---

(١) إذا كانت المكتبة الإسلامية الإنجليزية في باب محاورة النصارى تتميّز بالتبسيط واللازمنية، فإنّها في باب الحوار مع الإلحاد تتميّز بالغياب التام عن المشهد. والأمر ذاته قائم في المكتبة الإسلامية الفرنسية. ويساهم الإعلام الدعوي العربي والمال الدعوي العربي في ترسيخ واقع الرداءة ذاك بتمجيدهما للأسلوب الشعبي الباهت للدعوة في الغرب. وهذا باب من القول يحتاج إلى عرض وبسط حتى لا تتّسع المأساة التي بدأ يدفع ثمنها أبناء المهاجرين الذين نخرتهم عقائد النسبية والإلحاد، ولا ينبّئك مثل خبير، أو قل: مثل موجوع يعايش محنة هذا الجيل المتآكل في صمت!

في مناظراتهم مع (وليام لين كريغ) و(نورمان غيزلر) (Norman Geisler) و(فرانك ترك) (Frank Turek) وغيرهم غير محاولة نقض ضرورة القول بحدوث العالم، لا القول: إنّ أدلّة حدوث العالم كما يستظهرها دعاة النصرانية لا تتوافق مع كتبهم المقدسة. ولذلك سنقحم نحن المسلمون أنفسنا في هذا الجدل، مقرّرين أنّه على دعاة النصرانية (واليهودية) أن يثبتوا أمرين سلفًا حتى يصحّ لهم الاعتراض على الملاحدة، وهما أنّ:

- البرهان الفلسفي التجريدي لخلق الكون لا يصادم مقررات النصوص المقدسة للكنيسة.

- البرهان العلمي لخلق العالم، والمتمثّل في نموذج الانفجار العظيم منذ ١٣,٧ بليون سنة لا يصادم الكتب المقدسة للكنيسة.

وعلى المسلم ـ في المقابل ـ أن يقيم البرهان على الأمرين السابقين بإثبات عدم مصادمة القرآن ـ وكذلك السُّنَّة النبويّة المطهرّة ـ للقول بخلق العالم، ولليقيني من البرهان العلمي المعاصر على نشأة الوجود المادي كلّه من عدم.

وسيكون الموقف الإسلامي أقوى وأعظم إن استطعنا إثبات أنّ القرآن والسُّنَّة يؤكّدان البرهان العلمي لخلق العالم في صورته المعاصرة ويُصَحِّحان أخطاء التوراة والإنجيل إن وجدت... وحتّى نؤمّن القارئ من غوائل التدليس، فعلينا أن نناقش الكتب المقدسة بنصوصها الأصلية، وضمن سياقاتها التاريخية، لنبحث معاني ألفاظها الحقيقية، كما علينا ألا نستدلّ من السُّنَّة النبويّة إلا بما صحّ منها..

قصة الخلق في التوراة والإنجيل

١ ـ الكون الأزلي في التوراة؟

أ ـ «برا» والخلق من عدم

ب ـ كيف تصوّر كاتب سفر التكوين أصل الكون؟

٢ ـ العلم في مواجهة التوراة والإنجيل:

أ ـ قصة الخلق. . بين رواية التوراة ورواية العلم

ب ـ الكون البليوني أم الكون الألفي؟

ت ـ عندما فجع النصارى واليهود

قصة الخلق في القرآن والسُّنَّة

١ ـ الأول، خالق كلّ شيء.

٢ ـ عندما يفارق القرآن التوراة.

٣ ـ عندما يصحح القرآن أخطاء التوراة.

٤ ـ عندما يسبق القرآن خبر الانفجار العظيم.

٥ ـ عندما تهدم السُّنَّة النبويّة دعوى الكون الصغير.

قصة الخلق في التوراة والإنجيل:

لا أظنّ أنّ أحدًا يجادل في أنّ الفيلسوف الأمريكي (ويليام لين كريغ) هو أهم من يقدّم اليوم (برهان الحدوث) في صيغته العصرية، ببراعة، في السجال مع فلاسفة الإلحاد، لإثبات وجود الله أو للإجابة عن سؤال: «.. فمن خلق الله؟»، ولكنّك لا ـ تكاد ـ تجد أحدًا من الملاحدة يواجه (كريغ) بحقيقة أنّ استدلال المؤمن بقداسة التوراة والإنجيل ببرهان الحدوث يجب أن يقوم على مقدّمتين:

- تقرير التوراة والإنجيل خلق الكون من عدم.
- مطابقة النصوص المقدسة للنصرانية (واليهودية) للبرهان العلمي المستدلّ به لخلق الكون.

وعلينا هنا أن نضع الأمرين السابقين على المحك، بأن نبحث في دلالة قصة الخلق اليهودية ـ النصرانية على «الخلق من عدم»، وموافقتها لحقائق العلم الطبيعي الذي نستدلّ به جميعًا للقول بخلق الكون.

١ ـ الكون الأزلي في التوراة؟

من السائد في الثقافة الشعبية الغربية القول: إنّ الكتاب المقدس[1] يقرّر بوضوح عقيدة «الخلق من عدم». وينطلق دعاة النصرانية واليهودية ـ لدفع شبهة: «. . . فمن خلق الله؟» ـ من الزعم أنّ النصوص المقدسة تصرّح بنشأة الكون من لاشيء بناءً على أمرين:

---

(١) الكتاب المقدس = مجموع الكتب المقدسة التي تؤمن بربانيتها وإلزاميتها الكنائس النصرانية. وهي تنقسم إلى (عهد قديم)، وهو مجموع الكتب المقدسة التي يشترك اليهود مع النصارى في الإيمان بها، وتسمى مجازًا (التوراة)، وتنسب الكتب الخمسة الأولى منها إلى (موسى) عليه السلام. وأوّلها (سفر التكوين)، وكلمة (سفر) تعني (كتاب). ويسمّى الجزء الثاني من الكتاب المقدس بـ(العهد الجديد)، وهو مجموع ٢٧ كتابًا على اختلاف أنواعها بين إنجيل، وقصة تأريخية، ورسالة، ورؤيا. ويسمّى مجازًا (الإنجيل)، ولا يؤمن بقداسته غير النصارى.

أ ـ دلالة كلمة «בָּרָא» [برا] في بداية قصة الخلق التوراتية (تكوين ١/ ١: «في البدء **خلق** الله السماوات والأرض») على الخلق من عدم.

ب ـ دلالة سياق قصة الخلق في الفصل الأول من سفر التكوين على الخلق من عدم.

ويقول مخالفوهم ـ ونحن منهم ـ إنّ:

أ ـ فعل [برا] لا يدلّ ضرورة على الخلق من عدم.

ب ـ الدلالة اللغوية والسياقية والحقيقة المصدرية للفصل الأول من سفر التكوين، كلّها دالة على أزليّة الكون.

أ ـ «برا» والخلق من عدم:

إنّ المتابع للجدل الإيماني الإلحادي في الغرب يعجب لجراءة (هيو روس) ـ وإن شئت قلت وقاحته ـ بسبب تكراره الدائم في كتبه ومحاضراته ومناظراته أنّ التوراة هي الكتاب الديني الوحيد على وجه الأرض الذي يثبت خلق الكون من لاشيء، لا من مادة سابقة، وحجّته هي أنّ التوراة في أوّل جملة فيها تقول: «في البدء خلق (בָּרָא) [برا] الله السماوات والأرض». ولا يحتاج القارئ العربي البسيط، وكذلك العالم باللغات السامية أن يدرك أنّ كلمة [برا] التي تتكوّن من ثلاثة حروف «ب ـ ر ـ ا» هي نفسها «بَرَأ» العربية. ولو راجع (روس) أشهر معاجم العبرية التوراتية، لقرأ مثلًا[1]:

†I. בָּרָא 53 vb. shape, create (cf. Ar. بَرَى, *form, fashion by cutting, shape out, pare a reed for writing, a stick for an arrow,* but also بَرَأَ, *create;* Ph. הברא CIS 1. 347 *incisor, a trade in-*

كما جاء في «لسان العرب»: «برأ: البارئ: من أسماء الله ﷻ والله

(١) Francis Brown; S. R. Driver; Charles A. Briggs; G. R. Driver; Wilhelm Gesenius; Emil Roediger and Edward Robinson, *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament* (Oxford: Clarendon, 1898), p.135.

البارئ الذارئ. وفي التنزيل العزيز: ﴿ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]. قال: البارئ: هو الذي خلق الخلق لا عن مثال. قال: ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلما تستعمل في غير الحيوان، فيقال: برأ الله النسمة وخلق السماوات والأرض. قال ابن سيده: برأ الله الخلق يبرؤهم برءا وبروءًا: خلقهم، يكون ذلك في الجواهر والأعراض. وفي التنزيل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]»[1].

فالكلمة العبرية [برا] محفوظة أيضًا في لسان العرب، والمعجم القرآني، فكيف تكون التوراة قد تفرّدت بها؟!

ثم إنّ هذه الكلمة لا تعني ضرورة «الخلق من عدم»، بل لا دليل على أنّها تعني دائمًا هذا المعنى في لسان العرب أو في اللسان العبري؛ ففي لسان العرب تعني «الإيجاد لا عن مثال سابق» أو «الخلق من عدم»، والسياق هو الحاسم في توجيه المعنى إلى أحد المرادين.

وقد استُعمل فعل [برا] مرارًا في (العهد القديم) في خلق من لهم أصل مادي سابق (تكوين ١/٢١، ٢٧؛ ٥/٢، إشعياء ٤٣/١، ٤٥/٧...)، فكيف إذن صار حجّة قاطعة للخلق من عدم؟!

كما أنّ السياقات التي استعملت فيها كلمة [برا] دالة أنّ هذا الفعل مرادف لفعلين آخرين استعملا للخلق في (العهد القديم)، وهما أيضًا لا يدلّان على الإنشاء من عدم: «עָשָׂה» [عسا] أي «صنع» «to make» و«יָצַר» [يتسر]؛ أي: «صوّر» أو «شكّل». فقد استعملت ـ مثلًا ـ كلمة [برا] مع كلمة [عسا] في إشعياء ٤٥/١٢ بما يفيد تطابقهما دلالة: «أَنَا صَنَعْتُ (עָשִׂיתִי) الأَرْضَ وَخَلَقْتُ (בָרָאתִי) الإِنْسَانَ عَلَيْهَا». ليس ـ إذن ـ في عموم فعل [برا] ما يميّزه عن مظاهر الخلق والتشكيل الأخرى في شأن أصل المصنوع.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ب ـ ر ـ أ).

ويستدلّ (كريغ) بالقول: إنّ فعل [برا] لا ينسب إلا للإله في (العهد القديم)، للزعم أنه حجة للخلق من عدم. وهذا تعسّف في استنطاق هذا الفعل العبري؛ إذ إنّ هذه الدعوى راجحة لو ثبت عندنا أنّ فعل [برا] لم يستعمل إلا في مقام الحديث عن البداية الأولى المطلقة للخلق، أمّا وقد ثبت عندنا من نص سفر التكوين وغيره من نصوص (العهد القديم) أنّ هذا الفعل قد استعمل لمن لم يوجدوا من عدم محض ـ كما هو ثابت في حق (آدم) ﷺ، وإسرائيل (إشعياء ٤٣/ ١٥). . . ـ فإنّ الالتزام بحقائق الألفاظ يقتضي عندها القول: صحيح أنّ [برا] هو فعل خاص بالإنشاء الإلهي، لكن لا يمكن حصره بالإيجاد من عدم إلا بقرينة، وهذه القرينة كما يزعم (كريغ) و(بول كوبان) (Paul Copan) ـ في كتابهما المشترك «خلق من عدم» ـ هي السياق[١]. ولا يملك (كريغ) أن يستدلّ بسياق تكوين ١/١ لأنّ أصل النزاع بيننا وبينه هو في حقيقة هذا السياق كما سيأتي لاحقًا.

ومن تعسّفات (كريغ) و(كوبان) أنّهما رغم إقرارهما أنّ «فعل [برا] لا يتضمّن بصورة ضرورية الخلق من عدم في سياق الفصل الأول من سفر التكوين»[٢]، إلا أنّهما أضافا أنّ القرائن التراكمية تدلّ على معنى الخلق من عدم في ذاك الفصل. وهي قرائن ـ على الحقيقة ـ لا تأخذنا إلى حيث يريد (كريغ).

ولعلّ أقوى ما استدلّ به (كريغ) وصاحبه لصالح دلالة [برا] على الخلق من العدم هو أنّ هذه الكلمة هي الأفضل للتعبير عن هذا المعنى، ولا توجد في العبرية كلمة غيرها من الممكن أن تؤدّي المقصود[٣]. وهو قول له حظ من النظر لو لم تكن قصّة الخلق ببنائها وتفاصيلها وخلفيتها التاريخية دالة على أزلية المادة.

---

(١) Paul Copan and William Lane Craig, *Creation out of Nothing: A Biblical, Philosophical, and Scientific Exploration* (Leicester, England: Apollos; Grand Rapids, Mich.: Baker Academic, 2004), p.49.

(٢) المصدر السابق، ص٥٨.

(٣) المصدر السابق.

ونحن وإن كنّا نعتقد أن (كريغ) قد فشل في إثبات دلالة كلمة [برا] في مفتتح قصة الخلق التوراتية على الإنشاء من عدم، إلا أننا نحمد له إقراره أنّ الوصول إلى إثبات عكس ذلك يحتاج إلى حجّة قويّة ومركّبة، على خلاف صاحبه (هيو روس) الذي يفتتح حديثه دائمًا عن العلم والتوراة في محاضراته في الكنائس والجامعات الأمريكية بالقول: إنّ [برا] كلمة عبريّة دالة ـ بجزم ووثوقية ـ على الخلق من عدم، مضيفًا أنّه قد قرأ في شبابه الكتب المقدّسة لكلّ الديانات ولم يقتنع بغير التوراة والإنجيل لأنهما يوافقان العلم المعاصر بدقة[1]، وأنه لم يقتنع بالقرآن لأنّه يقرّر أنّ النجوم أقرب إلينا من الكواكب، وهي كذبة لا يملّ من تكرارها كلّما تحدّث عن تاريخه الشخصي والإيماني والعلمي. وأنا لست أدري أين رأى ما يزعمه في كتاب الله مع أنّ القرآن قد أشار إلى بُعد النجوم عنّا ولم يفعل ذلك عند ذكر الكواكب: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]! بل العجب أنّ النصارى يؤمنون بظهور (نجم) (ἀστήρ) [أَسْتِيرْ] عند ميلاد المسيح. وهو نجم لا يبعد عن الأرض سوى مسافة أمتار أو بضعة أميال، ولا تتجاوز سرعته ٥ كيلومترات في الساعة (وهي السرعة التقريبية للماشي)؛ إذ إنّ ذاك النجم كان يتحرّك في السماء من أورشليم في اتجّاه بيت لحم، وكان عدد من المجوس يتّبعونه حتى وصلوا إلى المسيح الرضيع (متّى ٢/ ٩). وهي خرافة قديمة شائعة في الأمم الوثنية التي كانت تربط ميلاد العظماء بظهور نجمهم في السماء![2].

ب ـ كيف تصوّر كاتب سفر التكوين أصل الكون؟

كيف من الممكن أن نفهم مذهب الفصل الأول من سفر التكوين في

---

(١) Hugh Ross, *The Genesis Question: Scientific Advances and the Accuracy of Genesis* (Colorado Springs, Colo.: NavPress, 1998), pp.8-10.

(٢) انظر الشهادات التاريخية في:

D. M. Murdock, *Christ in Egypt: The Horus-Jesus Connection* (Seattle, WA: Stellar House Pub., 2009), pp.198 ff.

وإن كنّا نتحفظ على الأطروحة العامة للمؤلفة.

شأن أصل الكون؛ أمن عدم هو ـ كما يقول (ويليام لين كريغ) وبقيةُ النصارى واليهود التقليديون ـ أم من مادة أزليّة كما يقول خصومهم؟

يكمن الحل في استنطاق النص بلفظه العبري وفي سياقه التاريخي، ولكن لا بدّ من التنبيه قبل ذلك إلى أنّ عامة النقّاد المتخصصين في النص التوراتي وتاريخه قد أجمعوا على القول: إنّ سِفر التكوين هو نص تجميعي لأكثر من قلم، وإنّه قد عرف شكله الأخير في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

وقد يعترض علينا النصارى واليهود المحافظون بالقول: إنكم تنطلقون من نظرية غير مسلّمة، مؤكدين أن النص من تأليف (موسى) عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد أو قريبًا من ذلك. ونردّ نحن بالقول: إنّ الدلائل التي تنسب النص إلى عمل تجميعي تمت إعادة تحريره (redaction) في شكله النهائي في المدّة التي ذكرنا، قوية جدًّا[١]، وأمّا الردود التقليدية فمتهافتة جدًّا[٢]، ومع ذلك فنحن نطلب النظر في الدلائل التي سنسوقها، هل هي متناسقة مع بعضها، وبالتالي مؤكدة للتاريخ المتأخر لتجميع التوراة، أم لا؟ علمًا أنّ قبول التاريخ التقليدي لكتابة التوراة لا ينفي ما سننقله من حجج.

وغاية ما نقوله هنا هو أنّ اليهود الذين جمعوا التوراة قد عاشوا في بابل ـ العراق القديمة ـ، وتأثّروا كغيرهم من الأقليات بالثقافة السائدة الغالبة في زمنهم، بما في ذلك تفسير نشأة الكون وشكله.

وقد كشفت الحفريّات الأثريّة في الموصل سنة ١٨٤٩م عن قصة شهيرة هيمنت على التصور الكوسمولوجي للعراق القديمة على مدى ألفي سنة أو أكثر، وهي المعروفة باسم «إنوما إليش» «[illegible]».

(١) Richard Elliott Friedman, *Who Wrote the Bible?* (San Francisco: HarperSanFrancisco. 1989), pp.159 ff.

(٢) انظر مثلًا:

Walter C. Kaiser, *The Old Testament Documents: Are They Reliable & Relevant?* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2001), pp.137-146.

اسم القصّة مأخوذ من الجملة الأولى في الألواح الأثرية التي حفظتها: «عندما في العلو [السماء]». والألواح تقدّم قصّة الكون منذ البدء. وتبدأ بالحديث عن حال أوّل حيث الماء هو كلّ شيء، وقد كان مختلطًا ببعضه، ثم انقسم الماء إلى ماء عذب هو الإلٰه (أبسو) وماء مالح هو الإلهة (تيامت)، ولما تمايزا، أنجبا آلهة صغيرة. ثم تمضي القصة في ذكر صراع الآلهة ومكرهم ببعضهم حتى تصل إلى صراع الإلٰه (مردوك) مع الإلهة (تيامت)؛ إذ يقوم (مردوك) بعد قتلها بتمزيق جسدها إلى نصفين، جاعلًا أحدهما سقف السماء والآخر الأرض.

ويكاد يتّفق النقّاد على الأثر الواضح لقصّة الخلق البابلية «إنوما إليش» على القصّة التوراتية، وبالذات تكوين ١/١ ـ ١٠: «في البدء خلق الله السماوات والأرض.

وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه.

وقال الله: ليكن نور، فكان نور.

ورأى الله النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة.

ودعا الله النور نهارًا، والظلمة دعاها ليلًا. وكان مساء وكان صباح يومًا واحدًا.

وقال الله: ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلًا بين مياه ومياه.

فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك.

ودعا الله الجلد سماءً. وكان مساء وكان صباح يومًا ثانيًا.

وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة. وكان كذلك.

ودعا الله اليابسة أرضًا، ومجتمع المياه دعاه بحارًا. ورأى الله ذلك أنه حسن».

ولعلّ أهم أوجه التشابه هي[1]:

الأسطورة البابلية	التوراة
كانت الأرض بلا شكل وفارغة من الأزل.	وصِفت الأرض بأنّها (תֹהוּ וָבֹהוּ) [توهو وبوهو]؛ أي: بلا شكل وفارغة. تكوين ١/ ٢: «كانت الأرض خربة وخالية».
وجود فوضى مائية (watery chaos) سابقة لخلق الكون.	تكوين ١/ ٢: في البدء كانت روح الله ترف على وجه المياه.
الكون كبيضة محاصرة بالمياه.	الكون كبيضة محاصرة بالمياه.
الآلهة البحر اسمها (تيامت).	تكوين ١/ ٢: «على وجه الغمر ظلمة». كلمة «غمر» في الأصل العبري (תְּהוֹם) (تهوم)، وهي اسم وإن لم يكن نحويًّا مؤنثًا، إلا أنه استعمل مع أفعال ونعوت مؤنثة (تكوين ٧/ ١١، ٤٩/ ٢٥؛ تثنية ٣٣/ ١٩، إشعياء ٥١/ ١٠.). ويتابع الكثير من النقاد (هـ. غنكل) (H. Gunkel) قوله منذ أكثر من قرن: إنّ هذه الكلمة بقيّة من التراث البابلي، وهي تعني «البحر/ المحيط الأوّلي» «primeval ocean»[2].
ظهور الليل والنهار قبل خلق الشمس.	تكوين ١/ ٣ ـ ٥، ١٦: ظهور الليل والنهار قبل خلق الشمس.
لما قتل الإله (مردوك) الإلهة (تيامت) التي هي البحر، قام بشقّها نصفين، ثمّ شكّل من الأوّل قبّة السماء، ومن الثاني شكّل البحر على الأرض.	تكوين١/ ٦ ـ ٧، ٩ ـ ١٠: أنشأ الله جلدًا يفصل بين الماء الذي فوق قبّة السماء والماء الذي تحتها، ثم كوّن من الماء السفلي البحار. مزمور ٧٤/ ١٣: «أَنْتَ شَقَقْتَ الْبَحْرَ بِقُوَّتِكَ. كَسَرْتَ رُؤُوسَ التَّنَانِينِ عَلَى الْمِيَاهِ». مزمور ١٤٨/ ١، ٤: «سَبِّحُوا الرَّبَّ مِنَ السَّمَاوَاتِ. سَبِّحُوهُ فِي الأَعَالِي. . . سَبِّحِيهِ يَا سَمَاءَ السَّمَاوَاتِ، وَيَا أَيَّتُهَا الْمِيَاهُ الَّتِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ». مزمور ١٠٤/ ٣: «المسقّف علاليه بالمياه».

(١) Leonard W. King, *Enuma Elish: The Seven Tablets of Creation* (New York: AMS Press, 1976), pp.lxxxii-lxxxviii.

(٢) H. Gunkel, *Schöpfung Und Chaos in Urzeit Und Endzeit* (Göttingen, 1895), pp.29 ff.

الأسطورة البابلية	التوراة
حدث صراع بين الإله (مردوك) والآلهة البحر في بدء الخلق، وكان البحر الآلهة على شكل تنين.	تكرّر الحديث عن صراع الربّ مع التنين في (إشعياء ٢٧/ ١؛ ٥١/ ٩؛ المزمور ٧٤/ ١٣...).
خلق الربّ النجوم بعد ذلك في قبّة السماء.	تكوين ١/ ١٤: «وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء». فالأنوار موضوعة في هذه القبّة الصلبة، كما الأنوار في السقف، ملتصقة بشيء ثابت.
الأرض قائمة على أعمدة (يظهر ذلك في الفن البابلي القديم).	١ صموئيل ٢/ ٨: «لأَن لِلرَّبِّ أَعْمِدَةَ الأَرْضِ، وَقَدْ وَضَعَ عَلَيْهَا الْمَسْكُونَةَ»، وزكريا ١٠/ ٤، والمزمور ٤٧/ ..٩.

إنّ هذا التشابه جلي لا تخطئه عين من خبر أمر الأسطورة البابلية، وهو ما دفع الأكاديمي **الإنجيلي** (جون والتون) (John Walton) ـ أستاذ العهد القديم في (Wheaton College)[١] ـ منذ بضع سنوات لتأليف كتابه «العالم الضائع للفصل الأول من سفر التكوين: الكوسمولوجيا القديمة والنقاش حول الأصول»، مؤكدًا أنّ عِماية الكنيسة عن حقيقة دلالة مدخل سفر التكوين على البداية التكوينية لا الإنشائية للكون، سببها جهل الكنيسة بكوسمولوجيا الشرق الأدنى القديم التي تقرّر أزليّة المادة وتحصر دور الربّ في تشكيلها، قائلًا: «باختصار، تشير الأدلة... من العهد القديم وكذلك من الشرق الأدنى القديم أنّهما (التوراة وقصة الخلق من الشرق الأدنى القديم) يُعرّفان حال ما قبل الخلق بالعبارات نفسها، ويُظهِران تميّز هذه الحال بغياب الوظائف (absence of functions) لا غياب المادة. وتدعم هذه المعلومة فكرة أنّ مفهومهما للوجود مرتبط بالطبيعة الوظيفية (functionality)، وأنّ الخلق هو عملية إيجاد وظيفة لحال عاطل عن الوظيفة وليس إيجاد مادة في واقع تغيب عنه المادة»[٢].

---

(١) (والتون) عالم توراتي متخصص في باب علاقة تراث شرق الأدنى القديم بالتوراة، وله في ذلك مؤلفات أخرى، مثل:

(*Ancient Israelite Literature in its Cultural Context*) و(*Genesis 1 as Ancient Cosmology*).

(٢) John H. Walton, *Lost World of Genesis One: Ancient Cosmology and the Origins Debate* (Downers Grove, Ill.: IVP Academic, 2009), p.53.

ورغم مقدمة (ويليام لين كريغ) و(بول كوبان) الحماسية لكتابهما: «الخلق من عدم»، وتوسّعهما في الردّ على المخالفين، إلّا أنهّما عندما تعرّضا لعلاقة التأثير بين «إنوما إليش» وقصة الخلق التوراتية، اختارا الأسلوب الشعبي في الردّ لدفع تهمة الاقتباس، وذلك بالحديث قصرًا عن الاختلافات بين القصّتين، دون دراسة أوجه التطابق أو الشبه[1]. فجوابهما يجيب عن غير سؤالنا، إنه يردّ على سؤال: «هل نقل النص التوراتي قصة الخلق السومرية/ البابلية بكلّ تفاصيلها؟» وهو أمر ليس محل جدل ابتداءً، وإنمّا السؤال هو: «هل استفاد كاتب سفر التكوين من قصّة الخلق السومريّة/البابلية عند صياغته للفصل الأوّل؟»، وهو ما فرَّ من الإجابة عنه كُلٌّ من (كريغ) وصاحبه.

وهنا لا بدّ أن نقرّر ثلاثة أمور هامة حتى لا يلتبس على القارئ فهم ما نريد بيانه:

١ ـ هناك اختلاف واسع بين قصة الخلق التوراتية وقصة الخلق البابلية، وذلك في مفهوم الألوهية، وعلاقة الإلٰه بالخلق، وعدد من الأمور الأخرى.

٢ ـ لا يلزم من التشابه بين قصّتَي الخلق أن تكون القصة التوراتية مفتراة كلّها، بل الراجح في كثير من الأحيان أنّ تشابه التفاصيل بين الموروث اليهودي والتراث الأسطوري البابلي سببه اقتباس اليهود من التراث البابلي تفاصيل جديدة لأصل القصة التي عندهم، كما هو الأمر في شأن قصّة (نوح) عليه السلام والطوفان، فالتشابه بين القصّتين بلغ حدّ التطابق الكامل في تفاصيل كثيرة[2]. ومردّ ذلك أنّ طوفان (نوح) عليه السلام قد أصاب أرض العراق، فأثّر في المخيال السومري والبابلي لمدّة طويلة، حتى إننا نجد آثار ذلك في (ملحمة جلجامش)... ولما كانت التوراة قد جمعت رواياتها المختلفة وضُمّت إلى بعضها مع التعديل والتحريف والتوفيق على يد (عزرا) الكاهن إبّان السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد فقد تبنّت الكثير من تفاصيل

---

(١) Paul Copan and William Lane Craig, *Creation out of Nothing*, pp.30-36.

(٢) Stephanie Dalley, *Myths from Mesopotamia: Creation, the Flood, Gilgamesh, and Others* (Oxford; New York: Oxford University Press, 1989).

الطوفان العراقي القديم في نكهته الوثنية (ولذلك نظير في التراث الإسلامي؛ إذ نقلت كتب التفسير الكثير من تفاصيل التراث اليهودي وخرافاته عند وجود إطار كبير جامع بين نصوص القرآن وتراث اليهود).

٣ ـ كانت الحضارات القديمة، البابلية والمصرية وغيرهما زمن السبي البابلي وقبله، تؤمن بأزلية الكون، ولم تكن تعتقد أنّ الآلهة سابقة للوجود المادي. ولم تُبدِ التوراة خروجًا عن مقتضى ذلك، وهو ما يدعونا إلى فهم قصّة الخلق التوراتية في إطارها الثقافي ذاك.

الأمور الثلاثة السابقة تهدينا إلى أنّه يبعد أن نتوقّع تخلّي اليهود عن جميع أصولهم لصالح الحضارة الغالبة، وإنما الأرجح أن يأخذ اليهود من غيرهم شيئًا من تصوّراتهم الكونية، خاصة ما كان شائعًا بين الأمم القديمة، وبالذات ما تعلّق بالمعارف العلمية في ذهنية بدائية.

وسؤالنا الذي نتحدّى به (كريغ) هو: ما تفسير مشابهة التوراة للتراث الكوسمولوجي البابلي؟

أهي الصُدَف؟

الجواب: لا، فالصدفة لا تفسّر هذا التطابق في التفاصيل. وهي تفاصيل لا يمكن ردّها لحقائق علمية أو تاريخية، حتّى يُقال: إنّ مردّ التطابق ذكاء القدماء؛ إذ إنّ ما ذكرناه فاسد علميًّا، وهو محض خرافة.

أهو لسبق التوراة لقصة بلاد ما بين النهرين؟

الجواب: أجمع الباحثون أنّ أصل قصة «أنوما إليش» أسبق زمنًا من عصر (موسى) عليه السلام، ولم ينكر ذلك أحد من أكابر المدافعين عن النصرانية في الغرب من الأركيولوجيين وغيرهم، بما فيهم (كريغ) نفسه.

لم يبق لنا إذن غير الاقتباس. ولأنّ موضوعنا لا يهدف فقط إلى إثبات أثر الحضارات القديمة على رواية الخلق التوراتية، وإنما جهدنا منصرف لبيان مفهوم «الخلق من عدم» في التوراة، فسنسأل الآن السؤال الذي يعبّر عمّا نريد:

«ثبت أنّ التوراة قد تبنّت عددًا من التصوّرات الكونية البابليّة، فهل يمثّلُ تصوّر أزليّة الكون أحدها؟».

وجواب السؤال السابق هو في معرفة أصل الأرض والماء في التوراة؛ فهما مظهر الوجود المادي في قصة الخلق.

ومفتاح الإجابة عن هذا السؤال نجده في مقدمة التوراة: «فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ». (تكوين ١/١). وهو نصٌّ ـ فيما يبدو ـ واضح الدلالة على أنّ الله خلق في بدء الزمان الكون كلّه، فعبارة «السماوات والأرض» هي الصيغة العبرية القديمة للتعبير عن معنى «الكون»، ولذلك يسود في الثقافة الشعبية الغربية، بين النصارى والملاحدة، الاعتقاد أنّ التوراة تقرّر بلا شك أنّ الكون مخلوق.

وللأسف تبقى دراسات الأكاديميين بين الرفوف دون أن تصل إلى رجل الشارع، وروّاد الكنائس؛ إذ إنّ الجدل العلمي حامٍ حول ترجمة هذا النص الذي يقول بالعبرية:

בְּרֵאשִׁית בָּרָא אֱלֹהִים אֵת הַשָּׁמַיִם וְאֵת הָאָרֶץ	بريشيت برا إلوهيم إيت هشّامَيم وإت هاآرتس

والجدل منصب أساسًا على ترجمة عبارة: «בְּרֵאשִׁית» «بريشيت»، فالباء بمعنى «في/عند» و«ريشيت» بمعنى «بدء»، فهل تترجم العبارة «في البدء» كما هي الترجمة التقليدية المعروفة، بإضافة أداة التعريف في اللغة العبرية (هـ) (ה) بصورة مضمرة، أم تترجم «في بدء»، بمعنى أنّ النص يقول: «عندما بدأ الله في خلق السماوات والأرض»؟، فالنص بذلك يصف حال الكون عندما بدأ الله التعامل معه؛ أي: إنّ هناك وجودًا ماديًّا أزليًّا مع الله، ويكون نص تكوين ١/١ بذلك بداية تشكيل هذا الوجود المادي لا بداية إخراجه من العدم.

إنّ الصيغة التي تقرّر أنّ الكون أزلي، وأنّه «عند بدء خلق السماوات والأرض» كان صنيع الرب متمثلًا في تصوير الوجود لا إيجاده من العدم، لها أنصارها من علماء التوراة العبرية، بل قد تبنّتها ترجمات معتبرة رغم ما

يحمله لها ذلك من عداوات الأصوليين النصارى واليهود في سوق الكتب حيث تتحكم توجّهات الزبائن في اختيارات المترجمين[1]. ومن هذه الترجمات:

New Revised Standard Version: "In the beginning when God created the heavens and the earth - the earth was a formless void".

ترجمة (New Revised Standard Version) (١٩٨٩م) هي مراجعة حديثة لواحدة من أهم الترجمات البروتستانتية الإنجليزية اليوم (Revised Standard Version). وقد قام على هذه المراجعة عدد كبير من المتخصصين من البروتستانت والروم الكاثوليك والأرثودكس اليونان. وهي ترجمة مزكاة بصورة رسمية من ٣٣ فرقة كنسية بروتستانتية، وحصلت على إجازة النشر من «اتحاد المطارنة الكاثوليك في الولايات المتحدة»، وفي كندا. كما زكّاها رأس الكنيسة اليونانية الأرثودكسية.

New American Bible: "In the beginning, when God created the heavens and the earth and the earth was without form or shape".

ترجمة (New American Bible) (١٩٧٠م) هي أكثر ترجمة كاثوليكية إنجليزية تداولًا في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد قام عليها خمسون من العلماء الكاثوليك، وتتميّز بطابعها الحَرْفيّ. وهي حاصلة على الإجازة البابوية للنشر (imprimatur). وقد جاء في هامشها: «صنع الله كونًا منظمًا من فوضى بدائية... كان السطر الأوّل يترجم دائمًا حتى العصور الحديثة: «في البدء خلق الله السماوات والأرض». العديد من قصص الخلق المقارنة المكتشفة حديثًا فيها صيغة: «عندما... ثم» «when...then»، وهو ما يؤكّد صيغة: «عندما... ثم» هنا أيضًا. تقدّم «عندما» الحال السابقة للخلق، وتقدّم «ثم»

---

(١) ومن ذلك موقفهم العنيف من الترجمات التي حوّلت «عذراء» إلى «فتاة شابة» في إشعياء ٧/ ١٤؛ إذ النص العبري قد استعمل عبارة «עלמה» [علما] التي تقابل «غلامة» لا «عذراء» في العربية. وقد هوجمت ترجمة (Revised Standard Version) وأحرِقت نسخٌ منها على الملأ بسبب تبنّيها عبارة «فتاة شابة» في النص السابق:

David Dewey, *A User's Guide to Bible Translations* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2004), p.87.

العمل الخلقي المؤثّر على تلك الحال. لا تعكس الترجمة التقليدية «في البدء» الطبيعة النحوية العبرية لهذا المقطع».

New English Bible :"In the beginning of creation, when God made heaven and earth, the earth was without form and void".

ترجمة (New English Bible) (نشر العهد القديم في ١٩٧٠م) قام بها مجموعة من كبار العلماء المتخصصين، ودعمتها كثير من الكنائس في بريطانيا. وقد زكّاها عدد من كبار النقاد، منهم الناقد النصراني المحافظ «ف. ف. بروس» «F. F. Bruce».

Traduction Œcuménique de la Bible: "Lorsque Dieu commença la création du ciel et de la terre, la terre était déserte et vide".

ترجمة (Traduction Œcuménique de la Bible) (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦م) هي واحدة من أهم الترجمات الفرنسية للكتاب المقدس، وقد أشرف عليها عدد من العلماء الكاثوليك والبروتستانت. وكان الآباء الدومنيكان هم من أطلقوا هذا المشروع في البدء.

Young's Literal Translation: "In the beginning of God's preparing the heavens and the earth - the earth hath existed waste and void".

ترجمة (Young's Literal Translation) (١٨٦٢م) قام بها (روبرت يونغ) (Robert *Young*) صاحب المعجم الكتابي الإحصائي الشهير (*Young's Analytical Concordance to the Bible*).

New Jewish Publication Society of America Tanakh (NJPS): "When God began to create heaven and earth - the earth being unformed and void".

ترجمة (NJPS) (نشر سفر التكوين سنة ١٩٦٢م) قام بها مجموعة من العلماء المتخصصين في كل من التراث اليهودي والدراسات الكتابية الحديثة. وهي أوسع ترجمة يهودية انتشارًا بين اليهود الناطقين بالإنجليزية اليوم.

كما اختار الناقد الكبير (ريتشارد إليوت فريدمان) (Richard Elliott Friedman) في ترجمته للكتب الخمسة المنسوبة إلى (موسى) عليه السلام (٢٠٠٣م)

الصيغة التالية: «In the beginning of God’s creating the skies and the earth - when the earth had been shapeless and formless»[1].

ومما قد يفاجِئ (كريغ) وبقية النصارى المحافظين، أنّ (ويليام فوكسول ألبرايت) (William Foxwell Albright) ـ عالم الأركيولوجيا الكتابية واللغات السامية الشهير، والنصراني المحافظ ـ قد اختار ترجمة النص هكذا: «When God began to create heaven and earth - and the earth was chaotic and empty»[2]. وإن كان قد أضاف أنه لا يعتقد أنّ مؤلّف نص تكوين ١ قد اقتبس قصة الخلق من حضارة بلاد الرافدين، وإنّما هي قصة تنتمي إلى نفس المجال العام لقصص تلك البيئة[3].

ومن نوادر (كريغ) زعمه حدوث إجماع بين المفسّرين على العودة إلى الترجمة التقليدية ورفض الترجمة التزمينية التي ذكرناها[4]، رغم تعاظم الثورة على القراءة الكلاسيكية حتى إنّ كلًّا من (روبرت كوت) (Robert Coote) و(دافيد أورد) (David Ord) قالا في كتابهما: «في البدء: الخلق والتاريخ الكهنوتي» إنّ الترجمة التقليدية خطأٌ، وإنّ «**المؤرخين عامة على علم بهذا**، ولكنّ الترجمات مستمرة في ترجمة النص العبري بهذه الصيغة لأنها تقليدية جدًّا»[5]. كما أكّد ذلك (جاك سَسُون) (Jack Sasson) ـ أستاذ الدراسات اليهودية والتوراتية، والمتخصص في علم الآشوريات والأسفار العبرية ـ بقوله: «أنا شخصيًّا أعتقد ـ رغم وجود علماء قديرين متخصصين في فقه اللغة (philologists) لا يزالون يدافعون عن الترجمة التقليدية ـ أنّ التفسير

---

(١) Richard Elliott Friedman, *The Bible with Sources Revealed* (San Francisco: HarperSanFrancisco, 2003).

(٢) W. F. Albright, "Contributions to Biblical Archaeology and Philology", in *Journal of Biblical Literature*, Vol. 43, No. 3/4 (1924), p.365.

(٣) المصدر السابق.

(٤) "There has really been, I think, a new consensus emerging on this question by commentators that, in fact, the traditional understanding of this as an independent clause has been emerging.

< http://www.reasonablefaith.org/defenders-1-podcast/transcript/s16-02 >.

(٥) Robert B. Coote and David Robert Ord, *In the Beginning: Creation and the Priestly History* (Minneapolis: Fortress Press, 1991), p.50.

[المخالف] هو على الحقيقة غير قابل للنقاش: أولًا لأنه مدعوم بعلم النحو وعلم النظم، وثانيًا لأنّ روايات الخلق الأخرى هي أيضًا تبتدئ بمقاطع زمانية أو ظرفية، وثالثًا لأنّ أوّل الأوامر الإلهية لم يظهر إلا بداية من العدد الثالث»[(١)].

ومن اللافت للنظر أنّ عامة الترجمات التي اختارت الصيغة التقليدية: «في البدء خلق الله...» تضع في الهامش القراءة الأخرى «عندما بدأ الله في خلق...»[(٢)]، وهو ما يعني إقرارها بأنّها بديل آخر لا يخلو من شرعية.

وهذه الترجمة التزمينية تجد دعمًا من اثنين من أهم علماء اليهود في القرون الوسطى: (راشي) (רבי שלמה יצחקי) المتوفى سنة ١١٠٥م، و(ابن عزرا) (**אבן עזרא**) المتوفى سنة ١١٦٧م. وقد اعتمد (راشي) في اختياره ترجمة عبارة «بريشيت»: «في بدء» على أنّ هذه الصيغة موجودة أيضًا في العهد القديم (إرمياء ٢٦/ ١، الأمثال ٨/ ٢٢)، أمّا (ابن عزرا) فقد اعتمد في ما اختاره على غياب أداة التعريف[(٣)].

وقد حاول (كريغ) أن ينصر ترجمته المفضلة بالقول: إنها توافق النص الماسوري (أي: النص العبري بعد أن أضيفت إليه الصوائت بداية من القرن السابع الميلادي). وهي دعوى فاسدة من أوجه، منها:

• يخبرنا (ويليام فوكسول ألبرايت) باعتراف الماسوريين بالقراءتين، فقد كتب قائلًا: «كما هو معلوم، فهناك تفسيران متخالفان للتركيبة النحوية لتكوين ١/ ١ ـ ٢، وقد اعترف الماسوريون بشرعيّتهما، وأشاروا إليهما ضمنًا في نطق الكلمتين الأوليين...»[(٤)]، وبالتالي فلا حجة في النص الماسوري لدعوى (كريغ).

---

(١) Sasson, "Time... to Begin," pp.187-188 (Quoted by Mark Smith, *The Priestly Vision of Genesis 1* (Minneapolis: Fortress Press, 2010), p.45)

(٢) Robert D. Holmstedt, "The Restrictive Syntax of Genesis I 1", in *Vetus Testamentum,* Vol. 58, Fasc. 1 (2008), p.58.

(٣) Mark Smith, *The Priestly Vision of Genesis 1*, p.44.

(٤) W. F. Albright, "Contributions to Biblical Archaeology and Philology", p.364.

• فسّر (كريغ) كلمة (الماسوريين) بأنّهم النسّاخ الأوائل، وبعيدًا عن فساد اختزال عملهم في النسخ، يعتبر وصفهم «بالأوائل» تدليسًا؛ لأنه يوحي للسامع أنهم عاشوا في الزمن المبكر للنسخ، والحقيقة هي أنّ (الماسوريين) الذين حرّكوا النص قد عاشوا بين القرنين السابع والعاشر ميلاديًّا، وهي مرحلة متأخرة جدًّا في تاريخ اللاهوت اليهودي، حيث شاع القول بالخلق من عدم.

• أهم العلماء اليهود الذين قاموا بتحريك النص لتحديد معاني ألفاظه هم طائفة اليهود (القرائين)، خاصة عائلة (ابن آشر) التي لقي عملها قبولًا بين جماهير اليهود، وهي جماعة يهودية متأثّرة بصورة بالغة بالعقيدة الإسلامية، خاصة فكر المعتزلة، وهو ما يشكّك في أصالة تشكيل النص بما يفيد الخلق من عدم.

كما زعم (كريغ) و(كوبان) أنّ الترجمة اليونانية السبعينية تنصر القراءة التقليدية. وهي دعوى ليس عليها برهان قاطع؛ إذ إنّ الترجمة اليونانية تقول: «ἐν ἀρχῇ» [إن أَرْشِي]، وهي لا تضم أداة التعريف [تي] قبل [أرشي]. ورغم صواب القول: إنّ [أرشي] لا تُسبق عادة بأداة تعريف، إلا أنّ الناقد (روبرت هلمستت) (Robert Holmstedt) يعترض على الاستدلال بالسبعينية للترجمة التقليدية لأنّ ذاك ليس قاعدة مطّردة، فقد استعملت [أرشي] مسبوقة بأداة التعريف في مواضع أخرى لـ(بداية)، مثل تكوين ٤١/ ٢١ حيث وردت [أرشي] معرّفة «τὴν ἀρχήν» في ترجمة «בַּתְּחִלָּה»[1]. «وهذا يدلّ على أنّ الترجمة السبعينية تقدّم شهادة غامضة في أفضل حال، ومن المؤكّد أنّها لا تنصر القراءة العبرية [بريشيت] المعرّفة»[2].

واستدلّ (كريغ) بقول آباء الكنيسة بالخلق من عدم. وهي حجة واهية إذ إنّ (كريغ) نفسه يعترف أنّ آباء آخرين لهم وزن لاهوتي عظيم قد قالوا بأزلية الكون، خاصة من الأوائل، كـ(جستين الشهيد) و(كلمنت السكندري)

---

(١) Robert D. Holmstedt, "The Restrictive Syntax of Genesis I 1", in *Vetus Testamentum,* Vol. 58, Fasc. 1 (2008), p.57.

(٢) المصدر السابق.

و(باسيليوس القيصري) و(غريغوريوس النيصصي)[1].

واستدلّ (كريغ) و(كوبان) ببعض نصوص العهد الجديد لإثبات الخلق من عدم، وذاك منهما مردود لأسباب:

١ ـ ناقض (كريغ) نفسه هنا؛ إذ أنكر على مخالفيه محاولة تفسير قصة الخلق الواردة في سفر التكوين بغيرها من النصوص التي كتبت بأقلام كتّاب آخرين وبأسلوب آخر ضمن الكتاب المقدس، في حين أنه ينصر هنا نص التكوين بنصوص أسفار أخرى.

٢ ـ ليس من بين النصوص التي استدلّ بها (كريغ) ما هو محكم الدلالة على الخلق من عدم. ومن ذلك أنّ النصّ المفضّل لمن يزعمون الخلق من عدم هو عبرانيين ١١/٣: «حتّى لَمْ يَتَكَوَّنْ مَا يُرَى مِمَّا هُوَ ظَاهِرٌ» والنص في الأصل اليوناني: «εἰς τὸ μὴ ἐκ φαινομένων τὸ βλεπόμενον γεγονέναι» وصياغته في الترجمات الإنجليزية: «so that what is seen was not made out of what was visible» (NIV). والنص بذلك يخبرنا أنّ الكون قد نشأ من مادة غير مرئية، لا أنّه نشأ عن غير مادة!

٣ ـ سفر ٢ أخنوخ (الأبوكريفي)، ألّف في حدود عقود من تأليف الرسالة إلى العبرانيين. وقد جاء فيه بيان أنّ الله قد خلق المبصَر من غير المبصر، وأنّه «قبل وجود أي شيء مبصر، كان الربّ يجول في الأشياء غير المبصرة، مثل الشمس، من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.» (٢أخنوخ ٢٤)[2]. وعلّق (ف. إ. أندرسون) (F. I. Anderson) مترجم ٢أخنوخ إلى الإنجليزية بأنّ هذا النص «صريح جدًّا» «quite explicit» في شأن أزلية الشيء غير المرئي الذي كان مع الله منذ البدء[3].

---

(١) William Lane Craig, *Creatio Ex Nihilo:* A Critique of the Mormon Doctrine of Creation.
<http://www.reasonablefaith.org/creatio-ex-nihilo-a-critique-of-the-mormon-doctrine-of-creation>.

(٢) Enoch, in James Charlesworth, ed., F. I. Anderson, trans. *The Old Testament Pseudepigrapha* (New York: Doubleday & Co., 1983), 1/142.

(٣) المصدر السابق.

٤ ـ الإجماع حاصل منذ القرن التاسع عشر على أنّ الرسالة إلى العبرانيين برمّتها لم يكتبها (بولس) رغم أنها تنسَب إليه[١]، وجمهور النقاد على أنّ مؤلّفها مجهول لا يُعرَف. فكيف يُحتجّ برسالة منسوبة كذبًا إلى قديس الكنيسة (بولس) لإثبات عقائد الكنيسة!

٥ ـ جاء في ٢بطرس ٣/ ٥: «السَّمَاوَاتِ كَانَتْ مُنْذُ الْقَدِيمِ، وَالأَرْضَ بِكَلِمَةِ اللهِ قَائِمَةً مِنَ الْمَاءِ وَبِالْمَاءِ»، فالكون ليس من عدم، ولا هو من شيء لامرئي، وإنّما هو طبق ما جاء في الرسالة الثانية لبطرس من ماء! علمًا أنّه لا يوجد أي إيحاء بخلق الماء في قصة الخلق التكوينية، فالماء موجود منذ بداية القصة.

٦ ـ استدعى النصارى نص يوحنا ١/ ٣: «**في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان**». هذا النص ليس في الخلق من عدم، وإنما في تحديد شخص الخالق: (اللوغوس/ الكلمة). ولا يمكن فهم الخلق من عدم منه حتى يُفهم الإيجاد هنا على أنه يعني الإنشاء من عدم لا التصوير، وهذا ما يُنازع النصارى فيه، فالتعبير عن (اللوغوس/ الكلمة) التي تخلق في الثقافة اليونانية القائلة بأزلية المادة، معروف ـ أساسًا في كتابات (فيلو السكندري) ـ في ظلّ تصوّر لاهوتي يمنع الخالِق المتعالي، اللامتغيّر، من ملامسة الزمني، وهو ما أنتج مفهوم (اللوغوس/ الكلمة) الوسيط بين الله والعالم المادي.

ثمّ إنّ ترجمة النصارى يوحنا ١/ ٣ للدلالة على الخلق من عدم محلّ نظر، إن تنزّلنا في المحاورة. إذ ينبّهنا (جيمس هبلر) (James Hubler) إلى أنّه بسبب غياب علامات الترقيم في المخطوطات الأولى للأناجيل، فإنّ القائلين بالخلق من عدم بإمكانهم استعمال نص يوحنا ١/ ٣ إذا أضافوا نقطة قبل «ممّا كان». وللقائلين بالخلق من مادة سابقة أن ينتصروا لمذهبهم بدلالة هذا النص

---

(١) Orello Cone, *The Epistles to the Hebrews, Colossians, Ephesians, and Philemon, the Pastoral Epistles, the Epistles of James, Peter and Jude, Together With A Sketch of the History of the Canon of the New Testament* (New York & London, G.P. Putnam's Sons, 1901), pp.3-4.

إذا اعتبروا الكلام متعلّقًا ببعضه البعض. وهو ما يعني أنّ النصّ غير حاسم في غياب علامات الوقف[1].

وللباحث (جيمس هبلر) كلام نفيس في دلالة العهد الجديد على الخلق من عدم في أطروحته للدكتوراه: «الخلق من عدم: المادة، والخلق، والجسد في الفلسفة الكلاسيكية والمسيحية حتّى الأكويني» (١٩٩٥م). فقد قال: «**ظهرت عقيدة الخلق من عدم فجأة في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي**... وكما رأينا، لم تُفرض هذه العقيدة على المجتمع المسيحي من تراثهم الوحيي، سواء النصوص الكتابية أم التفسيرات اليهودية المبكّرة لها. وكما سنرى أيضًا، لم تكن هي مذهب العهد الجديد ولا حتى مذهب كتابات ما بعد العصر الرسولي. لقد كانت هي الموقف الذي اختاره المدافعون عن النصرانية **في آخر القرن الثاني**، (تاتيان) و(ثيوفيلوس)، وتمّ تطويرها من طرف كتّاب الكنيسة بعد ذلك مثل (إيرانيوس) و(ترتليان) و(أريجانوس). تمثّل عقيدة الخلق من عدم بدعة في التراث التفسيري للوحي، ولا يمكن تفسيرها باعتبارها امتدادًا للتراث... اعتُبرت كثير من نصوص العهد الجديد كحجج لعقيدة الخلق من عدم. **لم يقدّم أيّ نص منها دعوى صريحة**»[2].

ولنا أن نضيف أنه حتى لو صحّ أن بعض النصوص الإنجيلية تفيد الخلق من عدم، فإنّ ذلك لا يغيّر من موقفنا من (كريغ) شيئًا؛ إذ إنّ دلالة تكوين ١ و٢ بمنأى عن تلك العقيدة لاختلاف المؤلّفين. ومبلغ أمل (كريغ) عندها هو إثبات التناقض بين دفّتي الكتاب المقدّس. ويبقى سفر التكوين محتكرًا للرواية **التفسيريّة** للبداية التكوينيّة للوجود المادي الأوّل.

ولعلّ أضعف ما احتجّ به (كريغ) لمذهبه هو ما زعم أنّه الأقوى، وهو ما

---

(١) James N. Hubler, "Creatio ex Nihilo: Matter, Creation, and the Body in Classical and Christian Philosophy through Aquinas" (PhD diss., University of Pennsylvania, 1995), Manuscript, 108.

لتحميل نسخة الأطروحة:

<http://repository.upenn.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=2119&context=edissertations>.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٢، ١٠٧ ـ ١٠٨.

ذهب إليه أحد النقّاد من أنّ نص تكوين ١/١ ليس له نظير في التراث القديم؛ إذ إنّ أساطير الخلق القديمة كانت تبدأ بصيغة: «عندما . . . لم يوجد بعد، عندها قام الإله بـ . . . ». **وهذا الناقد يرى الصيغة الأسطورية مستعملة بداية من تكوين ١/ ٢ وفي ٢/ ٥ ـ ٧**. وهو دفاع واه، لأسباب، منها:

١ ـ أساطير الخلق القديمة تقرر أنّ الآلهة نفسها مخلوقة، وأنّ الكون بلا شكل من الأزل، فليست الآلهة هي الأولى، بل هي محدثة.

٢ ـ ما فعله (كريغ) هو مصادرة على المطلوب؛ فهو يقول: إن أخذنا بالترجمة التقليدية، فليس عندها لهذه الصيغة نظير. ونحن نرى أنّ أصل النزاع هو في شرعية الترجمة التقليدية، فكيف ـ إذن ـ يتّخذها حجّة لنفسه!

٣ ـ وجود الصيغة الأسطورية في المقطع اللاحق مباشرة (تكوين ١/ ٢) حجّة لنا لا علينا؛ إذ هي تؤكّد سلطان القصص الأسطوري القديم على الصيغة التوراتية.

٤ ـ حتى لو قبلنا الترجمة التقليدية، فإنّه بإمكاننا النظر إليها كعنوان لقصة الخلق، وتكون بذلك القصة باعتراف (كريغ) مبتدئة بالأسلوب الأسطوري القديم المألوف؛ إذ تكون الجملة الأولى من سفر التكوين كعنوان لقصة الخلق، وليست جزءًا من الرواية: «The is the in - the - beginning - God - created story»[1].

ونحن حتى لو سلّمنا مع (باري بندسترا) في مَدخله للتوراة أنّ كلا الترجمتين جائز لغة[2]، فإننا لا بدّ أن نفضّل الترجمة التزمينية؛ إذ بالإضافة إلى أنها الأقرب إلى حرف النص، كونها لا تضم أداة التعريف (هـ)، فإنّها تجعل النص مفهومًا بصورة واضحة، على خلاف الترجمة الأخرى التي توقع القارئ في حيرة.

---

(١) Barry Bandstra, *Reading the Old Testament: Introduction to the Hebrew Bible* (Belmont, CA: Wadsworth, 1995), pp.38-39.

(٢) المصدر السابق، ص٣٨.

عناصر قصة الخلق التوراتية

المادة الأولى للخلق	خلق السماء	خلق الأرض
تكوين ١/١ ـ ٢	تكوين١/٦ ـ ٩	تكوين ١/٩
عندما بدأ الله في خلق السمٰوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه.	وقال الله: ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلًا بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد... ودعا الله الجلد سماء... وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد.	وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة.

تفاصيل قصة الخلق طبق ترجمتيها

القراءة التقليدية	القراءة التزمينية
تكوين ١/١: خلق الله السماوات والأرض بما فيهما.	تكوين ١/١ ـ ٢: عندما بدأ الله في الخلق كانت المادة الأولى للأشياء موجودة: الأرض والماء.
تكوين ١/٦: ثم خلق السماء.	تكوين ١/٦: أنشأ الله في وسط المياه حاجزًا، وهو قبّة السماء.
تكوين ١/٩: ثم خلق البحار.	تكوين ١/٩: جعل الله من الماء الأزلي بحارًا.
تكوين ١/٩: ثم خلق الأرض.	تكوين ١/٩: ثم جعل الله من الأرض غير المشكّلة أرضنا الحالية.

إنّ الترتيب في القراءة التزمينية واضح، جليّ، سلس؛ فقد كانت المادة الأولى للكون: أرضًا ليس لها شكل وفارغة، وكانت المياه مجتمعة بلا شكل، ففصل الربّ المياه عن بعضها، جاعلًا جزءًا منها فوق السماء، والآخر مادة البحار، ثم قرّر أن يصوّر الأرض من مادة الأرض الخربة. وهو فهم يراعي اللغة والسياق وتتابع الأحداث دون تكلّف. وينتهي بذلك إلى موافقة

الأسطورة البابلية في أصل الكون، بل وعامة الأساطير السائدة في تلك المدّة في مصر.

وإن شئت قطع قول كلّ لجوج، فقل: كيف كان كاتب التوراة سيكتب قصة الخلق لو كان موافقًا للثقافة البابلية القائلة بأزلية مادة الكون، وتدخل الرب التكويني لا الإبداعي من العدم المحض؟ وكيف كان سيعبّر عن أصل ماء الأرض وحقيقة ماء السماء، وطبيعة الأرض الأولى الأزلية قبل تشكيلها؟

أظنه كان يقول: لما بدأ الرب في تشكيل الكون الذي نعرفه اليوم، قام إلى المادة الأولى التي لم يكن لها شكل، ففصل الماء الأول إلى ماء تحت السماء، وماء يعلو الأرض، وقام إلى الأرض الخربة، فصنع منها أرضًا صالحة للعيش.

لا أظنّ أنّ (ويليام لين كريغ) سيخالفني في الصياغة السابقة للتعبير عن قصّة الخلق البابلية، ولكنني لا أدري لِمَ يعترض على مطابقة نص سفر التكوين لتلك الصياغة؟! أليستا بنفس اللفظ تقريبًا، وبنفس الدلالة يقينًا؟! وأليس هو نفسه يعترف مع (كوبان) أنّ مؤلّف سفر التكوين كان عالمًا بقصص الخلق المشتهرة في الشرق الأدنى القديم؟![1]، فلِمَ يمنع إذن إمكانية التأثّر مع قيام القرائن النصية لذلك؟![2].

إنّ تصوّر مفهوم الكون الذي اقتبسته التوراة، أزليّ لا بداية له كما في الأصل السومري ـ البابلي، وقد أكّد المؤرخ (ديودور الصقلّي) (Διόδωρος Σικελιώτης) (القرن الأول قبل الميلاد) التصوّر العراقي

(١) Paul Copan and William Lane Craig, *Creation out of Nothing*, p.37.

(٢) تأثُّرُ الكتاب المقدس وعقائد الكنيسة بثقافات الأمم الوثنية القديمة في أكثر من باب، معلوم، دلّت عليه الشواهد القوية، انظر كتابنا: هل اقتبس القرآن الكريم من كتب اليهود والنصارى، ص٥٨٣ ـ ٦١٢. ومن المهم الإشارة هنا إلى وجوب التعامل بحذر مع الكتابات الغربية في باب أثر العقائد الوثنية في الأسفار المقدسة للكنيسة؛ إذ تنزع كثيرًا إلى المغالاة والتكلّف، فتجمع بذلك الحق مع الباطل، ويمثّل هذا النمط في المكتبة العربية كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» لـ(محمد بن طاهر التنير)؛ إذ ينقل عن الكتب الغربية دون تحقيق.

القديم بقوله: «كان الكلدانيون يقولون: إنّ مادة العالم أزليّة، وإنّه ليس لها بداية ولن تهلك في آخرٍ»[1]. ولا يبدو أنّ مؤلف الفصل الأول من سفر التكوين حاول بيان مخالفته لأصل المادة الأولى للخلق في العراق القديمة، وهو ما يبقي الأمر على أصله، وينفي دعوى دلالة سفر التكوين على الخلق من عدم.

وقد أحسن الفيلسوف اللاهوتي النصراني (توماس جاي أوورد) و(Thomas Jay Oord) إذ لخّص حقيقة الحال بقوله: «لا ينصر الكتاب المقدس الخلق من عدم، بل على العكس من ذلك، يذكر مؤلّفو الكتاب المقدس دائمًا أنّ الله خلق من شيء... قدّم مؤلفو الكتاب أوصافًا مختلفة «للشيء» الذي خلق الله منه. في سفر التكوين، تعامل الروح مع [توهو وبوهو] (الفراغ الذي لا شكل له)، أو ما يُترجم غالبًا إلى «الفوضى البدائية» أو «كتلة عديمة الشكل» (١/ ٢). يحوّل الله بصورة خلاقة الفوضى واللاتشكّل إلى شيء جديد: السماوات والأرض (١/ ١). يخلق الله من شيء، حتى لو كان «الشيء» هو في البداية غامضًا أو غير منتظم أو فوضويًّا.

يتحدّث سفر التكوين عن [تهوم]، «وجه الغمر» الذي رفرف عليه الله لما كان يخلق (١/ ٢). «الغمر» هو شيء، وليس حرفيًّا لاشيء. يؤمن العديد من علماء الكتاب المقدس: أنّ [تهوم] تعني وجود ماء أوّليّ لما خلق الله السماوات والأرض. تَنْصُرُ أصرح رؤية في العهد الجديد (٢ بطرس ٣/ ٥: «السَّمَاوَاتِ كَانَتْ مُنْذُ الْقَدِيمِ، وَالأَرْضَ بِكَلِمَةِ اللهِ قَائِمَةً مِنَ الْمَاءِ وَبِالْمَاءِ») هذا الرأي. الماء طبعًا هو شيء وليس لاشيئًا.

ويرفض عدد كبير من علماء الكتاب المقدس فكرة أنّ سفر التكوين يتحدّث عن الإيجاد من عدم... خلاصة القول، نحن نبحث عبثًا في الأسفار

---

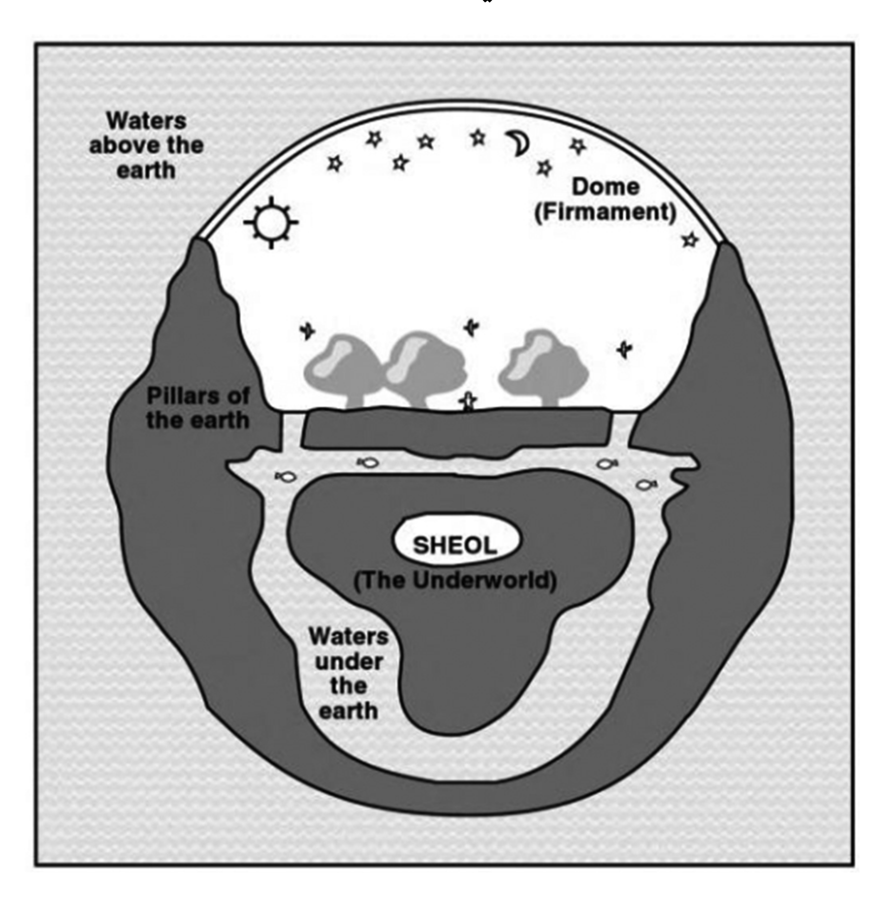
(١) اقتبسه:

Alexander Heidel, *Babylonian Genesis: The Story of the Creation* (Chicago; London: University of Chicago Press, 1963), p.89.

المقدسة عن نصوص تؤيّد الخلق من عدم. لقد قال مؤلّفو الكتاب المقدس إنّ الله في البداية (وباستمرار) يخلق من شيء»[١].

ومما يحسم القول بالاقتباس التوراتي أنّ شكل الكون في الشرق الأدنى القديم هو نفسه الشكل التوراتي:

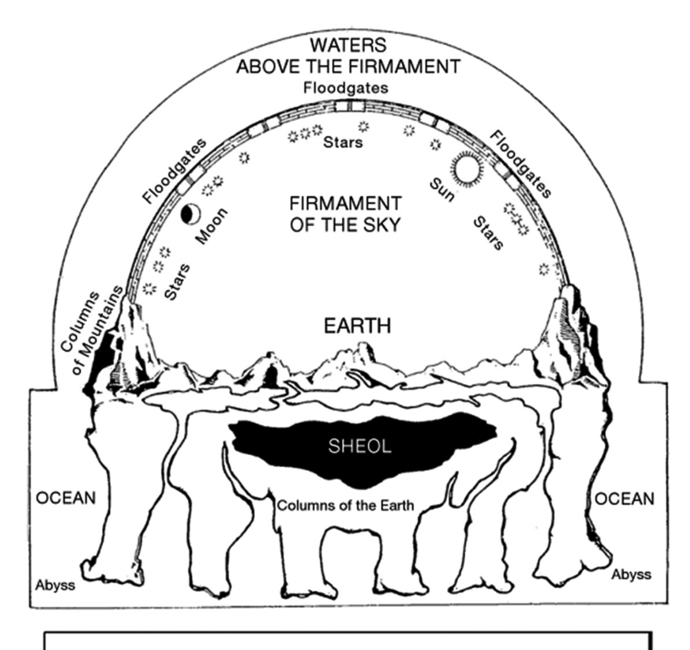
شكل الكون في الشرق الأدنى القديم[٢]



(١) Thomas Jay Oord, "God always creates out of creation in love", in *Theologies of Creation: Creatio Ex Nihilo and Its New Rivals,* ed. Thomas Jay Oord, (New York: Routledge, Taylor & Francis Group, 2015), pp.109 - 110.

(٢) Barry Bandstra, *Reading the Old Testament*, p.40.

شكل الكون التوراتي



(**عن طبعة الكتاب المقدس** Saint Joseph Edition of the New American Bible)[1]

فالسماء قبة جامدة (تكوين ٦/١ ـ ٨)، والأرض سطح دائري (متّى ٤/ ٨، إشعياء ٤٠/٢٢)، وهي طافية فوق الماء (مزمور ٢٤/٢)، وتحملها أعمدة (١صموئيل ٢/٨)، كما تحمل جبال من طرفي الأرض قبّة السماء (يونان ٢/ ٦)، وفوق السماء ماء (تكوين ١/٧)، وتحت الأرض «شئول»؛ أي: عالم الأموات المظلم الذي اعتقد عامة الساميين أنّ الأموات ينزلون إليه (مزمور ١٤١/٧).

(١) الصورة معبرة بصورة جيدة عن التصوّر الكوني للتوراة، مع تعديل واجب، وهو أنّ الشمس والقمر والكواكب ملتصقة بقبّة السماء وليست هذه الأجرام تحتها، كما هو ظاهر من نص تكوين ١/١٤، ١٦ ـ ١٧: «وَقَالَ اللهُ: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ... فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ».

٢ ـ العلم في مواجهة التوراة والإنجيل:

يكرر (كريغ) في كلّ محفل أنّ العلم يقف اليوم بقوة مع الإيمان بالخالق، المنشئ من عدم، مُستَدلًا بنظرية الانفجار العظيم، سائقًا شهادات الفيزيائيين والكوسمولوجيين الملاحدة واللاأدريين على دلالة المادة وقوانينها على صدق النص الأول من سفر التكوين (كما هو في الترجمة التقليدية)، غير أنّه هو هو نفسه ينكر على من يربط بين نظرية الانفجار العظيم وقصة الخلق في سفر التكوين تكلّفه الجمع بينهما. وهذا من اضطرابات (كريغ) التي يُدفع إليها قسرًا بسبب منكرات التوراة. وليس من العدل أن نعذره في إيمانه ببعض الكتاب وكفره ببعض، فقصة الخلق التوراتية قد صيغت بقلم تأريخي واقعي (لا رمزي) على مدى الفصلين الأول والثاني من سفر التكوين، فلِمَ يستشهد (كريغ) بالعلم لأجل إثبات الدلالة العلمية لمقدمة نص تأريخي، ويسعى في المقابل لتكميم نفس الشاهد عند استنطاقه في شأن بقيّة الكلام. ولا يجد القارئ مشقة ليكشف أنّ التعامل الانتقائي لـ(كريغ) مع العلم، ومحكمات نظرية الانفجار العظيم، سببه علم (كريغ) أنّ التوراة تعارض نظرية الانفجار العظيم في كلّ تفاصيلها بفجاجة ظاهرة لا يجدي معها تسوّل التأويل الغالي.

أ ـ قصة الخلق بين رواية التوراة ورواية العلم:

كان ترتيب نشأة الكون طبق ما تدلّ عليه الأبحاث الكونية وما تظهره التوراة أعظم تحد علمي للكتب المقدسة للنصارى واليهود. وقد حاول التأويليون الخروج من التعارض الظاهر بكل طريق، غير أنّ فريقًا كبيرًا من النصارى المحافظين الذين يؤمنون بالقداسة الحرفية للتوراة قرّروا أن يقفوا في صف التوراة ضد العلم الحديث، مقرّين بأنّ هذا التعارض واضح جلي، لا يمكن رفعه إلا بتحريف دلالات النص المقدس.

وقد كتب كثير من الكتّاب النصارى واليهود المحافظين في بيان هذا التناقض، وبيّنوا أنه يمتد من خلق الكون إلى خلق الإنسان، وتشهد عليه أبحاث الكوسمولوجيين، والبلينتولوجيين الذين يبحثون في أحافير الكائنات الحيّة. وقد اختصر علينا أحد مشاهير الأصوليين النصارى مشقة البحث عن

هذه التناقضات، واختار أن يقدّمها لنا في الجدول التالي[1]:

اليوم	الرواية التوراتية	العلم الحديث	الترتيب العلمي
١أ	السماوات والأرض	الضوء	١
١أ	الظلام	الفضاء (expanse)	٢
٢أ	الماء والمحيطات	النجوم	**٣**
١ب	الضوء	الماء[2]	٤
٢	الفضاء	الشمس	**٥**
٣أ	اليابسة	الأرض والمنظومة الشمسية	**٦**
٣ب	الحياة الأولى: النبات والأشجار	اليابسة	٧
٤	الشمس والقمر والنجوم	المحيطات	٨
٥	السمك	الحياة الأولى: الكائنات ذات الخلية الواحدة[3].	٩
٥	الحيتان	الموت	**١٠**
٥	السمك سحليات والزواحف البحرية	السمك	**١١**
٥	البلصورات والبليصورات	الأشجار	**١٢**

(١) Jonathan D. Sarfati, *The Genesis Account: A Theological, Historical, and Scientific Commentary on Genesis 1-11* (Powder Springs, Georgia, USA: Creation Book Publishers, 2015), p.58.

(٢) ما يزعمه صاحب الجدول هنا ليس بصحيح؛ إذ إنّ ظهور الماء ـ من الناحية العلمية ـ متأخّر جدًّا في عمر الكون.

(٣) نحن نرفض فكرة الخلية الأولى التي تمثل الأصل الذي تفرعت عنه بقية الموجودات الحيّة. وهذه الدعوى هي محض الظنّ، ولا برهان عليها. كما أنّ الظهور العفوي للخلية الأولى ساذج لأنّ الخليّة الأولى القابلة للحياة والتناسخ معقدة جدًّا بما لا يدع مجالًا للعشوائية أن توجدها.

Fazala Rana, *The Cell's Design* (Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2008), pp.53 ff..

اليوم	الرواية التوراتية	العلم الحديث	الترتيب العلمي
٥	الطيور والخفافيش والتيروصورات	الزواحف	١٣
٦أ	الزواحف	السمكسحليات والزواحف البحرية والبلصورات والبليصورات والتيروصورات	١٤
٦أ	الثدييات الأرضية	الثدييات الأرضية	١٥
٦ب	إنسان من التراب	الطيور	١٦
٦ت	امرأة من ضلع رجل	الخفافيش والحيتان	١٧

وعرض التناقض ـ في شأن خلق الأرض والأجرام السماوية المرئية وما جاء بعد ذلك ـ كاتب نصراني آخر في الجدول التالي[١]:

ترتيب العلم الحديث	ترتيب الكتاب المقدس
٣ ـ الشمس والنجوم ثم الأرض	الأرض قبل الشمس والنجوم
٤ ـ الشمس هي الضوء الأوّل الذي ظهر للأرض	ظهر الضوء قبل ظهور الشمس
٥ ـ الحياة الأولى: الكائنات البحرية	الحياة الأولى: النباتات
٦ ـ سبقت الزواحف الطيور	سبقت الطيور الزواحف
٧ ـ الثدييات الأرضية سبقت الحيتان[٢]	الحيتان سبقت الثدييات الأرضية

إنّ العلم في خصومة مع التوراة في تفسير نشأة الكون، ونشأة

(١) D. Manthei, "Two World-views in Conflict", in Creation 20 (4): 26- 27 (September- November 1998).

(٢) لا بدّ من التمييز بين ترتيب الكائنات في الظهور، وتطوّر الكائنات من بعضها، فالأمر الأوّل هو نتيجة ملاحظة أثر الكائنات الحيّة في مختلف طبقات الأرض، وأمّا الأمر الثاني فهو دعوى تفسيريّة بالربط بين آثار الطبقات، ولنا عليها ملاحظات، أهمها قيامها على الظن المحض، وفقدان الحلقات الوسيطة التي تسمح بتكوين سلسلة تطوّرية متكاملة. وليس من المتوقّع أن تكشف طبقات الأرض في قابل الأيام عن ترتيب جديد جوهري لظهور التصنيفات الكبرى للكائنات الحيّة.

الأرض، ونشأة الحياة، ونشأة الإنسان؛ فالخبر التوراتي يخالف ما جاء في ترتيب الكواكب في العلم الحديث، بدءًا من أوّل حدث إلى ظهور الأرض، كما أنّه يخالف قصّة نشأة الأرض علميًّا، بدءًا من تميّز الأرض عن غيرها من الكواكب إلى ظهور الحياة الإنسانية، وقبل ذلك الحياة الحيوانية والحياة النباتية.

وقد نبّه (بول ديفيس) إلى أنّ نظريّة الكون المتوسّع قد دفعت الكوسمولوجيين إلى اقتراح نظرية خلق «تختلف بصورة كبيرة في التفاصيل عن رواية الكتاب المقدس»[١].

كما أقرّ الأصولي النصراني (هنري موريس) (Henry Morris) أنه سواء أقلنا: إنّ الأيام الستة للخلق يساوي كلّ يوم منها ٢٤ ساعة أم مدة طويلة من الزمن، فإنّ «ترتيب أحداث الخلق المروية في الفصل الأول من سفر تكوين تخالف بصورة كبيرة الترتيب المقبول للمستحاثات (fossils) في الصخور التي تمثّل الأزمنة الجيولوجية»[٢]. ووافقه ابنُه الجيولوجي (جون مريس) (John D. Morris) ـ الذي خلفه في رئاسة أهم مؤسسة نصرانية في الردّ على دعوى تصادم العلم مع النصرانية «Institute for Creation Research» ـ حقيقة هذا التضارب، بعبارة أوسع، في قوله: «توجد تعاليم وعقائد كتابيّة تبدو في تعارض مع جلّ التفكير العلمي»[٣].

فالنظر التلسكوبي في الكون، والنظر الحفري في طبقات الأرض، يقودان بصورة حاسمة إلى تأكيد مخالفة الكتاب المقدس لنظرية الانفجار العظيم، ولما اهتدى إليه الباحثون في تاريخ الحياة على الأرض.

وخلاصة الكلام: إِنَّ الفصلَ الأَوَّلَ مِنْ سِفْرِ التَّكوين **لا يجتمع في شيء**

---

(١) Paul Davies, *God and the New Physics,* p.17.

(٢) Henry M Morris, *The Genesis Record: A Scientific and Devotional Commentary on the Book of Beginnings* (Grand Rapids: Baker Book House, 1977) p.53

(٣) John D. Morris, *Is the Big Bang Biblical?: And 99 Other Questions* (Green Forest, AR: Master Books, 2003), p.86.

مع نظريَّةِ الانفجارِ العظيمِ، لا في أَصْلِ عناصرِ الكونِ، ولا في ترتيب ظهورها:

- أصل ظهور الأرض وزمنه غلط.
- أصل ظهور البحار وزمنه غلط.
- زمن ظهور الحيوانات والنباتات، وترتيبهما غلط.
- لا يصحّ غير تأخير ظهور الإنسان في آخر مراحل خلق الكون، بعد السماء والأرض والحيوانات والنباتات. وحتى هذا الصّواب الوحيد لا نلبث أنْ نتفاجأ في الفصل الثاني من سفر التكوين بتخطئته؛ فهو يجعل خلق (آدم) عليه السلام قبل خلق الحيوانات (تكوين ٢/٧ ـ ٩، ١٩)!

وهكذا انتهى بنا الأمر إلى **تخطئة الكتاب المقدس في كلّ جزئيّة**؛ فكيف يجرؤ مع ذلك (كريغ) على استعمال نظرية الانفجار العظيم في براهينه على صحّة الإيمان النصراني؟! وكيف يجرؤ (هيو روس) على القول: إنّه قد تنصّر بعد أن اكتشف أنّ الكتاب المقدس هو الكتاب الوحيد ـ بين الكتب الدينية ـ الذي يوافق العلم بصورة دقيقة وإعجازية!

ويفجعنا (كريغ) بإسرافه في زيادة المهلكة العلمية للكتاب المقدس حدّة بزعمه أنّه من الممكن الجمع بين نظرية الانفجار العظيم والخلق في ستة أيام من أيامنا، وذلك بافتراض فترة صمت بين تكوين ١/١ وتكوين ١/٢![1]، وهو زعم يصادم نظرية الانفجار العظيم بصورة واضحة، إذ إنّ تكوّن الأرض وأجرام السماء في يوم وليلة سخافة لا يرى إمكانها أحد من علماء الكوسمولوجيا، بالإضافة إلى أنّه لا ينجّي التوراة من الخطأ مدُّ الأيام أو قصرها؛ إذ إنّ ترتيب المخلوقات زمنيًّا مخالف للعلم ابتداءً!

إنّنا أمام محنة الأمانة في زمن غاب فيه المسلمون عن أداء واجب البلاغ، فترك الأمر إلى غير أهله!

---

(١) < http://www.reasonablefaith.org/defenders-1-podcast/transcript/s16-02 >.

ب ـ الكون البليوني أم الكون الألفيّ؟

كانت الكنيسة منذ بدايتها مولعة بالبحث عن أصل الكون، وتاريخ الآباء، وزمن ما قبل المسيح. وقد استقر القول عند آباء الكنيسة أنّ عمر الكون لا يتجاوز بضعة آلاف سنة. كما كان اليهود يعتقدون أنّ المسيح [الذي لم يأت بعد]، سيظهر في نهاية الألفية السادسة منذ خلق الكون، كما في التلمود(١). وسارت الأمور على هذا القول قرونًا قبل أن تدهم الاكتشافات العلمية الكنيسة بأخبارها، خاصة الدراسات الجيولوجية التي أثبتت أَنَّ طبقاتِ الأرض مَرَّتْ بأحقاب كثيرة وطويلة قبل أن تصل إلى يومنا هذا.

لم يصل النصارى واليهود إلى أَنَّ عُمُرَ الكَوْنِ لا يتجاوز بضعة آلاف، بمحض الظن والذوق، وإنّما قادتهم إلى ما قالوا نصوص التوراة المتعلقة بالأنساب وبالأحداث التاريخية، على اختلاف ليس بكبير مردّه بعض المواضع الاحتمالية الاجتهادية في تقدير مدى المراحل التاريخية، بالإضافة إلى الاختلافات بين النص العبري والترجمة السبعينية اليونانية.

وبالإمكان بيسر معرفة العمر التقريبي للكون، بالنظر في جداول الأنساب والترتيب الزمني للأحداث التاريخية، ثم زيادة خمسة أيام على ذلك؛ إذ إنّ (آدم) عليه السلام قد خلق في اليوم السادس. والتفصيل يظهر في الجدول التالي(٢):

المرجع	حصيلة المدة	المدة	الابن	الأب
تكوين ٥	١٣٠	١٣٠	شيت	آدم
تكوين ٥	٢٣٥	١٠٥	أنوش	شيت
تكوين ٥	٣٢٥	٩٠	قينان	أنوش
تكوين ٥	٣٩٥	٧٠	مهللئيل	قينان
تكوين ٥	٤٦٠	٦٥	يارد	مهللئيل
تكوين ٥	٦٢٢	١٦٢	أخنوخ	يارد

(١) Talmud, Sanhedrin 97a and 97b.

(٢) Lita Cosner, How does the Bible teach 6,000 years?. < http://creation.com/6000-years >.

الأب	الابن	المدة	حصيلة المدة	المرجع
أخنوخ	متوشالح	٦٥	٦٨٧	تكوين ٥
متوشالح	لامك	١٨٧	٨٧٤	تكوين ٥
لامك	نوح	١٨٢	١٠٥٦	تكوين ٥
نوح	الطوفان	٦٠٠	١٦٥٦	تكوين ٧/ ١١
الطوفان	أرفكشاد	٢	١٦٥٨	تكوين ١١
أرفكشاد	شالح	٣٥	١٦٩٣	تكوين ١١
شالح	عابر	٣٠	١٧٢٣	تكوين ١١
عابر	فالج	٣٤	١٧٥٧	تكوين ١١
فالج	رعو	٣٠	١٧٨٧	تكوين ١١
رعو	سروج	٣٢	١٨١٩	تكوين ١١
سروج	ناحور	٣٠	١٨٤٩	تكوين ١١
ناحور	تارح	٢٩	١٨٧٨	تكوين ١١
تارح	إبراهيم	١٣٠	٢٠٠٨	تكوين ١١
إبراهيم	إسحاق	١٠٠	٢١٠٨	تكوين ٢١/ ٥
إسحاق	يعقوب	٦٠	٢١٦٨	تكوين ٢٥/ ٢٦
يعقوب	مصر	١٣٠	٢٢٩٨	تكوين ٤٧/ ٩
يعقوب في مصر	الخروج	٤٣٠	٢٧٢٨	الخروج ١٢/ ٤٠
الخروج	بداية الهيكل	٤٨٠	٣٢٠٨	١ الملوك ٦/ ١

إنّ مدّ عمر الكون فوق بضعة آلاف من السنين يقتضي تكذيب التوراة بالقول بكذب سلسلة الأنساب وتوثيق الأحداث، وهو ما لا يجرؤ عليه النصراني أو اليهودي الأرثوذكسي.

ت ـ عندما فجع النصارى واليهود:

مكّنت مخالفة التوراة والإنجيل لقطعيات العلوم الكونية لثنائية القطيعة

بين الدين والعلم في الوجدان الثقافي في الغرب، ولذلك تعتبر قضيّة الجمع بين الدين والعلم من المعضلات المعرفية الكلاسيكية التي حُبّرت فيها المطوّلات، وهي تحد هائل قال فيه الناقد التوراتي المحافظ (غوردون ونهام) (Gordon Wenham): «**المشكلة الأعظم** التي تواجه القارئ المعاصر لسفر التكوين هي أن يعلم كيف يوفّق بين تكوين ١ ـ ١١ والمعرفة العلمية والتاريخية الحالية»[١].

وقد أدّت الضربات العلمية المتكررة للرواية الكتابية للخلق إلى تفتيت التجمّع النصراني إلى مذاهب شتى متنافرة، من أقصى الكفر بالنصرانية، بل بالدين جملة، إلى أقصى الكفر بالثوابت العلمية التي تدرّس كحقائق في الجامعات، وبين هذا وذاك رؤى تكشف حجم المعضلة.

الكفر بالنصرانية:

كان الخروج من عصر الظلمات في القرون الوسطى إلى عصر البحث والنظر وكسر سلطان هيبة صكوك الحرمان الكنسي واللعن الأحباري بداية لانكشاف مصادمة الأسفار المقدسةِ حقائقَ الكون المفهوم في معادلات الرياضيات وقواعد الفيزياء وكشوف الحفريات ومراصد الفلك، وهو ما حفّز ظهور طائفة «المفكرين الأحرار» «Free thinkers» الذين يرون الحرية الحقة في التحرر من جهالات التوراة وأساطير الإنجيل. وقد اتّخذوا قصة الخلق مادتهم الأولى للتهكم على طفولة العقل البشري الذي تريد الكنيسة ومعها الأحبار إبقاءهم في قفصه. ومن أهم المؤلفات التي صدرت عن هذا الفريق، كتاب «*A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom*» (١٨٩٦م) لمؤسس جامعة (كورنل) (أندرو وايت) (Andrew White) الذي فضح مخالفة الكتب المقدسة للكنيسة لعلوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا. . .

الإقرار بوجود أخطاء ونفي عصمة الكتاب:

ذهب بعض الكتّاب المتديّنين إلى حل توفيقي بين ربانية التوراة

---

(١) G. J. Wenham, *Genesis 1-15*, Word Biblical Commentary (Waco, Tex.: Word Books, 1987), pp. lii-liii, 1987.

والإنجيل، ووجود أخطاء علمية فاحشة أصيلة في النص، فقالوا: إنّ النص المقدس معصوم فقط في ما يتعلّق بالرسالة الدينية، أمّا في غير ذلك، فالمؤلّف ابن بيئته، ينقل خرافاتها ويكرر ضلالاتها. وهذا مذهب منتشر بين النصارى الليبراليين الذين يدركون تهافت كلّ محاولة توفيق بين النص المقدس والعلم، وهم الذين يرفضون عقيدة الأصوليين المسماة «عصمة الكتاب المقدس» «Biblical inerrancy». بإمكاننا أن نرى مسلك هذا الفريق ـ مثلًا ـ في تعليق «الرهبانية اليسوعية الكاثوليكية» على الكتاب المقدس؛ إذ قالت تعليقًا على نص تكوين ١/١: «الكائنات تأتي إلى الوجود بنداء من الله بحسب ترتيب يرتفع مقامًا حتى يصل إلى الإنسان... **والنص يستند إلى علم لا يزال في عهد الطفولة. فلا حاجة إلى التفنّن في إقامة التوافق بين هذه الصور وعلومنا العصرية**»[(١)].

زعم رمزية التوراة:

المذهب الرمزي في تفسير الكتب المقدسة، منحى أثير في تاريخ الكنيسة، أسّسه (أريجانوس) منذ القرن الثالث، لكنه لم يجد هنا متابعة من بقية الآباء لأن الفصل الأول من سفر التكوين نص تاريخي عصيّ على الانتزاع من التجذير التاريخي، لكن لما حسم العلم أمره، وفُكَّت مغاليق التاريخ بالنظر والحساب، اضطر فريق من المفكّرين النصارى الذين عزّ عليهم ترك الإيمان بالله لدلالة العقل والعلم عليه، ولم يكن أمامهم خيار ديني غير النصرانية، إلى الهروب إلى الترميز مرّة أخرى، وأنّ الأيام الست لا تؤخذ على ظاهرها وإنما هي قوالب للتعبير عن ظهور الكون للوجود. من أهم من نصر هذا المذهب أتباع ما يُعرف بـ«Framework Hypothesis»، وهو مذهب ظهر سنة ١٩٢٤م على يد (Arie Noordzij)، ثم اشتهر على يد أسماء بارزة كـ(Herman Ridderbos) و(Meredith Kline) و(Bruce K. Waltke).

(١) ترجمة الرهبانية اليسوعية للكتاب المقدس، بيروت: دار المشرق، ١٩٨٨م، ط٣، ص٦٨.

ومن العجيب أنّ بابا الفاتيكان (يوحنا بولس الثاني)، قد تبرّأ من تاريخية قصة الخلق التوراتية، زاعمًا أنّها ذات دلالة روحية محضة، وذلك في رسالته إلى «الأكاديمية البابوية للعلوم» (٣ أكتوبر ١٩٨١م)؛ إذ كتب: «أثار كل من علم نشأة الكون وعلم تطوّره دائمًا اهتمامًا كبيرًا بين الشعوب والأديان. يحدّثنا الكتاب المقدس نفسهُ عن أصل الكون وتكوينه، لا من أجل تزويدنا بأطروحة علمية، ولكن من أجل تقرير العلاقات الصحيحة للإنسان بالله وبالكون. وتَودّ الأسفار المقدسة ببساطة أن تعلن أن العالم قد خلق من قبل الله. ومن أجل تعليم هذه الحقيقة، تعبّر الأسفار المقدسة عن نظرتها بعبارات الكوسمولوجيا المتداولة زمن حياة المؤلّف.

يرغب الكتاب المقدس أيضًا أن يخبر الناس أنّ الكون لم يخلق كمقرّ للآلهة، كما هو تعليم نظريات نشأة الكون وتطوره الأخرى، وإنّما تم إنشاؤه لخدمة الإنسان ومجد الله. كلّ تعليم آخر عن أصل الكون وتشكيله هو غريب عن نوايا الكتاب المقدس الذي لا يرغب في تعليم الناس كيف خلقت السماء ولكن كيف يذهب المرء إلى السماء (الجنّة)»[١].

الأخذ بالحرفية:

الفريق الوحيد المخلص لنص التوراة والإنجيل، والذي يذعن لدلالات النصوص دون تكلف هو الذي ينتصر لمذهب «Young Earth creationism». وهو يقرر أنّ معاني النصوص المقدسة ظاهرة لا تحتاج إلى مزيد بيان من خارجها، وهي صريحة في أنّ الكون قد وجد منذ بضعة آلاف من السنين.

والفارس الأكبر لهذا التيار، هو الداعية الأصولي (هنري موريس) (Henry Morris) الذي أسس القواعد العصرية للمذهب الحرفي لقصة الخلق التوراتية، واليوم يخلفه الداعية الأصولي ـ الأسترالي المولد ـ (كن هام) (Ken Ham) الذي أثبت في جميع مناظراته مع الدفاعيين النصارى الموافقين لمقولات العلم المعاصر مخالفة التوفيقيين لنصوص التوراة والإنجيل،

---

(١) <http://www.ewtn.com/library/PAPALDOC/JP2COSM.HTM>.

وتعسّفهم في استنطاق الكلمات المقدسة[1]. ولهذا الفريق ردود كثيرة على (هيو روس) ومن يقولون بقوله، أهمها كتاب «*Refuting Compromise: A Biblical and Scientific Refutation of Progressive Creationism*» (لجوناثان سرفاتي) (Jonathan Sarfati) الذي يعتبر الرمز العلمي الأول لهذا التيار اليوم، وثانيهما صدر منذ أشهر للكاتب نفسه بعنوان « *The Genesis Account: A theological, historical, and scientific commentary on Genesis 1 - 11*»، وهو تعليق علمي ولاهوتي على الفصول الإحدى عشرة الأولى من سفر التكوين في ثمانمائة صفحة مع اهتمام بالغ ببيان دلالات النصوص في أصلها العبري، وكشف مغالطات النصارى المتصالحين مع المتفق عليه من المقررات العلمية. ومن أهم أدلّة هذا الفريق على فساد نظرية «الانفجار العظيم» التي يناصبونها العداء الشديد، ومقولة القدم النسبي للكون، أنّ أيّ قارئ للتوراة والإنجيل دون تأثير سلطوي خارجي من العلوم المعاصرة لا بدّ أن ينتهي إلى الكفر بدعاوى الكوسمولوجيين المعاصرين واعتناق ما تبنّاه آباء الكنيسة من أنّ الكون يقدّر سنّه ببضعة آلاف من السنين.

يبلغ عدد أنصار نظرية الخلق الحديث، أو الألفي، عشرات الملايين في الولايات المتحدة الأمريكية، ففي سبر تمّ سنة ٢٠٠٩م، قال أكثر من ثلث الأمريكيين (٣٩٪): إنّهم يعتقدون أنّ «الله خلق الكون، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والنبات، والحيوان، والبشرَين الأوّلَين في العشرة آلاف سنة الأخيرة»[2].

وقد فاجأ (ر. س. سبرول) (R. C. Sproul) ـ الفيلسوف اللاهوتي الشهير، والذي يصنّف ضمن الطبقة الأولى من دعاة النصرانية من الأكاديميين في العالم ـ قُرّاءه بتقريره في آخر كتبه تراجعه عن مذهبه التأويلي القديم،

---

(١) انظر ـ كمثال ـ هذه المناظرة الحديثة بين الفريقين:

< https://www.youtube.com/watch?v=jUHNz6bUSIU >

(٢) Bishop, George F; Thomas, Randall K; Wood, Jason A; Gwon, Misook (2010), *Americans, Scientific Knowledge and Beliefs about Human Evolution in the Year of Darwin.*

< http://ncse.com/rncse/30/3/americans-scientific-knowledge-beliefs-human-evolution-year- >.

واعتناقه للتفسير الحرفي لأيام الخلق الستة باعتبار اليوم منها ٢٤ ساعة[١]. وقد ردّ في كتابه على النظريات التفسيرية غير التقليدية، مصرّحًا بمذهبه قائلًا: «كنت أؤمن طوال رحلتي التعلمية بـ«Framework Hypothesis» على أنّها تفسير مقبول لكنّني اليوم غيّرت رأيي. أنا الآن أتبنّى تفسير الستة أيام الحرفية للخلق، وهو البديل الرابع والتقليدي. يقول سفر التكوين: إنّ الله خلق الكون وكلّ شيء في مراحل من ٢٤ ساعة. وطبقًا لمنهج تفسير النصوص المقدسة لعصر الإصلاح الديني (Reformation hermeneutics)، الخيار الأوّل هو اتّباع المعنى الظاهر للنصّ. إنّ على المرء أن يسرف في التعسّف التفسيري إذا أراد الهروب من المعنى الظاهر للفصلين الأوّلين من سفر التكوين»[٢].

والمعنى الظاهر الحرفي هو مذهب عامة آباء الكنيسة، قبل «مجمع نيقية» وبعده. وبحساب أيام الخلق الست مع عمر البشرية من (آدم) عليه السلام إلى المسيح، لا تتجاوز المدّة بضعة آلاف من السنين. وممن قال بذلك من الآباء[٣]:

الكاتب	تاريخ حياته	تاريخ خلق آدم	المرجع
كلمنت السكندري	١٥٠ ـ ٢١٥م	٥٥٩٢	*Miscellanies* ١,٢١
يوليوس أفريكانوس	١٦٠ ـ ٢٤٠	٥٥٠٠	*Chronology, fragment 1*
هبوليتوس الرومي	١٧٠ ـ ٢٣٦	٥٥٠٠	*Daniel* ٤
أريجانوس	١٨٥ ـ ٢٥٣	<١٠٠٠٠	*Against Celsus* ١,٢٠
يوسابيوس القيصري	٢٦٣ ـ ٣٣٩	٥٢٢٨	*Chronicles*
أوغسطين	٣٥٤ ـ ٤٣٠	<٥٦٠٠	*City* ١٢,١١

(١) حديث (سبرول) هو عن مدة الخلق وليس عن سن الأرض إلى الآن.

(٢) R. C. Sproul, *Truths We Confess: A Layman's Guide to the Westminster Confession of Faith: Volume 1: The Triune God* (Phillipsburg, N.J.: P & R Pub., 2006), pp.127-128.

(٣) Sarfati, *Refuting Compromise* (Green Forest, AR: Master Books, 2004), p.122.

وهي أيضًا نظرة اليهود وأعلام النصرانية عبر القرون[(١)]:

التلموديون	٥٣٤٤ قبل الميلاد
الترجمة السبعينية للتوراة، الفاتيكان	٥٢٧٠ قبل الميلاد
قديس الكنيسة (بيدا) (توفي ٧٣٥م)	٥١٩٩م قبل الميلاد
المؤرخ اليهودي (يوسيفوس)	٤٦٩٨م قبل الميلاد
الحساب السامري	٤٤٢٧م قبل الميلاد
الترجمة السامرية للتوراة	٤٣٠٥م قبل الميلاد
النص العبري (الماسوري) للتوراة	٤١٦١م قبل الميلاد
(بلايفير) و(والكر)	٤٠٠٨ قبل الميلاد
(آشر) و(سبنهايم) و(كالمت) و(بلير)...	٤٠٠٤ قبل الميلاد
(كبلر) عالم الفلك (توفي ١٦٣٠م).	٣٩٩٣ قبل الميلاد
(بتافيوس) (توفي ١٦٥٢م)	٣٩٨٤ قبل الميلاد
(ملانكتون) المصلح (القرن السادس عشر)	٣٩٦٤ قبل الميلاد
(لوثر) المصلح (القرن السادس عشر)	٣٩٦١ قبل الميلاد
(لايتفوت)	٣٩٦٠ قبل الميلاد
(كورنليوس لبد)	٣٩٥١ قبل الميلاد
(إزاكسن)	٣٩٥٠ قبل الميلاد
(ستروكيوس)	٣٩٤٩ قبل الميلاد
الحبر اليهودي (لبمان) (توفي ١٦٥٤م)	٣٦١٦ قبل الميلاد

وتعتبر دعوى (سرفاتي) أنّ الكون ظهر إلى الوجود بين سنتي ٤٢٢٨ ـ ٤١٢٨ ق. م. آخر المحاولات المطروحة اليوم![(٢)].

(١) Hales, *A New Analysis of Chronology and Geography, History and Prophecy* 1: 210, 1830 (Quoted by Sarfati, Refuting Compromise, p. 131).

(٢) Sarfati, *The Genesis Account*, p.125.

الأيام ـ أزمنة طويلة:

يذهب فريق من أنصار قصة الخلق التوراتية إلى تبني تفسير الأزمنة الطويلة (Day - Age Interpretation)؛ أي: إنّ «يوم» قصة الخلق التوراتية لا يطابق ٢٤ ساعة، بل هو أطول من ذلك بكثير، غير أنّ هذا الفريق يجد إشكالًا في تفسير عبارتي «صباح» و«مساء» في حديث التوراة عن هذه الأيام، كما أنّ سلسلة الأنساب في التوراة والإنجيل تجزم أنّ (آدم) عليه السلام قد عاش منذ بضعة آلاف من السنين.

ويعتبر اللاهوتي الإنجليكاني (جورج ستانلي فابر) (George Stanley Faber) (توفي ١٨٥٤م) أوّل لاهوتي دافع عن تفسير الأيام الطويلة. ويمثّل (هيو روس) اليوم أهم شخصية علمية من النصارى تعتنق هذا المذهب وتسعى إلى التوفيق بين حقائق العلم المعاصر ومكتشفاته من جهة، والكتاب المقدس من جهة أخرى، وإن بمنطق مطاط لزج، وله في ذلك مؤلفات، من أهمها «*The Genesis Question*» و« *A Matter of Days*».

وأمّا في الطرف اليهودي، فإنّ الليبراليين ـ الكافرين بقداسة النصوص ـ يهيمنون هيمنة تامة على الدراسات التوراتية غير المحصورة في المدارس المحافظة، وقد برز رغم ذلك نجم الفيزيائي (Gerald Schroeder)، خاصة في كتابه «*Genesis and the Big Bang Theory: The Discovery Of Harmony Between Modern Science And The Bible*» حيث تعسّف كلّ التعسّف للتوفيق بين كوسمولوجيا الانفجار العظيم وألفاظ الفصلين الأولين من سفر التكوين[1]. ويسير على خطاه اليوم الباحث الشاب صاحب الدراسة اليهودية الشرعية التقليدية، (نتن سليفكين) (**נתן סליפקין**) صاحب كتاب « *The Challenge of Creation: Judaism's Encounter with Science, Cosmology and Evolution*» (٢٠٠٦م)[2] الذي أثار عليه

(١) لا يفسد ذلك جهده كباحث ومناظر بارع في بيان دلالة العلم الحديث على وجود الله، ونقض دعاوى الملحدين.

(٢) نشرت النسخة الأولى تحت عنوان:

= *The Science of Torah: The Reflection of Torah in the Laws of Science, The Creation of the Universe and the*

كثيرًا من الأرثودكسيين الذين عابوا عليه تكلّفاته ومخالفته للتراث الموروث!

يقف التلفيقيون أمام لغة التوراة بلا حجّة موضوعية، حتّى قال (جيمس بار) (James Barr) ـ أحد علماء اللغة العبرية البارزين، وأستاذ تفسير الأسفار المقدسة في جامعة أكسفورد ـ: «لا أعرف في حدود علمي أستاذًا للعبرية أو العهد القديم في أي جامعة محترمة في العالم لا يؤمن أنّ كاتب سفر التكوين ١ ـ ١١ أراد أن يبلّغ قرّاءه أنّ الخلق قد تمّ في مجموع ستة أيام كأيامنا من أربع وعشرين ساعة»[١].

وقد درس (غرهارد ف. هاسل) (Gerhard F. Hasel) ـ أستاذ العهد القديم واللاهوت الكتابي ـ كلمة «يوم» في سفر التكوين ١ في مقاله ««أيام» الخلق في تكوين ١: «أيام» حرفية أم «مدد/ عصور» «زمنية رمزية»» من أكثر من زاوية لغوية وسياقية، مع عرض المذاهب المتخالفة، وانتهى إلى القول: «لم يكن بإمكان مؤلّف سفر التكوين أن يقدّم طرقًا أكثر شمولًا وإحاطة بالمسالك التي تعبّر عن فكرة «اليوم» الحرفي من تلك التي تمّ اختيارها. هناك غياب تام لمؤشرات من حروف الجر، والتعبيرات التحديدية، وبناء الجمل، والروابط الدلالية ـ النحوية، وغير ذلك مما يمكن على أساسه أن تُحمل عبارة «يوم» في أسبوع الخلق على أي شيء آخر غير اليوم المعتاد الذي يتكون من أربع وعشرين ساعة». مضيفًا أنّ الصياغة النحوية والصرفية واللفظية مع التقريرات الإلهية في سفر الخروج ٢٠/٨ ـ ١١ و٣١/١٢ ـ ١٧، كلّها تؤكّد الفهم الحرفي المعتاد لكلمة يوم[٢].

والذي أراه هو أنّ كلمة «يوم» في العبرية من الممكن أن تعني مدة ٢٤ ساعة أو أقلّ من ذلك أو أطول، وهو ما عليه جميع الذين انغمسوا في هذا

= Development of Life , 2001.

(١) J. Barr, letter to David C.C. Watson, April 23, 1984 (Quoted by Sarfati, *Refuting Compromise*, p.137).

(٢) Gerhard F. Hasel, "The "Days" of Creation in Genesis 1: Literal "Days" or Figurative "Periods / Epochs" Of Time?," in Origins 21(1): 38 (1994).

<http://ldolphin.org/haseldays.html>.

الحوار من نصارى ويهود وملاحدة، غير أنّ أهم ما يحسم القول لليوم الاعتيادي (٢٤ ساعة)، هو وجود «الصبح» و«المساء»، ولذلك اعتبر معجم العبرية التوراتية الأشهر (The Brown - Driver - Briggs lexicon) «يوم» قصّة الخلق يومًا «عاديًا؛ إذ عُرّف بـ«المساء والصباح»[١]. علمًا أنّ كلمة «يوم» قد استعملت خارج الفصل الأول من سفر التكوين مع «مساء» أو «صباح» ٢٣ مرّة، و«مساء» مع «صباح» من غير «يوم» ٣٨ مرّة، بمجموع ٦١ مرّة، وكانت الدلالة دائمًا اليوم الاعتيادي[٢].

نظرية الفجوة:

تقرّر (نظرية الفجوة) (Gap Theory) وجود فجوة تاريخية بين تكوين ١/ ١ وتكوين ١/ ٢، وهي فجوة تبلغ بلايين السنين؛ فقد خلق الله الكون على صورة غير مهذّبة، ثم عاد بعد ذلك فبنى الكون على الصورة المهذّبة. لم تُعرف هذه النظرية قبل كتابات الداعية الإنجيلي (توماس شلمرز) (Thomas Chalmers) (توفي ١٨٤٧م). وقد لقيت الدعم الأكبر لما أحال إليها اللاهوتي الأمريكي (س. إ. سكوفيلد) (C.I. Scofield) (توفي ١٩٢١م) في هامش ترجمة الكتاب المقدس الدراسية (*The Scofield Reference Bible*) سنة ١٩٠٩م، وهو الكتاب الذي أثّر على التصوّرات اللاهوتية لكثير من دارسي اللاهوت في أمريكا.

آفة (نظرية الفجوة) الكبرى هي أنها لا تجد أي دعم من النص المقدس، ولذلك لم يقع في خلد المفسرين الأوائل شيء منها.

ولا تزال المكتبات في الغرب تضخ المزيد من النظريات الجديدة الحائرة في فهم مقدمة سفر التكوين عن أصل الخلق، ومن آخرها كتاب صدر منذ ثلاث سنوات عنوانه: «**في البدء... أسأنا الفهم: تفسير تكوين ١ في سياقه**

---

(١) Francis Brown; S. R. Driver; Charles A. Briggs; G. R. Driver; Wilhelm Gesenius; Emil Roediger and Edward Robinson, *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament*, p.398.

(٢) J. Stambaugh, "The days of creation: Asemantic approach", in TJ 5(1):75.

الأصلي»، وهو يقرّر أنّ التوراة تتبنّى بوضوح الأساطير القديمة لخلق الكون في مصر القديمة حيث عاش (موسى) عليه السلام، ولا سبيل إلى إنكار هذا الأمر. والحل لهذا الإشكال هو في القول: إنّ الله كان يخاطب بني إسرائيل بما يوافق ثقافة العصر؛ أي: توظيف الأسطورة لرسالة لاهوتية![1]، ومن المثير هنا أنّ مؤلّفَي الكتاب، بروفسوران نصرانيان من خريجي «Dallas Theological Seminary» المحافظة، وكلاهما كان قسيسًا من أنصار الكون الألفي، وقد عاشا أزمة مخالفة العلم للنص المقدس، وتخصّصا في الدراسات الكتابية، وهما يؤمنان أنّ الكتاب المقدس كلمة الله. والكتاب ـ كما يقول مؤلفاه ـ قد كُتب لأجل منع الشباب من هجر النصرانية عندما يطّلعون على الثقافة المعاصرة وصراع الإيمان والعلم[2].

ما موقف (ويليام لين كريغ) من هذه النظريات المتطاحنة؟

(كريغ) مدرك لتعدد تفسيرات قصة الخلق في سفر التكوين، وقد ساقها لمستمعيه وقرّائه، وردّها كلّها، وأكّد أنّه لا يتبنّى إلى الآن أيّ تفسير مخصوص، لعدم وجود تفسير يرضاه[3]، لكنّه أردف أنّ في اختلاف هذه التفسيرات ثراءً تفسيريًّا يسمح للنصراني بأن يختار منها ما شاء!![4].

وبدل أن يقرّ (كريغ) بأزمة النص أمام حقائق العلم، معلنًا أنّ تضارب التفاسير كاشف لحقيقة أنّ قصة الخلق التوراتية تأبى التطويع القسري، وأنّها قصّة مشبعة بالنفس الخرافي لأمم قديمة ذات تصوّر كوسمولوجي

---

(١) Johnny V. Miller and John M. Soden, *In the Beginning-- we Misunderstood: Interpreting Genesis 1 in its Original Context* (Grand Rapids, MI: Kregel Publications, 2012).

(٢) لقاء مع المؤلف:

<http://www.apologetics315.com/2013/02/author-interview-johnny-v-miller.html>

(٣) ذكر ذلك في سلسلته (Doctrine of Creation: Excursus on Creation and Evolution). وهي متوفرة على موقعه الرسمي..

(٤) فعل ذلك في سلسلة محاضراته عن الخلق والتطوّر (Doctrine of Creation: Excursus on Creation and Evolution)، وهي موجودة على موقعه، وعلى اليوتيوب (الحلقات ١ ـ ١٢).

وكوسموجوني بدائي مخالف للعلم، ذهب إلى أنّ في كثرة التفاسير المتهافتة سبيلًا للخروج من محنة مخالفة العلم!

خلاصة النظر:

لا يحقّ لـ(كريغ) ولا لغيره من النصارى واليهود الاستدلال على وجود الله أو محاولة الرد على اعتراض: «. . . فمن خلق الله؟» بحقيقة الخلق من عدم؛ إذ إنّ البرهان الفلسفي على خلق الكون معارَضٌ بدلالة سفر التكوين على أزلية المادة. والبرهان العلمي قائم أساسًا على نظرية الانفجار العظيم والعمر البليوني للكون، وهما معارَضان بدلالة النصوص المقدسة على العمر الألفي للكون ومخالفة القصة التوراتية لترتيب الخلق المقبول علميًّا.

قصة الخلق في القرآن والسُّنَّة:

لا شكّ أننا نوافق على (كريغ) و(كوبان) فساد منهج من يريدون إثبات دلالة الكتاب المقدس على «الانفجار العظيم»، فذاك ليس تفسيرًا للنص (exegesis)، وإنما هو إسقاط لأفكار الباحثين وآرائهم على النص المقدس (eisegesis)[1]. فالنص بلغته وسياقاته هو الدال على المعنى، فهل يدلّ كلّ من القرآن والسُّنَّة على خلق الكون من عدم؟ وهل في القرآن ما يعارض أو يؤيّد نظرية الانفجار العظيم؟

١ ـ الأول، خالق كلّ شيء:

لا أعتقد أنّ من يقرأ القرآن قراءة مستسلمة لظواهر المعاني يجد مشقة في الكشف عن عقيدة الخلق من عدم في هذا الكتاب المقدس، ولذلك لم يجد المستشرقون والمنصّرون سبيلًا لإنكار قرآنية هذه العقيدة.

وقد استعمل القرآن ألفاظًا كثيرة تدلّ على الإيجاد على غير نظير سابق أو على الإيجاد من عدم، كـ(خلق) و(برأ) و(فطر) و(بدع):

---

(١) Paul Copan and William Lane Craig, *Creation out of Nothing*, p.19.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤].

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧].

ولئن كان النزاع حاصلًا حول دلالة آحاد هذه الألفاظ على الإيجاد من عدم، إلّا أنّ الدلالة النهائية لمجموعها يجب ألا تغادر هذا المعنى؛ إذ لا يُعرف في لغة العرب أقرب منها (إن لم يكن مطابقًا لها) إلى الإيجاد من عدم، فإذا أضفنا إلى ذلك:

• الغياب التام لأيّ نص يدلّ على وجود شيء أزلي مع الله رغم كثرة الآيات الكونية في القرآن، ووفرة الآيات التي تحدّثت عن أصل الكون.

• غياب أثر الحضارات القائلة بأزلية المادة في النص القرآني.

• الغياب التام لفكرة أزلية المادة في عصر الصحابة، واتّفاقهم جميعًا على نسبة الخلق من عدم إلى الكتاب والسُّنَّة.

لزم أن تكون مسألة الخلق الإلهي من عدم من ثوابت القرآن، وحقائق الدين التي كفّر أهل السُّنَّة الفلاسفة القدماء بقولهم بها لأنّها تخالف المعلوم من الدين بالضرورة[1].

٢ ـ عندما يفارق القرآن التوراة:

من المتّفق عليه بين المستشرقين منذ القرن التاسع عشر أنّ القرآن نسخة

(١) وردت بعض النصوص في الكتاب المقدس مخبرة أنّ الله خالق كلّ شيء، لكنّ هذا العموم (للشيء) مخصوص بالنصوص الأخرى التي تخبر بمادة أزليّة مع الله.

معدّلة أو «مشوّهة» من التوراة، والتراث الشفهي اليهودي، والتراث الأبوكريفي النصراني[١]. ونحن رغم مخالفتنا للمستشرقين دعواهم إلّا أننا نجد العذر[٢] لمن يقول بذلك منهم بعد أن صمّم على رفض المصدر الربّاني للقرآن. وسبب إعذارنا هؤلاء هو ثبوت أنّ «صاحب النصّ القرآني» له علم واسع ودقيق بأسفار أهل الكتاب، ظاهرًا وباطنًا، بل بإمكاننا أن نقول مع المستشرق (غبريال رينولدز) (Gabriel Reynolds)[٣] وغيره من المستشرقين: إن النص القرآني يشفّ عن معرفة ضمنية (subtext) تمثّل التراث الكتابي لليهود والنصارى. وقد ارتاع عدد من كبار المستشرقين لهذا الكشف، حتّى زعم أحد زعمائهم في القرن العشرين ـ (جون ونسبرو) (John Wansbrough) ـ أنّ القرآن لم يظهر في التقويم التقليدي للبعثة النبوية، وإنما هو نتاج آخر القرن الثاني الهجري أو بداية الثالث؛ إذ إنّه ليس ثمرة بيئة وثنية أميّة، وإنما هو حصيلة طائفة يهودية متنصرة عاشت في **بيئة معرفية مثقلة بالجدل الديني**[٤].

لا شكّ إذن أنّ من وضع كلمات القرآن ومعانيه عظيم المعرفة بالثقافة الكتابيّة، سواء أسلّمنا بربانية القرآن أم جحدنا ذلك؛ فهل وافق القرآن التوراة قولها في خبر نشأة الكون **كما وافقها كثيرًا، وبتفصيل شديد في جلّ ما أتى بعد ذلك من قصص**، من (آدم) عليه السلام إلى (عيسى) عليه السلام؟

وإذا لم يفعل ذلك، فهل فارق القرآن التراث اليهودي ـ النصراني ليوافق العلم أم ليخالفه؟ أي: ما هو الداعي القهري في القرآن لمخالفة أهل الكتاب

---

(١) انظر كتابنا الموسّع في الردّ على هذه الفرية: هل اقتبس القرآن الكريم من كتب اليهود والنصارى، دار البصيرة، ٢٠١٢م.

(٢) ليس هذا «بإعذار شرعي»، وإنما هو تقرير لكون التفسير المادي لمصدر بشري للقرآن متناسق مع مقدمته المادية التي ترفض نسبة القرآن إلى أصل سماوي.

(٣) Gabriel Said Reynolds, *The Qur'an and its Biblical Subtex*t (London; New York: Routledge, 2010).

(٤) John Wansbrough, *Quranic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation* (Oxford: Oxford University Press, 1977); *The Sectarian Milieu: Content and Composition Of Islamic Salvation History* (Oxford: Oxford University Press,1978).

خبرهم دون حاجة من تطوّر معرفي حادث في القرن السابع لم يكن كتبة الأسفار المقدسة على علم به؟

إنّ قراءة (قصّة التكوين) القرآنية بالتوازي مع القصّة التوراتية تكشف عن (نشوز) ـ إن تجوّزنا هذه العبارة ـ في الخط القرآني، وذلك بمخالفة غير مألوفة للرواية التوراتية، وهي مخالفة واضحة ومكثّفة، ولا تفسير لاهوتي لها (إذا استثنيا الخلق من عدم)، ولا نرى لها سببًا محتملًا غير حقائق العلم، غير أنّ علم نشأة الكون زمن البعثة النبوية لا يخالف في شيء معارف الكون زمن كتابة الأسفار المقدسة لليهود والنصارى؛ فالظن والخرافة هما الأصل في كليهما. وزد على ذلك أنّ الرواية التوراتية كانت ذات سلطان معرفي عظيم في البلاد المجاورة للجزيرة العربية، حتى إن الثقافة اليونانية التي هيمنت على كلّ المعارف الطبيعية النصرانية واليهودية (البيولوجيا، والتشريح، وعلم الأرصاد الجوية...) عجزت أن تغيّر كوسمولوجيا الكنيسة.

إنّ القرآن لا يتضمّن العناصر الأسطورية أو الساذجة المخالفة للعلم الواردة في التوراة والإنجيل[1]، فلا توجد إشارة البتّة إلى:

---

(١) روى (مسلم) عن (أَبِي هُرَيْرَةَ) رضي الله عنه قَالَ: «أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: «**خَلَقَ اللهُ عز وجل التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ**»». وهو حديث ضعّفه من هم أعلم من الإمام (مسلم) بالعلل كـ(البخاري) و(ابن المديني)، وضعّفه أيضًا أقرانه من المحدّثين كـ(ابن معين) و(عبد الرحمٰن بن مهدي). كما أنكره أئمة آخرون كـ(البيهقي) و(ابن تيمية) و(ابن القيم) ـ الذي صرّح أنّه حديث موضوع ـ، قبل ظهور المعارف العصرية بقرون.

وقد قال الحافظ (ابن كثير) عن هذا الحديث: «اختلف فيه على ابن جريج، وقد تكلم في هذا الحديث علي بن المديني، والبخاري، والبيهقي وغيرهم من الحفاظ. قال البخاري في (التاريخ): وقال بعضهم عن كعب وهو أصح؛ يعني: أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقاه من كعب الأحبار، فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث، فهذا يحدثه عن صحفه وهذا يحدثه بما يصدقه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعا إلى النبي ﷺ».

البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ١/٣٣.

والحديث مخالف صراحة للقرآن من أوجه ـ بل ليس فيه من ترتيب القرآن شيء ـ: =

• خلق الكون من ماء، وإنّما الماء شيء متميّز عن الخلق، وعليه عرش الرحمٰن[1]. وقد استفزّ وجود الماء الذي عليه عرش الرحمٰن في التوراة

= • يزعم هذا الحديث الباطل أنّ الخلق تمّ في سبعة أيام، وفي القرآن أنّ الخلق في ستة أيام.

• خلق الأرض وتقدير ما فيها في أربعة أيام في القرآن، وفي الحديث أنّ خلق الأرض في سبعة أيام. ولا ذكر لخلق السماوات وتسويتها.

• يزعم الحديث أنّ الله ـ سبحانه ـ خلق الشرّ يوم الثلاثاء. والشرّ ليس من مخلوقات الله ـ سبحانه ـ، قال رسول الله ﷺ: «**والشرّ ليس إليك**» (رواه مسلم). وخلق الشرّ دعوى مجوسيّة باطلة.

• الشرّ أثر عن المخلوقات، ولا معنى لأن يستقلّ حدوثه بيوم.

وأمّا من ناحية الإسناد، فقد أعلّ الحفّاظ الحديث من ثلاثة أوجه:

• الحديث من رواية (أبي هريرة) عن (كعب الأحبار) موقوفًا عليه. قال (البخاري): «روى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد الأنصاري عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**خلق الله التربة يوم السبت**»، وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح». التاريخ الكبير، ١/٤١٣، ترجمة «أيوب بن خالد».

• هذا الحديث رواه (إسماعيل بن أمية) عن (إبراهيم بن أبي يحيى)، و(إبراهيم) هذا متهم بالكذب (النسائي، الضعفاء والمتروكين، ص٤٢)، وبهذه العلّة ضعّف (ابن المديني) الحديث. قال: (ما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا من إبراهيم بن أبي يحيى).

البيهقي، الأسماء والصفات، ٢/٢٥٥ ـ ٢٦٥.

• في الإسناد (أيوب بن خالد). قال الحافظ (الأزدي): «أيوب بن خالد ليس حديثه بذاك، تكلم فيه أهل العلم بالحديث، وكان يحيى بن سعيد ونظراؤه لا يكتبون حديثه».

ابن حجر، تهذيب التهذيب، ١/٣٦٥. انظر: سليمان بن محمد الدبيخي، أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، الرياض: مكتبة دار المنهاج، ١٤٢٧هـ، ٣٥٧ ـ ٣٦٠.

(١) **ملحوظة:** أخرج (أحمد) و(ابن حبان) و(الحاكم) عن (أبي ميمونة) عن (أبي هريرة)، قال: قلت: يا رسول الله: «إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء». فقال: «**كل شيء خلق من ماء**». قال: قلت: «يا رسول الله، أنبئني عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة». قال: «**أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام**».

وقد أخرجه (الحاكم) ٤/١٢٩ و١٦٠ في موضعين، ولم يذكر في الموضع الأول الشطر الأول من الحديث. وكذلك أخرجه (ابن حبان) (٥٠٨) و(٢٥٥٩) دون أن يذكر في الموضع الأول الشطر الأول منه، وهو الشطر الذي يدلّ على أنّ الماء هو أصل الكون.

الحديث مداره على (أبي ميمونة). وقد قال الإمام (الدارقطني): «أبو ميمونة عن أبي هريرة عنه قتادة مجهول يترك »، وقال (ابن معين): «أبو ميمونة الأبار صالح»؛ أي: إنّ حديثه يكتب للاعتبار لا الاحتجاج.

تهذيب التهذيب، من كنيته: أبو ميمون وأبو ميمونة، (١١٦٧).

وقد وهم من صحّح الحديث إذ ظنّ (أبا ميمونة الفارسي) الثقة نفسه (الأبار). وذهب (البخاري) و(مسلم) و(أبو حاتم) وغيرهم كـ(الدارقطني) إلى التمييز بينهما. والحديث بذلك ضعيف الإسناد. وقد =

الأصليّة العقل اليهودي الديني ليتبنّى أسطورة الماء الأزلي الذي هو أصل الكون في التراث البابلي (والمصري) القديم، فجاء القرآن فردّ الأمر إلى أصله الأوّل، دون أن يكون للماء دور في شيء من الخلق.

- ليس هناك حديث عن أصلٍ غير مشكّل للكون في البدء.
- ليس هناك حديث عن قسمة الماء الأوّل إلى جزء سماوي وآخر أرضي.
- الأيام الستة في القرآن ليس فيها ذكر الصباح أو المساء، ووجود الصباح والمساء عمدة من فهم هذه الأيام على أنها أيام من أيامنا في التوراة.

علمًا أنّ كلمة «يوم» في العربية، هي كما في العبرية[1]، تحتمل معنى اليوم المعروف لدينا، وأدنى من ذلك ـ أي: بعضه ـ، وأطول من ذلك، بما يعنى المدة الطويلة من الزمان. قال (الراغب الأصفهاني) (توفي ٥٠٢هـ) في كتابه «المفردات في غريب القرآن»: «اليوم يعبَّرُ به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها. وقد يعبّر به عن مدّة من الزمان أيّ مدة كانت»[2]. والقرآن دال على تعدّد مدد «اليوم». قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]. ولذلك كان المفسّرون في

= ضعّفه (الألباني) لذلك في السلسلة الضعيفة (٣/ ٤٩٢)، وهو آخر قوليه فيه.

أما الحديث الذي أخرجه (الترمذي) عن (أبي هريرة) قال: «قلنا: يا رسول الله: ما لنا إذا كنا عندك، رقت قلوبنا، وزهدنا في الدنيا، وكنا من أهل الآخرة. فإذا خرجنا من عندك، فآنسنا أهالينا، وشممنا أولادنا، أنكرنا أنفسنا». فقال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك، لزارتكم الملائكة في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد كي يذنبوا فيغفر لهم.**» قال: قلت: «يا رسول الله، مم خلق الخلق؟» قال: «**من الماء**». قلنا: «الجنة ما بناؤها؟» قال: «**لبنة من فضة، ولبنة من ذهب، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران...**» الحديث، فقد ضعّفه (الترمذي) بقوله: «هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي، وليس هو عندي بمتصل». أمّا من صحّح الحديث، كـ(الألباني)، فقد صحّحه بشواهده، دون «مم خلق الخلق؟»؛ أي: إنّ هذه الزيادة المتعلّقة بالماء لا تصحّ بذاتها ولا تشهد لها أحاديث صحيحة أخرى، فهي ضعيفة.

(١) Nathaniel Philippe Sander and Isaac Léon Trenel, *Dictionnaire Hébreu - Français* (Imprimerie de Ch. Jouaust, 1859), pp.233 - 234.

(٢) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، بيروت: دار القلم، ١٤١٢هـ، ص٨٩٤.

سعة في اختيار معنى «يوم» في أيّام الخلق. قال (ابن كثير): «واختلفوا في هذه الأيام، هل كل يوم منها كهذه الأيام»[1]. واختار فريق من المفسّرين أنّ هذه الأيام هي محض مُدد. قال (ابن عاشور): «وقيل المراد: في ستّة أوقات، فإنّ اليوم يطلق على الوقت كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١٦]؛ أي: حين إذ يلقاهم زَحْفًا، ومقصود هذا القائل أنّ السماوات والأرض خُلقت عالَمًا بعد عالم ولم يشترك جميعُها في أوقات تكوينها»[2].

• ليس هناك ذكر أو وصف للسماء على أنّها شيء صلب، يفصل بين شيئين، علمًا أن نص تكوين ٦/١ قد وصف السماء بأنّها (רָקִיעַ) [رَقِيعْ]، وهي الكلمة التي نقلتها الترجمة السبعينية إلى (στερέωμα) من فعل (στερεόω)؛ أي: «جعله صلبًا/ثابتًا»، ولذلك اختارت ترجمة الفولجاتا اللاتينية عبارة (firmamentum) للتعبير عن معنى العبارة العبرية.

• ليس هناك وصف للكواكب على أنها أشياء ملتصقة بالسقف [السماء]، وإنّما هي فقط في السماء؛ أي: ما يعلو الأرض كما في لغة العرب.

• خَلْقُ (آدم) عليه السلام قبل خلق الحيوانات في تكوين ٢، ليس له ذكر في القرآن، بل القرآن يدلّ ظاهر لفظه على أنّ الجنس الآدمي قد ظهر بعد ظهور الحيوانات. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]. فالله ـ سبحانه ـ قد أخبر أنه سيخلق على الأرض خليفة، فتساءلت الملائكة عن هذا الكائن الأرضي، والحكمة من خلقه؛ إذ هي لا تعلم على الأرض إلّا أنّ أهلها يفسدون فيها ويسفكون الدماء. وقد وقف المفسّرون القدماء أمام قول الملائكة في حيرة؛ إذ كانت الثقافة السائدة أنّ الحياة بدأت على الأرض بخلق (آدم) عليه السلام، فاضطروا إلى القول إنّ الجنّ هي تلك الكائنات الأرضية (!) التي

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ٣/٤٢٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ٨/٢/١٦٢.

تسفك دماء (!) بعضها، رغم أنّ الجنّ قد خُلقت من نار! ولئن كان للمفسّرين شيء من العذر في قولهم؛ لجهلهم بتاريخ الأحياء على الأرض، إلّا أن معارفنا العلمية اليوم تجعلنا نفهم كلام الملائكة على ظاهره دون تكلّف، مع موافقة لحقيقة ظهور الكائنات المتوحشّة التي تسفك دماء بعضها قبل خلق (آدم) عليه السلام بمئات ملايين السنين.

ما تفسير عصمة النص القرآني من الخطأ؟ هنا يعجز الماديون عن تقديم بيان مقنع. وأصل العصمة سيتّضح في ما سيأتي.

٣ ـ عندما يصحح القرآن أخطاء التوراة:

ناقض القرآن الرواية التوراتية في عدد من التفاصيل، بما يوافق العلم بصورة دقيقة لم تكن مدرَكة علميًّا من قبل:

• تزعم الرواية التوراتية تهيئة الأرض للحياة قبل خلق الشمس والقمر والنجوم، وتزعم خلق النبات قبل وجود الشمس، وهو عكس الترتيب القرآني الذي جعل ظهور السماء بأجرامها سابقًا لظهور النهار. قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣١]

• لا توجد إشارة إلى أنّ أصل البحار الماء الأوّل، وإنما جاء ذكر أنّ أصل ماء البحار من داخل الأرض نفسها. قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١]، وهو ما أكّده العلم الحديث مؤخرًا بكشفه عن آثار الماء في باطن الأرض، وهو ما جعل العلماء ينسبون ماء ظاهر الأرض إلى باطنها[١].

• يزعم العهد الجديد (٢ بطرس ٣/ ٥) أن الأرض أصلها ماء، في حين يحصر القرآن مجال أصالة الماء بالقول: إنه أصل الأحياء لا الجمادات

(١) University of Alberta, "Water - rich gem points to vast 'oceans' beneath Earth's surface, study suggests." ScienceDaily. ScienceDaily, 12 March 2014.
< www.sciencedaily.com/releases/2014/140312150229.htm >.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وهي الحقيقة التي يُسَلِّم لها العلماء الذين يبحثون عن الحياة في الكواكب الأخرى؛ إذ يربطون بين وجود الماء وإمكان الحياة.

• تزعم التوراة أنّ للأرض أعمدة من تحتها، ويقرّر القرآن أنّ الرواسي هي فوق الأرض.

٤ ـ عندما يسبق القرآن خبر الانفجار العظيم:

المدهش في أمر القرآن ومطابقته لحقائق العلوم أنه يُرضي تنبؤات من يزعم أنّ هذا الكتاب وحي منزّل. ومن عجائب هذا الباب حديث القرآن عن أهم حقائق قصة الخلق منذ الانفجار العظيم:

الانفجار:

الوصول إلى حقيقة الانفجار الكوني الأوّل بصورة مباشرة أمر متعذّر لأنه حدث لحظيٌّ مضى وانقضى. والانفجار الكونيّ الأوّل هو انفلاق كرة ناريّة بالغة الحرارة. وقد أدرك العلماء حقيقة ذلك من خلال قياس درجات حرارة الأزمنة المتباعدة كما ترصدها المراصد؛ فإنّ المراصد قادرة على رصد تاريخ الكون القديم من خلال تتبّع تطوّرات الشكل الكوني الأوّل عبر الضوء الذي يصل منها إلينا. وقد دلّت الدراسات الرصدية الحسابية بيقين أنّ الكون في أقدم صوره كان حاميًا ثم بدأ في التبرّد، كما أنّ تشكّل عدد من عناصر الكون يحتاج طاقة حرارية عالية جدًّا لا تتوفّر حتى في بطون النجوم، وهو ما يعيد نشأتها لحرارة أولى عالية جدًّا مبكّرة، فهلّ أرّخ القرآن للانفجار الأوّل الحامي؟

جواب القرآن هو في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١١، ١٢].

ما الدخان؟ لماذا لم يكن الهواء أو التراب أو الماء أو النار، وهي **العناصر الأربعة التي يتكوّن منها الكون في التصوّر الأرسطي المهيمن على**

العالم النصراني عند البعثة النبوية؟ لماذا لم يقل الماء كما هو مذهب الإنجيل النصراني والحضارة البابلية والمصرية القديمة؟

ما الدخان غير أثر عن انفجار أو احتراق، وكذلك كان الكون الأول، انفجار ونار حامية، ثم تبرّد، ومن الانفجار كان الدخان، وهو صريح النص القرآني.

التوسع:

سبق لنا بيان اهتداء العلماء في بداية القرن العشرين إلى توسّع الكون بالحساب الرياضي، وهو أمر انتهى إلى تقريره (أينشتاين) أيضًا نظريًّا، ثم تأكّد الأمر بعد ذلك بالرؤية المرصادية، أولًا من طرف (هابل)، ثم بقية المراصد، فما عاد هناك شك معتبر في هذا الشأن، فقد اعتضد البحث النظري بالكشف العملي، وهو أمر يبعد على العقل القديم تصوّره؛ فإنّ افتراض توسّع سقف الأرض لا يكاد يدلّ على معنى معقول أو متصوّر، ورغم ذلك فمن السلف من فسّر قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧]، بمدّ السماء، كـ(عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم) (توفي عام ١٨٢هـ)، وهو من أعلام المفسّرين في زمن تابعي التابعين[١]. وبنفس الدلالة قال (أبو إسحاق الزجاج) النحوي (متوفى ٣١١هـ)[٢]. وقال (ابن كثير): «﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾؛ أي: قد وسعنا أرجاءها، فرفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي»[٣]. ويُستأنس بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤] للقول: إنّ طيّ الكون في آخر الزمان هو مقابل توسعته في أوّله، فكما بُدئ الكون بالتوسّع يُردّ بالطيّ.

مدة الخلق:

تتفّق الهيئات العلمية الكبرى على مجموعة من التقريرات التي

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص١٣٥١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٤٢٤.

تمثّل مكاسب عظيمة للعقل العلمي في القرنين العشرين والواحد والعشرين:

١ ـ مادة الكون بأرضه وسمائه وجدت في الانفجار العظيم.

٢ ـ عمر الكون: ١٣,٧ بليون سنة، وعمر الأرض: ٤,٥ بليون سنة.

٣ ـ تكوّنت الأرض في المدّة الأخيرة من عمر الكون.

والناظر في كتاب الله بروية يجد تطابقًا مذهلًا مع مكتشفات العلم الحديث، ووجه الإذهال فيه أنه موافق بدقّة لأدقّ الدراسات العلمية الأحدث، وأنّه مخالف بشدّة لما جاء في التوراة والإنجيل.

مادة الكون:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فالسماوات والأرض من مادة واحدة، وجدتا أولًا، ثم حدث الانفصال، فتميّزت السماء عن الأرض.

عمر الكون والأرض:

القراءة البسيطة غير المتكلّفة لآيات الخلق في القرآن تدلّ على عدد من الأمور:

• خلق الكون في ستة أيام: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. فالسماوات والأرض قد خلقتا في ستة أيام، في عبارة محكمة. والأيام هنا مدد من الزمن دون حصر، ولا قرينة على أنّها أيام من أيام الدنيا.

• أيام الخلق متساوية بصورة تامة، فقد قال تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ١٠]، فهي «سواء»؛ أي: متساوية زمنًا.

• السماء والأرض وجدتا معًا ثم فتقتا.

• الأيام الست في القرآن مقسمة على الشكل التالي:

١ ـ خلق الله الأرض في يومين، ومعنى الخلق هنا هو إيجاد المادة الأولى، ثم طبخها في الفرن الكوني: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت: ٩].

٢ ـ تسوية السماوات في يومين، وهذا ليس خلقًا لمادة السماوات وإنما تشكيلها على صورة سبع سماوات، وذاك دال أنّ السماء تسبق الأرض في إحكام البناء، وإن تزامن خلق مادة السماء ومادة الأرض. قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١١، ١٢].

٣ ـ فصل الأرض عن السماء؛ أي: الأجرام التي ستعلوها بعد ذلك. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]. بعد انفصال الأرض عن بقية الكواكب، بَسَطها الله سبحانه، وثبّتها وذلك في يومين اثنين، وهذا هو سنّ أرضنا، أو قل: «عمرها الجيولوجي» ـ على حد تعبير الفيزيائي (منصور محمد حسب النبي) ـ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٩، ١٠]. فهذه الأيام الأربع تتضمّن اليومين الأوّلين لخلق الأرض، واليومين الآخرين لتثبيت القشرة الأرضية كما هو قول كثير من المفسّرين القدماء والمعاصرين[1]. والقرآن يميّز في غير ما موضع بين «خلق» و«قدّر»، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢].

النتيجة: قرآنيًا، العمر الجيولوجي للأرض يساوي ٢/٦ عمر الكون؛

---

(١) وهو نفسه قول (ابن عباس) رضي الله عنهما ـ في ما أخرجه البخاري ـ ببيان تعلّق اليوم الأول والثاني والخامس والسادس بالأرض.

أي: ثلثه ١/٣، ونهايته هي اللحظة التي نعيشها الآن، فهو واقع في آخر العمر الكوني لكوننا.

اعتراض: رغم أنّ التفسير الذي قدّمتموه مُؤيَّد بنصوص القرآن، إلا أنّه مخالف لتفسير الصحابة، وأنتم بذلك تتعسّفون في استنطاق النصوص القرآنية لتوافق العلم الحديث!

الجواب: بل تفسيرنا موافق لتفسير الصحابة، فهو عين تفسير (ابن عباس) رضي الله عنه لآيات الخلق، ولم نخالفه إلا في مسألة واحدة فقط، وهي قوله: إنّ السماء خلقت بعد الأرض، لا مع الأرض، فقد فهم رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١، ١٢] على أنه مخبر بإنشاء السماء بين اليوم الثاني واليوم الثالث[1] الذي بدأ فيه أمر تسوية السماوات إلى سبع. فقد أخرج (البخاري) في صحيحه أنّ رجلًا استشكل آيات ترتيب الخلق، فأجابه (ابن عباس) رضي الله عنه قائلًا: «خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد، والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السماوات في يومين»[2]. وبيان فهم (ابن عباس) رضي الله عنه لآيات الخلق في الجدول التالي:

اليوم ١ و٢	بين اليوم ٢ و٣: نهاية الثاني (!) أو بداية الثالث (!)	اليوم ٣ و٤	اليوم ٥ و٦
الأرض	خلق السماء (الدخان)	تسوية الدخان سبع سماوات	تهيئة الأرض للحياة

(١) العبارة غامضة، فربما قصد (ابن عباس) رضي الله عنه نهاية اليوم الثاني أو بداية اليوم الثالث.

(٢) رواه البخاري (ح٤٥٣٧).

ما قرّره (ابن عباس) رضي الله عنه هو ظاهر القرآن، غير أنّ قوله: إنّ الله ـ سبحانه ـ قد خلق السماء بعد الأرض، ثم سوّاها سبع السماوات، بعيد، فالقرآن تحدّث عن تسوية السماوات في يومين، وليس في هذين اليومين خَلْقُها، والتسوية متأخّرة عن الخلق بداهة، فلزم أن يكون خلق السماوات في اليومين السابقين لليوم الثالث والرابع؛ أي: إنّ القرآن قد دلّ على خلق السماوات ضمنًا في اليومين الأوّلين بحديثه عن تسويتها سبع سماوات في المرحلة الثانية من الخلق، فالله ـ سبحانه ـ استوى إلى السماء الموجودة أصلًا على هيئة دخان في اليوم الثالث، فجعلها على هيئة سبع سماوات في يومين. ولا حجّة للقول: إنّ السماء قد خلقت في آخر اليومين الأوّلين من القرآن؛ إذ ليس في آيات ترتيب الخلق حديث صريح عن مرحلة خلق السماء؛ فيبقى الأمر على إطلاقه، وهو أنّ السماء خلقت في يومي خلق الأرض إلا بقرينة صارفة، ولا قرينة!

اعتراض: فلماذا لم يشر القرآن إلى خلق السماء مع الأرض؟

الجواب: بل أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فقد كانت السموات والأرض كتلة واحدة، ثم تم فصلهما عن بعضهما، بالفتق، والفتق ضد الوصل؛ فسوّيت السماوات السبع، وهيّئت الأرض للحياة. قال (ابن كثير): «كان الجميع متّصلًا بعضه ببعض، متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعًا، والأرض سبعًا»[(١)]. وقد صحّ تفسير الآية بفصل السماء عن الأرض عن التابعي الجليل المفسّر (قتادة السدوسي) توفي (١١٨هـ)، والتابعي الجليل (الحسن البصري) توفي (١١٠هـ)[(٢)].

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٣٩.

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، الرياض: دار هجر، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ١٦/ ٢٥٦.

ترتيبنا للخلق قرآنيًّا

اليوم ١ و٢	اليوم ٣ و٤	اليوم ٥ و٦
خلق مادة السماوات والأرض	**تسوية الدخان سبع سماوات**	**إنشاء الكرة الأرضية بما فيها**
﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾	﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾	تهيئة الأرض بعد خلق السماء: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾. مدة خلق الكرة الأرضية: يومان، بعد حذف يومَي خلق المادة وطبخها بتكوين العناصر الأساسية من مجموع الأيام الأربعة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

ومن الناحية العلمية، يقدّر علماء ناسا رسميًّا عمر الكون على أنه ١٣,٧ بليون سنة، ويقدر العلماء عمر الأرض بـ٤,٥ بليون سنة[1]. وبحساب سُدسي عمر الكون؛ أي: يومين من حياته إذا قدّرنا أنه ستة أيام، تكون النتيجة بالضبط ٤,٥، بهذه الدقة وهذا الإعجاز![2].

(١) G. Brent Dalrymple, "The age of the Earth in the twentieth century: a problem (mostly) solved". Special Publications, Geological Society of London, 2001, 190 (1): 205-221.

(٢) أوّل من ربط بين المعطى القرآني والمعطى العلمي بهذه الدقة ـ في حدود علمي ـ هو الدكتور (منصور محمد حسب النبي)، علمًا أنه لم يكن متأكدًا من دقة الكشوف الحديثة لعمر الكون، ويرى أنّ «معظم =

عمر الأرض بالنسبة إلى الكون علميًّا	عمر الأرض بالنسبة إلى الكون قرآنيًّا
٤,٥ بليون سنة/ ١٣,٧ بليون سنة	يومان/ ٦ أيام
٣/١	٢/٦ = ١/٣

والأمر الذي يقطع أنّ هذا التطابق بين القرآن والعلم ليس صدفة، حقيقة الـمُدَد التي قرّرها القرآن، فإنّه يجوز أن يقال: إنّ الأمر صدفة لو كان القرآن قد اختار القول: إنّ الأرض قد خلقت في يوم واحد؛ باعتبار أنّ الأرض شيء واحدٌ، خُلِق في يوم واحد، أو أن تكون مدة خلق الأرض ثلاثة أيام، باعتبار أنّ الكون هو «السماوات والأرض»، فللسماوات نصف مدة الخلق الإجمالية، وللأرض النصف الآخر، نصف المدة. وليس في القرآن ذلك!

٥ ـ عندما تهدم السُّنَّة النبويّة دعوى الكون الصغير:

ليس في القرآن إشارة إلى طول عمر البشرية، لكن دلّت السُّنَّة على أنّ عمر البشريّة أعظم بكثير من أوهام الكتاب المقدس، وهذا ما بيّنه الإمام (ابن حزم) في زمن تشرّب فيه الأخباريون المسلمون دعاوى النصارى، بل ونقلوا سلاسل أنساب التوراة دون برهان من قرآن أو سُنَّة.

قال (ابن حزم) منذ أكثر من عشرة قرون من الآن: «وأما اختلاف الناس في التاريخ، فإن اليهود يقولون للدنيا أربعة آلاف سنة ونيف. والنصارى يقولون للدنيا خمسة آلاف سنة. وأما نحن فلا نقطع على عدد معروف عندنا. وأما من ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل، **فقد كذب، وقال ما لم يأت قط عن رسول الله ﷺ فيه لفظة تصح، بل صح عنه عليه السلام خلافه،** بل نقطع على أن للدنيا أمرًا لا يعلمه إلا الله عز وجل. قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]. وقول رسول الله ﷺ: «**ما**

= الدلائل العلمية تشير الآن إلى أنّ عمر الكون يتراوح بين ١٢ إلى ١٥ مليار سنة، كأرقام معروفة الآن لدى علماء الفيزياء الكونية.» (مقال إلكتروني: الزمن بين العلم والقرآن)، فكيف لو علم مطابقة النص القرآني لكشوف العلم بالدقة المعروفة اليوم؟!

أنتم في الأمم قبلكم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض»[1].

هذا عنه عليه السلام ثابت، وهو عليه السلام لا يقول إلا عين الحق، ولا يسامح بشيء من الباطل. وهذه نسبة من تدبّرها، وعرف مقدار أعداد أهل الإسلام، ونسبة ما بأيديهم من معمور الأرض، وأنّه الأكثر، **علم أن للدنيا عددًا لا يحصيه إلا الله الخالق تعالى.**

وكذلك قوله ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»، وضمّ أصبعيه المقدستين السبابة والوسطى[2].

وقد جاء النص بأنّ الساعة لا يعلم متى تكون إلا الله عز وجل، لا أحد سواه. فصحّ أنه عليه السلام إنما عنى شدة القرب لا فضل طول الوسطى على السبابة، إذ لو أراد فضل ذلك، لأخذت نسبة ما بين الأصبعين، ونسب ذلك من طول الوسطى، فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة، وهذا باطل.

وأيضا فكأن تكون نسبته عليه السلام إيانا إلى من قبلنا بأنه كالشعرة في الثور كذبًا ومعاذ الله من ذلك.

فصحّ أنه عليه السلام إنما أراد شدة القرب، وله عليه السلام مذ بعث أربعمائة عام ونيف، والله أعلم بمقدار ما بقي من عمر الدنيا. **فإذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عند ما سلف لقلته وتفاهته بالإضافة إلى ما مضى،** فهذا الذي قاله عليه السلام من أننا فيمن مضى كالشعرة في الثور أو الرقمة في ذراع الحمار»[3].

إنّ السُّنَّة النبوية الصحيحة تخبرنا إذن أنّ ما مضى من زمن طويل جدًّا لا يساوي فيه عمر أمة الإسلام شيئًا. وذاك لا يلتقي مع تقدير اليهود والنصارى

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م، ١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

أن عمر الكون ستة آلاف سنة من اليوم. ولم يصحّ من السُّنَّة غير ذلك رغم ثراء التراث النبوي[1].

---

(١) **ملحوظة**: روى (الطبراني) ـ في «الكبير» و«الأوسط» ـ وغيره بإسنادهم عن (أبي توبة)، قال: حدثنا **(معاوية بن سلام)**، عن أخيه (زيد بن سلام)، قال: «سمعتُ (أبا سلام) قال: «سمعتُ (أبا أمامة) أن رجلًا قال: «يا رسول الله، أنبيّ كان (آدم)؟» قال: «نعم»، قال: «كم بينه وبين (نوح)؟» قال: «**عشرة قرون**». قال: «كم بين (نوح) و(إبراهيم)؟» قال: «**عشرة قرون**...» الحديث.

ويبدو أنّ الإمام (الطبراني) قد أعلّ هذا الحديث في «الأوسط» (٤٠٥) بالتفرّد، إذ أخرجه في معجمه الأوسط الخاص بالأحاديث الأفراد ـ وهو بذلك كتاب علل ـ، وقال: «لا يروى هذا الحديث عن أبي أمامة إلا بهذا الإسناد، تفرّد به: معاوية بن سلام». وهذا باب عظيم من أبواب تضعيف ما يرويه الثقات إذا تفرّدوا وكانوا من الطبقات المتأخرة (توفي معاوية بن سلام سنة ١٧٠هـ) [قال الإمام (ابن رجب) في وصف منهج أئمة الحديث المتقدمين: «وأما أكثر الحفاظ المتقدمين فإنهم يقولون في الحديث إذا تفرّد به واحد وإن لم يرو الثقات خلافه: إنه لا يتابع عليه، ويجعلون ذلك علّة فيه، اللَّهُمَّ إلا أن يكون ممن كثر حفظه واشتهرت عدالته وحديثه كالزهري ونحوه، وربما يستنكرون بعض تفرّدات الثقات الكبار أيضًا، ولهم في كل حديث نقد خاص، وليس عندهم لذلك ضابط يضبطه» (شرح علل الترمذي، ١/٣٥٢) وهذا هو مذهب (يحيى القطان) و(ابن المديني) وغيرهما.. فأحاديث كبار الثقات قد تردّ لنكارة المتن، فكيف بمن دونهم؟!]، وهذا الراوي ممن اختلف أئمة الجرح والتعديل في توثيقه؛ فقد قال فيه (ابن معين): «صدوق الحديث» [الأصل أنّ مصطلح «صدوق» من مراتب الجرح عند (ابن معين)، ولكن لما نقل (الدارمي) عن (ابن معين) قوله فيه: «ثقة»، كان الجمع بين القولين أنه في أدنى مراتب الثقات، وربما ـ أيضًا ـ ظهر (لابن معين) في آخر قوليه ـ وهو الذي نرى أنه الذي نقله عنه (عباس بن الوليد الخلال) ـ أنه ضعيف؛ إذ ظهر له من حاله ما يدعو إلى تضعيفه، فقد كان من شأن (ابن معين) توثيق من ظهر له حسن حاله في أوّل الأمر، ثم هو بعد ذلك يضعّفه لما يبدو له بعد ذلك غير ذلك]، بل لقد ضعفه «أبو حاتم الرازي» بقوله: «لا بأس بحديثه»؛ أي: لا يحتج به [هذا اصطلاح خاص (بأبي حاتم)، فقد قال مثلا (ابن أبي حاتم): «سألت أبي عن علي بن علي الرفاعي؟ قال ليس بحديثه بأس. قلت: يحتج بحديثه؟ قال: لا». الجرح والتعديل ٦/١٦٩.

وقال أيضًا: في محمد بن سليمان بن الأصبهاني: «لا بأس به، يكتب حديثه، ولا يحتج به» (الجرح والتعديل ٧/٢٦٧)]، وقال فيه «يعقوب بن شيبة»: «ثقة صدوق»، وهو منه تضعيف له [هذا اصطلاح خاص (بيعقوب بن شيبة السدوسي)؛ فإنّه إذا قرن عبارة «ثقة» بما «دونها» كـ«صدوق»، كان ذاك منه تضعيفًا للراوي، فقد قال مثلًا في (محمد بن مسلم بن تدرس): «ثقة، صدوق، إلى الضعف ما هو». تهذيب الكمال ٢٦/٤٠٨.

وقال في (عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم): «ضعيف الحديث، وهو ثقة صدوق، رجل صالح». تهذيب الكمال ١٧/١٠٦.

وقد قال الإمام (الذهبي) في تفرّد (الصدوق): «وإنَّ تفرّد الصدوق ومَن دونه يُعد منكرًا». =

= الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، بيروت: دار المعرفة، د.ت.، ٣/ ١٤٠ ـ ١٤١.
ثمّ إنّ الحديث من رواية (أبي سلام ممطور الحبشي)، وقد سمع من (كعب الأحبار) المكثر من رواية الإسرائيليات، وسماع (أبي سلام) عن (أبي أمامة) أنكره (أبو حاتم)؛ إذ قال في (المراسيل) (٨١٢) (لابن أبي حاتم): «ممطور أبو سلام الأعرج الحبشي الدمشقي روى عن ثوبان والنعمان بن بشير وأبي أمامة وعمرو بن عبسة: مرسل». ويُشكل على ذلك تصريح (أبو سلام) بالسماع هنا، فربّما كان نقل السماع وهمًا من الرواة، والحديث بذلك مرسل، أو هو من خبر (كعب الأحبار)، والإرسال هنا يحتاج إلى نظر على كلّ حال، خاصة أنّه ـ كما يقول (الذهبي) في «الكاشف» (٥٧١٩) ـ: عامة مرويات (أبي سلام) مرسلة!
وأمّا متنًا، فالحديث مخالف ـ مفهومًا ـ لما ذكره (ابن حزم) من حديث مما هو في أعلى درجات الصحّة (في البخاري ومسلم)، ومخالف قبل ذلك لصريح القرآن في بيان كثرة الأمم بين (نوح) و(إبراهيم) ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨﴾ [الفرقان: ٣٧، ٣٨]، فهل يصحّ أن يُقال بكثرة الأمم بين (نوح) و(إبراهيم) ﷺ، والعدد لا يتجاوز السبعة في أفضل حال، بعد حذف قوم (عاد) و(ثمود) و(أصحاب الرس)؟! فما القلّة في لغة العرب، إذا كانت هذه هي الكثرة؟!
ورحم الله «الخطيب البغدادي» (توفي ٤٦٣هـ) إذ قال: «ولا يُقبل خبر الواحد في منافاة حكم العقل، وحكم القرآن الثابت المحكم، والسُّنَّة المعلومة... وكلّ دليل مقطوع به».
الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م، ص٤٣٢.
فكيف بروايةِ المتأخّر ـ المختلَف في ضبطه ـ روايةً تخالف العقل والنقل بيقين!
وقد صحّ ـ في المقابل ـ عن (ابن عبّاس) ـ الصحابي، رضي الله عنه ـ موقوفًا عند (الطبري) و(الحاكم) قوله: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق». ولم يرفعه رضي الله عنه إلى الرسول ﷺ، وإنّما هو من قوله هو. وهذا من الأخبار المأخوذة عن أهل الكتاب (الإسرائيليات)؛ فإنّ (ابن عبّاس) رضي الله عنه كان ـ كما هو معلوم ـ كثير النقل عنهم. وقد جاء النص في التوراة، في الفصل الخامس من سفر التكوين، أنّ بين (آدم) و(نوح) ﷺ عشرة قرون. كما نصّ اليهود في «التلمود» (**אבות** ٥/ ٢) على هذا العدد من الأجيال بين (آدم) و(نوح) ﷺ. وجاء النص في «التلمود» مباشرة بعد الموضع السابق ذكره منه (**אבות** ٥/ ٣) أنّ بين (نوح) و(إبراهيم) ﷺ عشرة قرون، وهو أمر مستنبط من التوراة، سفر التكوين، الفصل ١١/ ١٠ ـ ٢٦، والمقصود «بالجيل» هنا هو المسافة بين عصر الآباء وعصر الأبناء الذين من أصلابهم. وذاك هو مصدر رواية (ابن عباس) بيقين، وإن كان قد أخذه مشافهة عن أهل الكتاب، أو ـ الراجح ـ مسلمة أهل الكتاب، فقد كان اليهود قديمًا يعتنون عناية بالغة بالأنساب المزعومة في التوراة.

وأخيرًا؛ عليّ أن ألجم القلم عن السيلان، ومن أراد مزيد بيان، وطويل إفاضة في أمر العلم والتوراة والإنجيل والقرآن، فعليه بكتابنا الذي ألّفناه لذلك.

ربّنا اغفر وارحم.. وتجاوز عمّا تعلم!

كلمة في الختام

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام: ١٠٢].

المراجع

المراجع العربية

١ ـ ابن أبي العز، **شرح الطحاوية**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد الله بن المحسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢ ـ الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، بيروت: دار القلم، ١٤١٢هـ.

٣ ـ **ترجمة الرهبانية اليسوعية للكتاب المقدس**، بيروت: دار المشرق، ١٩٨٨م، ط٣.

٤ ـ ابن تيمية، **شرح العقيدة الأصفهانية**، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٥ ـ **مجموع الفتاوى**، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥ م.

٦ ـ الدبيخي، سليمان بن محمد، **أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين**، الرياض: مكتبة دار المنهاج، ١٤٢٧هـ.

٧ ـ الذهبي، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

٨ ـ ابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٩ ـ ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠١م.

١٠ ـ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١١ ـ ابن قدامة، **لمعة الاعتقاد**، المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٢ ـ ابن الجوزي، **زاد المسير**، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٣ ـ أبو المعالي الجويني، **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**، تحقيق: محمد يوسف موسى وعلي عبد الحميد، مصر: مكتبة الخانجي، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م.

١٤ ـ **العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، القاهرة: المكتبة الأزهرية، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٥ ـ أبو حامد الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٣م.

١٦ ـ **تهافت الفلاسفة**، تحقيق: سليمان دنيا، القاهرة: دار المعارف، د.ت.

١٧ ـ **معيار العلم**، تحقيق: سليمان دنيا، مصر: دار المعارف، ١٩٦١م.

١٨ ـ الخطيب البغدادي، **الكفاية في علم الرواية**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

١٩ ـ بول دافيز، **الله والفيزياء الحديثة**، تعريب: هالة العوري، دمشق: دار صفحات، ٢٠١٣م.

٢٠ ـ روجر بنروز، **فيزياء العقل البشري والعالم من منظورين**، تعريب: عنان الشهاوي، أبو ظبي: كلمة، ٢٠١١م.

٢١ ـ ابن رشد، **تهافت التهافت**، تحقيق: سليمان دنيا القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٣م.

٢٢ ـ الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: عبد الله التركي، الرياض: دار هجر، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٣ ـ ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٤ ـ **تفسير القرآن العظيم**، الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٥ ـ محمد باسل الطائي، **خلق الكون بين العلم والإيمان**، بيروت: دار النفائس، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٦ ـ النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، تحقيق: خليل مأمون شيحا، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٤م.

٢٧ ـ سفر الحوالي، **شرح العقيدة الطحاوية**، الشرح الصوتي المفرّغ.

المراجع الأعجمية

[لم ننقل عناوين المقالات العلمية والصحفية لكثرتها، واكتفينا بالكتب في القائمة التالية]

28- Adler, Mortimer, *Truth in Religion: The plurality of religions and the unity of truth: an essay in the philosophy of religion,* New York: Maxwell Macmillan International, 1990.

29- Atkins, Peter, *The Creation,* Oxford: W. H. Freeman, 1981.

30- Auletta, *G., ed. The Controversial Relations Between Science and Philosophy: A critical assessement*, Vatican City: Libreria Editrice Vaticana, 2006.

31- Bandstra, Barry, *Reading the Old Testament: Introduction to the Hebrew Bible,* Belmont, CA: Wadsworth, 1995.

32- Barrow, John D., *Theories of Everything*, Oxford: Clarendon, 1991.

33- Beebee, Helen, Hitchcock, Christopher, and Menzies, Peter Charles, eds. *The Oxford Handbook of Causation,* Oxford; New York: Oxford University Press, 2009.

34- Benacerraf, Paul and Putnam, Hillary eds. *Philosophy of Mathematics,* selected readings, N.J.: Prentice-Hall, 1964.

35- Brown, Francis,; Driver, S. R.; Briggs, Charles A.; Driver, G. R.; Gesenius, Wilhelm; Roediger, Emil and Robinson, Edward, *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament,* Oxford: Clarendon, 1898.

36- Charlesworth, James, ed. *The Old Testament Pseudepigrapha,* New York: Doubleday & Co., 1983.

37- Cone, Orello, *The epistles to the Hebrews, Colossians, Ephesians, and Philemon, the Pastoral Epistles, the Epistles of James, Peter and Jude, Together With A Sketch of the History of the Canon of the New Testament* (New York & London, G.P. Putnam's Sons, 1901.

38- Coote, Robert B. and Ord, David Robert, In the Beginning: *Creation and the Priestly History,* Minneapolis: Fortress Press, 1991.

39- Copan, Paul, *That's Just Your Interpretation: Responding to Skeptics Who Challenge Your Faith,* Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2001.

40- Copan, Paul and Craig, William Lane, *Creation out of Nothing: A Biblical, Philosophical, and Scientific Exploration,* Leicester, England: Apollos; Grand Rapids, Mich.: Baker Academic, 2004.

41- Cornell, James, ed. *Bubbles, Voids, and Bumps in Time: The New Cosmology,* Cambridge, England: Cambridge University Press, 1989.

42- Craig, Edward, ed. *The Shorter Routledge Encyclopedia of Philosophy,* New York: Routledge, 1998.

43- Craig, William Lane, *Reasonable Faith,* Wheaton, Ill.: Crossway Books, 2008.

44- ____ *The Kalam Cosmological Argument,* Eugene, OR: Wipf and Stock Publishers, 2000.

45- Craig, William Lane and Smith, Quentin, *Theism, Atheism, and Big Bang Cosmology*, New York: Oxford University Press, 1993.

46- Craig, William Lane and J. P. Moreland, eds. *The Blackwell Companion to Natural Theology,* Chichester, U.K.; Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2009.

47- Cushing, J.T., Fine, Arthur, and Goldstein, S., eds. *Bohmian Mechanics and Quantum Theory: An appraisal,* Dordrecht; Boston: Kluwer Academic Publishers, 1996.

48- Darwin, Charles, *The Origin of Species,* New York: Collier & Son, 1909.

49- Davidson, Herbert A., *Proofs for Eternity, Creation, and the Existence of God in Medieval Islamic and Jewish Philosophy,* New York: Oxford University Press, 1987.

50- Davies, Paul, *God and the New Physics,* New York: Simon & Schuster, 1983.

51- ____ *The Mind of God: The Scientific Basis for a Rational World,* New York: Simon & Schuster, 1992.

52- ____ *The Goldilocks Enigma,* Boston: Houghton Mifflin, 2006.

53- ____ *Superforce: The Search for a Grand Unified Theory of Nature* (New York: Simon and Schuster, 1984.

54- Dawes, Gregory W., *Theism and Explanation,* London; New York: Taylor & Francis, 2009.

55- Dawkins, Richard, *The Blind Watchmaker: why the evidence of evolution reveals a universe without design,* New York : Norton, 1996.

56- ____ *The God Delusion,* Boston : Houghton Mifflin, 2006.

57- Duane, Gish, *Evolution: The fossils still say No!,* CA: Institute for Creation Research, 1995.

58- Eddington, Arthur, *The Expanding Universe*, New York: Macmillan, 1933.

59- Edward, Feser, *The Last Superstition: A refutation of the new atheism.* Electronic copy.

60- ____ *Scholastic Metaphysics: A contemporary introduction,* NJ: Rutgers University, 2014.

61- Edwards, Rem B., *What Caused The Big Bang?,* New York: Rodopi, 2001.

62- Feynman, Richard, *The Meaning of it All,* London: Penguin Books, 2007.

63- Flew, Antony, *There is a God,* New York: HarperOne, 2007.

64- Friedman, Richard Elliott, *The Bible with Sources Revealed,* San Francisco: HarperSanFrancisco, 2003.

65- ____, *Who Wrote the Bible?*, San Francisco: HarperSanFrancisco. 1989.

66- Gregersen, Erik, ed. *The Britannica Guide to Relativity and Quantum Mechanics* (New York: Britannica Educational Pub., 2011.

67- Gribbin, John, ed. *Q is for Quantum: An encyclopedia of particle physics,* NY: Free Press, 1998.

68- Grieg, J., ed., *The Letters of David Hume,* Oxford: Clarendon Press, 1932.

69- Guth, Alan H., *The Inflationary Universe: The quest for a new theory of cosmic origins,* Reading, Mass.: Perseus Books, 1997.

70- Haag, James W., et al., eds., *The Routledge Companion to Religion and Science,* New York: Routledge, 2011.

71- Harris, Sam, *Letter to a Christian Nation,* New York: Knopf, 2006.

72- Hawking, Stephen, *A Brief History of Time A Reader's Companion,* eds. by Stephen Hawking and Gene Stone, New York, Bantam Books, 1982.

73- ____ *A Brief History of Time: From the Big Bang to Black Holes*, New York: Bantam Books, 1988.

74- Hawking, Stephen, and Mlodinow, Leonard, *A Briefer History of Time* (New York: Bantam Books, 2005.

75- ____ The Grand Design, New York: Bantam Books, 2010.

76- Healey, Richard, *The Philosophy of Quantum Mechanics,* Cambridge, NY, Cambridge UniversityPress, 1991.

77- Heeren, Fred, *Show Me God,* Wheeling, IL: Day Star Publications, 1997.

78- Heidel, Alexander, *Babylonian Genesis: The Story of the Creation,* Chicago; London: University of Chicago Press, 1963.

79- Hoyle, Fred, *Astronomy and Cosmology: a modern course,* San Francisco: W. H. Freeman, 1975.

80- Hume, David, *An Enquiry Concerning Human Understanding,* Oxford: Oxford University Press, 2007.

81- ____ *Dialogues concerning Natural Religion*, Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1947.

82- Jaki, Stanley L., *Science and Creation: From eternal cycles to an oscillating universe*, New York, Science History Publications 1974.

83- Jastrow, Robert, *God and the Astronomers,* Toronto: George J. McLeod, 1992.

84- Kant, Immanuel, *Critique de la Raison Pure,* tr. Jules Barni, Paris: Germer-bailliere, 1869.

85- Kastner, Ruth E., *The Transactional Interpretation of Quantum Mechanics: The Reality of possibility*, New York: Cambridge University Press, 2013.

86- Kaiser, Walter C., *The Old Testament Documents: Are They Reliable & Relevant?*, Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2001.

87- King, Leonard W., *Enuma Elish: The Seven Tablets of Creation,* New York: AMS Press, 1976.

88- Lennox, John, *God's Undertaker: Has science buried God?,* Oxford: Lion, 2009.

89- Lipton, Peter, *Inference to the Best Explanation,* London; New York: Taylor & Francis, 2004.

90- Lurquin, Paul F., *The Origins of Life and the Universe*, New York: Columbia University Press, 2003.

91- Mackie, J. L., *The Miracle of Theism*, Oxford: Clarendon Press, 1982.

92- Margenau, Henry, and Roy, Abraham Varghese, eds. *Cosmos, Bios, Theos,* La Salle, Ill.: Open Court, 1992.

93- Meister, Chad V., et al. eds. *Debating Christian Theism,* Oxford; New York: Oxford University Press, 2013.

94- Meister, Chad and Craig, William Lane, *God Is Great, God Is Good: Why Believing in God Is Reasonable and Responsible,* eds. Downers Grove, Ill.: IVP Books, 2009.

95- Miller, Johnny V. and Soden, John M., *In the Beginning-- We Misunderstood: Interpreting Genesis 1 in its Original Context*. Grand Rapids, MI: Kregel Publications, 2012.

96- Monsma, John Clover, ed. *The Evidence of God in an Expanding Universe: Forty famous scientists declare their affirmative views of God,* New York: Putnam, 1958.

97- Moreland and Craig, *Foundations for a Christian Worldview,* Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2003.

98- Moreland, J. P., Scaling the Secular City: A defense of Christianity, Grand Rapids, Mich.: Baker Book House, 1987.

99- ____ *The God Question: An invitation to a life of meaning,* WA: Harvest House Publishers, 2009.

100- Morris, Henry M., *The Genesis Record: A Scientific and Devotional Commentary on the Book of Beginnings*, Grand Rapids: Baker Book House, 1977.

101- Morris, John D., *Is the Big Bang Biblical?: And 99 Other Questions,* Green Forest, AR: Master Books, 2003.

102- Murdock, D. M., *Christ in Egypt: The Horus-Jesus Connection,* Seattle, WA: Stellar House Pub., 2009.

103- National Academy of Sciences, *Teaching About Evolution and the Nature of Science,* Washington, DC: National Academy Press, 1998.

104- Norman, Geisler and Peter, Bocchino, *Unshakable Foundations,* Minneapolis, MN: Bethany House Publishers, 2001.

105- Oord, Thomas Jay, ed. *Theologies of Creation: Creatio Ex Nihilo and Its New Rivals,* New York: Routledge, Taylor & Francis Group, 2015.

106- Oriols, Xavier and Mompart, Jordi eds. *Applied Bohmian Mechanics: From nanoscale systems to cosmology*, Singapore: Pan Stanford, 2012.

107- Overman, Dean L., *A Case Against Accident and Self-Organization,* Rowman & Littlefield, 2001.

108- Pagels, Heinz, *Perfect Symmetry: The search for the beginning of time,* New York: Bantam Books, 1985.

109- Penrose, R. and Isham, C. J. eds. *Quantum Concepts in Space and Time,* Oxford: Clarendon Press, 1986.

110- Politzer, George, *Principes Fondamentaux de Philosophie,* Editions Sociales, Paris 1954.

111- Polkinghorne, John, *One World: The interaction of science and theology,* London: SPCK, 1986.

112- ____ *Quantum Theory: A very short introduction,* Oxford; New York: Oxford University Press, 2002.

113- Polkinghorne, John and Beale, Nicholas, *Questions of Truth: Fifty-one responses to questions about God, science, and belief,* Louisville: Westminster John Knox Press, 2009.

114- Popper, Karl, *Quantum Theory and the Schism in Physics*, London; New York: Routledge, 1992.

115- Sproul, R. C., *Not a Chance: The myth of chance in modern science and cosmology,* Grand Rapids, Mich.: Baker Books, 2000.

116- Rees, Martin, *Just Six Numbers: The deep forces that shape the universe* New York: Basic Books, 2000.

117- ____ *Our Cosmic Habitat,* Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001.

118- Reichenbach, Bruce, *The Cosmological Argument: A Reassessment,* Springfield, Ill.: C. C. Thomas, 1972.

119- Reynolds, Gabriel Said, *The Qur'an and its Biblical Subtext*. London; New York: Routledge, 2010.

120- Richardson, W. Mark and Slack, Gordy, eds. *Faith in Science: Scientists search for truth*, London; New York: Routledge, 2001.

121- Ross, Hugh, *The Creator and the Cosmos: How the greatest scientific discoveries of the century reveal God*, Colorado Springs, Colo.: NavPress, 2001.

122- ____ *The Fingerprint of God: Recent scientific discoveries reveal the unmistakable identity of the Creator,* Orange, CA: Promise Publishing, 1991.

123- Rowe, William, *The Cosmological Argument,* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1975.

124- Russell, Bertrand, *Why I Am Not a Christian: And other essays on religion and related subjects*, New York: Simon and Schuster, 1957.

125- Russell, R. J. and Stoeger, W.R. and Coyne, G.V. eds. *Physics, Philosophy and Theology: A Common Quest for Undestanding,* Vatican City: Vatican Observatory, 1988.

126- Russell, R. J., ed. *Quantum Mechanics: Scientific perspectives on divine action*, Vatican City State: Vatican Observatory; Berkeley, Calif.: Center for Theology and the Natural Sciences, 2001.

127- Sagan, Carl, *Cosmos,* New York: Random House, 1980.

128- Sarfati, Jonathan D., *The Genesis Account: A Theological, Historical, and Scientific Commentary on Genesis 1-11,* Powder Springs, Georgia, USA: Creation Book Publishers, 2015.

129- ____ Refuting Comromise, Sarfati, Jonathan D., *The Genesis Account: A Theological, Historical, and Scientific Commentary on Genesis 1-11*, Powder Springs, Georgia, USA: Creation Book Publishers, 2015.

130- Schopenhauer, Arthur, *On the Fourfold Root of the Principle of Sufficient Reason and on the Will in Nature*, trans. Karl Hillebrand, London: G. Bell, 1889.

131- Sennett, James F. and Douglas R. Groothuis, eds. *In Defense of Natural Theology: A post-Humean assessment,* Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2005.

132- Shapiro, Robert, *Origins: A sceptic's guide to the creation of life on earth* (New York, Summit Books, 1986.

133- Silk, Joseph, The Big Bang, San Francisco: W. H. Freeman, 1989.

134- Sokal, Alan D. and J., Bricmont, *Fashionable Nonsense: Postmodern intellectuals' abuse of science* (New York: Picador USA, 1998.

135- Smart, Ninian, *Ninian Smart on World Religions,* Aldershot: Ashgate, 2009.

136- Smith, George, *Atheism: The case against God,* Buffalo, N.Y.: Prometheus Books, 1979.

137- Spitzer, Robert J., *New Proofs for the Existence of God: Contributions of Contemporary Physics and Philosophy,* Grand Rapids: Eerdmans Publishing, 2010.

138- Sproul, R. C., *Truths We Confess: A Layman's Guide to the Westminster Confession of Faith: Volume 1: The Triune God,* Phillipsburg, N.J.: P & R Pub., 2006.

139- Sander, Nathaniel Philippe and Trenel, Isaac Leìon, *Dictionnaire Heìbreu-Francais* (Imprimerie de Ch. Jouaust, 1859.

140- Stenger, Victor, *Has Science Found God?*, Amherst, N.Y.: Prometheus, 2003.

141- ____ *Not by Design: The Origin of the Universe,* Buffalo: Prometheus Books, 1988.

142- Stern, K., *The Flight from Woman,* New York, Farrar, Straus and Giroux, 1965.

143- Teichman, Jenny, and Evans, Katherine C., *Philosophy: A Beginner's Guide,* Oxford: Blackwell, 1999.

144- Timothy A., Mitchell, *David Hume's Anti-Theistic Views: A critical appraisal,* Lanham, MD: University Press of America, 1986.

145- Vardy, Peter and Julie, Arliss, *The Thinker's Guide to God,* Alresford, Hants, UK: O Books; Unley, S. Aust.: MediaCom Education, 2003.

146- Varghese, Roy Abraham, ed. *The Intellectuals Speak out about God: A handbook for the Christian student in a secular society,* Chicago, Ill.: Regnery Gateway, 1984.

147- Vilenkin, Alexander, *Many Worlds in One: The Search for Other Universe,* New York: Hill and Wang. 2006.

148- Walton, John H., *Lost World of Genesis One: Ancient Cosmology and the Origins Debate,* Downers Grove, Ill.: IVP Academic, 2009.

149- Ward, Keith, *God, Chance and Necessity,* Oxford: One World, 1996.

150- ____ *The Big Questions in Science and Religion* (West Conshohocken, Pa.: Templeton Foundation Press, 2008.

151- Wechsler, Israel S., *A Textbook of Clinical Neurology,* Philadelphia: W. B. Saunders Co., 1927.

152- Weinberg, Steven, *Facing up: Science and its cultural adversaries,* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2001.

153- Wenham, G. J., *Genesis 1-15,* Word Biblical Commentary, Waco, Tex.: Word Books, 1987.

154- Williams, Peter, *A Faithful Guide to Philosophy,* Milton Keynes, England: Paternoster, 2013.